د. كاظم حبيب

نظرات في كتب معاصرة

[الكتاب الأول]

برلين – بغداد

2018 م

المحتويات

نظرات في كتب معاصرة..... 1المحتويات

..... 2

الإهداء..... 5

استهلال 6

الجزء الأول 7

قراءة في عدد من الكتب الأدبية 7

قراءة في كتاب "غُصن مُطعَّم في شجرة غَريبة" (سيرة ذاتية) للدكتور صلاح نيازي 8

ماذا يمكن أن نقرأ في ثنايا رواية "رسائل حب 24

للكاتب والقاص خليجية"جاسم المطير؟..... 24

قراءة مكثفة في كاتب وكتاب..... 32

"بغداد حبيبتي ... يهود العراق... ذكريات وشجون" 32

البروفيسور شموئيل – سامي– موريه..... 32

رسالة من الكاتب البروفيسور شموئيل موريه (سامي المعلم) إلى كاظم حبيب 56

2014/3/21قراءة في كتاب "بغداد أمس" للكاتب البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ 56

قراءة في كتاب "بغداد أمس" للكاتب البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ..... 57

قراءة في كتاب "بغداد أمس" 66

قراءة في كتاب [هروب موناليزا "بوح قيثارة"] للشاعرة بلقيس حميد حسن 80

قراءة في مسرحية "ثور فالارس" للكاتب والصحفي ماجد الخطيب 87

دراسة معمقة في حياة وأعمال ونقاد هاينريش هاينه للكاتب ماجد الخطيب 108
قراءة في رواية صيدُ البطِّ البرّي للروائي محمود سعيد 113
قراءة في راوية "متاهة إبليس" للروائي العراقي برهان شاوي 123
حوارات فكرية وسياسية ممتعة مع الصديق البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ 130
الجزء الثاني: قراء في كتب تبحث في الاستبداد والعنف والتعذيب بالعراق 134
قراءة في كتاب تاريخ العنف الدموي في العراق" للكاتب باقر ياسين..... 135
الأساس المادي للقسوة والتعذيب والتمييز في المجتمع 135
"قراءة في كتاب 155
"جدار بين ظلمتين" للكاتبة بلقيس شرارة ورفعة الجادرجي 155
"الجلاد والضحية في بلاد الرافدين!"..... 155
"الوحشية المرعبة للنظام في زنازين النساء بالعراق"..... 167
1. "الوحشية المرعبة للنظام في زنازين النساء بالعراق" في ضوء كتاب جين ساسون..... 173
2. واقع المرأة في المجتمع العراقي 184
قراءة حزينة في كتاب "شاهد عيان: ذكريات الحياة في عراق صدام حسين"..... 193
للدكتورة جمانة كبة..... 193
الجزء الثالث: قراءة في كتب عن الإسلام والمسلمين 198
قراءة في كتاب "نبوة محمد" للكاتب الدكتور محمد محمود..... 199
في كتاب "أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر"..... 207
للكاتب الدكتور الطبيب حامد فضل الله..... 208
قراءة في مقالة – صورة الإسلام في ألمانيا – 220
للبروفيسور الدكتور هاينر بيليفيلد..... 220

في الجزء -النظري- من كتاب -نحو ثقافة تأصيلية- -البيان التاصيلي-. Error! Bookmark not defined.

للسيد محمد شاويش..... Error! Bookmark not defined.

الإهداء

إلى زوجتي ارمتراود (يان) حبيب، ألمانية الجنسية وعراقية الهوى، التي تحملت مني الكثير بسبب انشغالي الدائم في الشؤون السياسية وفي البحث العلمي والقراءة والكتابة والاجتماعات والندوات والمؤتمرات ذات الشأن العام، كما كانت خير عون لي في تأمين حياة الحب والاستقرار في شيخوختي لأكرس ما تبقى من وقت يسابق الريح للشأن العام الذي لصق بي ولصقت به طوال عمري، تماماً كما لصق الحب بيننا منذ 55 عاماً حتى الآن...

إلى كل من كتب ونشر كتاباً وحفزني على القراءة والكتابة والنشر، إلى كل من أخذ ويأخذ بالحكمة المندائية الرفيعة القائلة:

"ويل لعالِمٍ لا ينفتح على غيره, وجاهل منغلق على نفسه"، ولم تكن هذه الحكمة مجرد قول نظري، بل مارسها الأستاذ المرموق والمميز والفقيد الدكتور عبد الجبار عبد الله بعلمه وعمله وانفتاحه على المجتمع من خلال جامعة بغداد وبحوثه العلمية ومواقفه الإنسانية.. وعانى الأمرين بسبب ذلك!

كاظم حبيب

استهلال وشكر

خلال السنوات المنصرمة تسنى لي قراءة كتب كثيرة ومتنوعة في الاقتصاد والسياسة، في الأدب، القصة والشعر والنثر والرواية والمسرح, في سير حياة الكثير من الشخصيات العراقية، في القانون والتاريخ والتراث والدين والعلمانية، وفي الفنون الإبداعية. وقد أغنتني كلها وتعلمت منها الكثير ولها الفضل في ما أكتب. وتسنى لي أن أكتب مجموعة غير قليلة من الكتب، إضافة إلى كتابة مجموعة من القراءات في كتب اقتنيتها أو أهديت لي من كتابها مشكورين والتي وجدت هوى في نفسي فكتبت عن بعضها لأنها كانت وما تزال تثير الجدل وتدفع الإنسان إلى التفكير والبحث والتقصي.

لقد سجلت وجهة نظري الشخصية في ما قرأت، وهي بمثابة دعوة للقراء والقارئات في أن يساهموا في مناقشة ما ينشر والكتابة النقدية عن الكتب والمقالات التي تنشر لأنها تساهم في بلورة الكثير من المسائل الحياتية الضرورية وتناقش المعلومات والمعارف والخبرات وتساهم في تحفيز الناس على القراءة والكتابة.

أقدم شكري الجزيل لكل الكُتاّب الأحبة الذين أهدوني كتبهم القيمة والتي سمحت لي الاغتناء بما جاء فيها وعرضها على القراء للتعريف بها.

أقدم خالص شكري وامتناني للصديق العزيز والأديب القدير والمميز الدكتور صلاح نيازي على تجشمه عناء قراءة وتدقيق الكتاب لغوياً، في وقت كان هو بأمس الحاجة للوقت من أجل إنجاز وتدقيق ترجمته لأحد كتب شكسبير القيمة التي كانت تنتظر الطبع في مؤسسة المدى.

أملي أن أشارك بنشر هذا الكتاب وما يتضمنه من قراءات في التحفيز المرجو للقراءة والكتابة والنشر.

كاظم حبيب

برلين في خريف 2018

الجزء الأول

نظرات في عدد من الكتب الأدبية

سير ذاتية ، ذكريات ، مسرحيات وروايات

قراءة في كتاب

"غُصن مُطعَّم في شجرة غَريبة" (سيرة ذاتية) للدكتور صلاح نيازي

اسم الكتاب: غُصن مُطعَّم في شجرة غَريبة اسم الكاتب: صلاح نيازي

دار النشر : دار ميزوبوتانيا للطباعة والنشر والتوزيع

مكان النشر: بغداد

سنة الإصدار: 2013

استهلال

تسنى لي في ربيع العام الجاري (2013) اللقاء بالأخ الدكتور صلاح نيازي في احتفال تأبيني حزين، في الذكرى التاسعة والثلاثين للعدوان الذي نفذه النظام البعثي الدكتاتوري بالعراق ضد جامعة السليمانية في العام 1974 في مدينة قلعة (دي زه) مستخدماً طائراته الحربية في قصف الاحتفال مع بدء الدراسة فيها.

فسقط 167 شهيداً ومئات الجرحى والمعوقين ضحايا هذا القصف الإجرامي. وجهت الدعوة لنا من الأخ والصديق رئيس المجلس المركزي للاتحاد الوطني الكردستاني الأستاذ عادل مراد. وإذ قدمت كلمة قصيرة في هذا الاحتفال الجماهيري الحاشد في مدينة قلعة دي زه، ألقى الصديق صلاح نيازي قصيدته الرائعة حول تلك المجزرة اللعينة والفاجعة الحزينة التي كان قد كتبها في العام 1989 وجاء فيها:

قال لي صديقٌ هاربٌ توّاً:

كنتُ مثلَ أعمىً مهدّدٍ بالاغتيال

يركضُ في كلّ اتجاه وأُذُناه في دردور

كيفَ تُواسي أعمى مهدّداً بالاغتيال؟

اتخذ الجنودُ مواضعَ الرمي بالذخيرةِ الحيّة

عينٌ مغلقةٌ، وعينٌ محشوّةٌ بالرصاص

سدّوا الطرقات، كالأسلاك الشائكة

آلاف الآدميين بثياب النوم

داخلَ اللوريّات الخاكية

مائةٌ وثلاثون ألفَ صراخ محصور

ممنوع عليها الأكلُ والشربُ والمراحيض

كمْ طفلٍ بال على نفسه من الخوف الآن

وخلال وجودنا المشترك ومع مجموعة من الأصدقاء في السليمانية لمدة أسبوع ازدادت المعرفة بيننا وشرفني بإهدائي بعض كتبه، ومنها كتابه المعروف: "غُصن مُطعَّم في شجرة غَريبة" سيرة ذاتية للكاتب صلاح نيازي.

الدكتور صلاح نيازي شاعر وكاتب ومترجم عراقي قدير بتميز، يعيش منذ العام 1963 في لندن وصاحب مجلة الاغتراب الأدبي التي أصدرها في العام 1985 واستمرت حتى العام 2002 بجهود فردية استثنائية وبدعم من زوجته الكاتبة والقاصة العراقية سميرة المانع. ومن اطلع على أعداد من المجلة يدرك الدور المهم الذي لعبته في نشر الفكر والثقافية الديمقراطية والتقدمية وفي مواجهة الفكر والثقافة الصفراوين حينذاك.

كان صلاح نيازي وما يزال غزير الإنتاج شعراً وأدباً، إضافة إلى أبحاث ودراسات ومقالات، ومجموعة من الكتب الغنية والمهمة وكذلك ترجمات لكتب ذات أهمية في الحياة الأبية والثقافية العالمية. نشر صلاح نيازي في المجالات التالية:

**** "الشعر:**

كابوس في فضة الشمس . بغداد 1962

المفكر . بغداد 1976

الهجرة إلى الداخل . بغداد عام 1977

نحن . بغداد عام 1979

الصهيل المعلب . لندن 1988

وهم الأسماء . لندن 1996

أربع قصائد . لندن 2003

ابن زريق وما شابه . بيروت 2004

**** البحوث والدراسات:**

تحقيق ديوان ابن المقرب العيوني مع دراسة نقدية، أطروحة دكتوراه مقدمة لجامعة لندن . 1975

البطل والاغتراب القومي . بيروت 1999

المختار من أدب العراقيين المغتربين الجزء الأول/ المقالة

**** السيرة الذاتية:**

غصن مطعم بشجرة غريبة . بيروت 2002

**** الترجمة:**

رواية العاصمة القديمة لكاواباتا . دمشق 1999

مسرحية مكبث لشكسبير . بيروت 2000

رواية يوليسيس لجيمس جويس . دمشق 2001

مسرحية ابن المستر ونزلو " لترانس راتيغان" . بيروت 2002

مسرحية هاملت / ترجمة

ملحمة گلگامش / دراسة نقدية.

ترك صلاح نيازي العراق في العام 1963 على اثر الانقلاب الدموي الذي وقع في 8 شباط/فبراير الدموي ضد الجمهورية العراقية الأولى واعتقل وأسيء إليه، كما أسيء إلى الكثير من أبناء وبنات الشعب العراقي وعُذب منهم الألوف المؤلفة وقُتل المئات من خيرة أبناء وبنات الشعب. واجه حياة الغربة والاغتراب الداخلي حتى حين كان في الوطن. وكان قد نكب قبل ذاك بمقتل أخيه في ظل الاضطرابات السياسية التي سادت البلاد في العام 1961.

والكتاب سيرة حياة ذاتية للكاتب، فريدة في نوعها ومليئة بالأحداث والمفاجئات. الكتاب يختلف عن عشرات الكتب التي سجلها أصحابها باعتبارها سيراً ذاتية. ولم تكن تماماً كذلك. لقد ارتدت الغالبية العظمى من كتب السير الذاتية أقنعة وكتب أصحابها ما يشاؤون واعتقدوا بأن الناس لا يرون وجوههم الحقيقية أو لم يقرؤوا عنها شيئاً ولا يعرفون سيرتهم. أما كاتبنا المميز القادم من الناصرية، المدينة الممتلئة شعراً وغناءً، فقد خلع كل الأقنعة التي كان في مقدوره أن يرتديها، وهو القدير، وفضل الاستلقاء على سرير طبيب نفساني هو ذاته، وترك لنفسه حرية الحديث المفتوح والصريح والشفاف عن نفسه والصادق مع نفسه وعن معاناته ليتخلص من علله النفسية وأوجاعه الجسدية psychosomatic التي تَسببَ بها المجتمع والنظم السياسية التي سادت بالعراق والتي طاردته طوال عقود. والسؤال المشروع هو: هل تخلص صلاح نيازي منها بعد أن نكثها عن نفسه ونظر إليها بمرآة كاشفة؟ أشعر، كما هو يرى ذلك أيضاً، إنه ما يزال يحمل بقايا من تلك العلل والأوجاع التي تحدث عنها في كتابه ولم يبل منها تماماً، ومن يرافقه لفترة يستطيع أن يتلمس ذلك ويدرك الأسباب الكامنة وراء ذلك والتي شخصها الدكتور صلاح نيازي ذاته بجرأة ومسؤولية عالية. الكثير جداً من المثقفات والمثقفين العراقيين يأنون من ذلك ولكنهم لا يجرأون على مكاشفة النفس ولا يخلون إلى أنفسهم لمراجعة جادة ومسؤولة.

استناداً إلى هذا التقدير، وربما أكون مخطئاً فيه، وجدت أن الكاتب قدم لنا كتاباً تحليلياً عميقاً غاص في عمق المجتمع العراقي الشرقي ونشر غسيل هذا المجتمع بقوة وحيوية عالية وقناعة تامة، فهو يحمل في ثناياه تناقضات الإنسان والمجتمع والحياة ذاتها والكاتب في آن. والكتاب ليس جديراً بالمطالعة فحسب، بل يسهم وإلى حدود جيدة في مساعدة الإنسان في التعرف على نواقصه ومشكلاته وعلله، وخاصة أولئك الذين يريدون كتابة سيرهم الذاتية أو من يعمل في الشأن العام، وأنا منهم، من أجل أن يفيدوا أنفسهم وينفعوا الناس.

الكتاب يحمل أصالة وفرادة في آن. استخدم الكاتب لغة بارعة رشيقة وأنيقة وحديثة، وفيها أحياناً زمجرة الأسد الجريح أيضاً وأحياناً أخرى أنين الإنسان المريض. اللغة الأدبية التي كتب بها الكتاب ذات نكهة شعرية جميلة يحس القارئ أو القارئة من خلالها بمعاناة الكاتب في اختيار الكلمة والجملة المناسبتين المعبأتين بمضامين مكشوفة ومبطنة، رغم سلاسة ما وصل إلينا منه. فالكلمة لها جدليتها الخاصة ومكنوناتها، إنها عبق الأدب والحياة.

لم يكن صلاح نيازي وحده في الحالة المزرية التي عاش بها بالعراق أو حين خرج منه، حين كان يتمنى أن يموت بعيداً عمن يريد قتله بطريقة أخرى غير التي هو يريد الموت بها، ولكن ليس كل هؤلاء حملوا ذات الهموم وذات المشاعر وذات الأحاسيس التي حملها وعبَّر عنها صلاح نيازي بكتابه المفعم بروح إنسانية حالمة. حين تقرأ كتابه "غصن مطعم في شجرة غريبة" يفرض عليك الكاتب أن تحلق في فضاء أوسع، فعنوان الكتاب حمال أوجه عديدة ومعانٍ كثيرة وأبعادٍ عديدة، إنه اللحن الجميل والمعذِب، إنه لحن الحياة النابض المزروع في أرض قاحلة، إنه لحن الواحة في سراب الصحراء الممتد بعيداً في الأفق، إنه الغصن المعطاء والمطعم في شجرة مزروعة في أرض سبخاء.

خرج صلاح نيازي من العراق وهو يعاني من علل نفسية وأوجاع وزواج جميل تم لتوه في أوضاع مرَّة، كان يريد أن يموت كما يرغب هو وليس كما يريده الأشرار له، فالأشجار الشامخة تموت وهي واقفة ولا تحني شموخها للعواصف الصفراء أو تموت بها. كتب يقول:

""أمنيتي الوحيدة لا الوصول إلى لندن، لا العيش فيها، ولكن الموت في مكان آخر، الموت بإرادتي، أردت أن أحس اللذة السوداء في الوفاة.. أردت أن اختار نوع موتي، كما اختار السهروردي موته.. كان أشق شيء عليَّ أن يشفي قاتلي غليله، أن أموت تحت قدميه وآلات تعذيبه مهاناً مذلاً، أمنيتي أن

أحرمه من إشباع حقده.. غمرتني النشوة ثانيةً حينما تفتحت أمامي أوروبا خضراء شاسعة. إذن – قلت لنفسي– هذه أوربا وكلها قبر لي، ومرة واحدة شعرت بلذة الانتصار، كمن يخاف المشنقة فيتلذذ بقرص للموت.. الآن أستطيع أن أقرر مصيري في أي لحظة. أصبحت إرادة موتي بيدي، وهو ما لا أريد لأحد أن يفرضه عليّ بالتجويع والتعذيب والإذلال. قررت أن لا ألتفت إلى الوراء بعد اليوم ."(ص 47). (1) إنه لا يريد أن يموت كما مات أخوه غدرا!

الكتاب الذي بين أيدينا يمنحنا فرصة التعرف على حياة شخصية عراقية متفردة في نشيجها وفي ما تحملته من هموم وأحلام وأوهام وشكوك وخشيات وقلق مستفحل كامن ومستقر لا يغادرها، وهي شخصية لا تريد أن تترك كل ذلك، فهي التي ساهمت وساعدت في أن يكون على ما هو عليه الآن: إن يكون شاعرنا الكبير وكاتبنا المقدام ومترجمنا الذي لا يضاهى، إضافة إلى كونه إنساناً بديعاً وصديقا لا يعوض ومتحدثاً لبقاً لا يكل ولا يمل إذ يحمل معه إرثاً حضاريا وتجربة غنية.

"غصن مطعم في شجرة غريبة": نحن أمام كاتب دوخته الدنيا وأتعبته الحياة وعجنته المصائب والمصاعب وأذاقته السنين العجاف مرَّ العذاب والحرمان والجوع، ولكنه لم يركن إلى الكسل ولا إلى الملل ولم يترك المقاومة والنضال في سبيل البقاء على قيد الحياة والتقدم، فانتصر عليها وأن تركت بصماتها وآثارها بارزة في حياته اليومية وعلى شخصيته وعلاقاته. فهو شخصية حالمة يتمتع ببراءة الأطفال حين يكون في صحبة النساء الحسناوات ويتباهى بهن وينتعش بكلمة حب طاهرة تنطلق من فم باسم لإحداهن، فما تزال نفسه خضراء بتعفف أبوي وروحه زاهية بتوثب وقدرته على العطاء غير محدودة.

صلاح نيازي ابن الرافدين وابن حضارات سومر وأكد وبابل، وواحدة من مهود الحضارة الإنسانية، إنه سليل ذلك الشاعر المجيد والخالد الذي سجل لنا ملحمة گلگامش بكل شجونها ومراراتها واستبداد حاكمها گلگامش. ابن بلد الشعر والغناء والرسم، ولد في ذات البلد الذي تحدث عنه الشاعر گلگامش في ملحمته. لم يكن گلگامش يبحث عن سر الوجود والخلود، ولم يكن قوياً ومقداماً فحسب، بل كان قاسياً وظالماً ومستبداً في آن. وهنا ربما نكتشف الخيط لذي يشد المستبدين بالعراق، خيط غليظ يشد گلگامش بصدام حسين والمالكي وقبل ذاك ومن يأتي بعدهم.

كتب في قصيدة المنزل عن العراق كمنزل وعن أهل هذا المنزل يقول: (2)

ذكرتَ الحضارات،

بيتي التقاء العصورْ

جنائن بابل فوق الجدار

معلقة ، همَّ يمشي بها الماءُ ، سبّاحة في سماها الطيور

وذلك حارس بوابتي أسد سومريٌّ هصور

مصغَّرة نينوى فوق مكتبتي يشرئب بها الكهنة

وعروة كوز قديم أرى

بزرقة فخّارها عطش الذائبين بأتربة الأزمنة

العراق بلد العلل والأوجاع النفسية، بلد الأحزان والآلام، بلد الحب والعطاء، بلد الخشونة والقسوة واللارحمة والاستبداد. يصور لنا صلاح نيازي، وهو في بداية الكتاب كيف عاش تجربة سادية مريعة وهو ما يزال صبياً تركت أثرها الشديد في نفسه، حين قام واحد من أبناء الجيران "البدو!" بقتل كلبة صلاح نيازي التي كانت تكره المسبحات السوداء وتزعج المارة بسلوكها، ويقارن هذا السلوك البشع بأسلوب التعامل الإنساني لطبيب بريطاني متحضر مع كلبة صلاح نيازي المريضة التي كان لا يرجى شفاؤها. (ص 16). حين يتحدث عن هذه الحادثة الأليمة وتشعر وكأنه يتمنى أن يستطيع كنس تراث القرون الوسطى الذي ما يزال يعشش في العراق وفي رؤوس الكثير من حكام العراق.

قبل عدة سنوات قرأت مقالاً لعراقي يحمل لقب بروفيسور ودكتور في اللغة والأداب يتحدث فيه بفخر واعتزاز وشموخ كيف إنه أدب شخصاً في محطة التلفزيون ببغداد باللكمات والبوكسات والرفس والركل والهجوم على المرمي على الأرض! وقد تألمت كثيراً وشعرت بالحزن لهذا الرجل والنفور منه وهو الذي يعيش منذ عقود في وسط الحضارة الغربية ولكنه لم يتعلم منها شيئاً حضارياً مفيداً، بل واصل اعتزازه بعمل قبيح ووقح مارسه قبل خمسين عاماً ضد شخص آخر لاختلاف في الفكر ويعيد ذكره، وربما يحن لإعادة إنتاجه، وكأنه كتب قصيدة عصماء! إنها العنجهية والعدوانية التي لا تفارق الكثير من البشر

بالعراق وفي غيره من البلدان النامية. وما يعيشه عراق اليوم يكشف عن هذه الحقيقة المرة بأبشع صورها!

حين يتحدث صلاح نيازي عن الإنسان وتواضعه ويقارن بين عراقي يتحدث كثيراً عن نفسه، وبين بريطاني يبتعد عن ذلك، يشير إلى زميلته في الإذاعة التي كان يحدثها عن وضعه ومشاريعه فكتب ما يلي: "مرة، وقد أشبعتها مشاريع ومطامح، قالت بخفوت من بين شفتيها الطريتين:

„AS USUAL"، "SETTING THE THAMES ON FIRE (ص 174)

لم اسمع بهذا القول، فابتسمت وكأنني فهمت ما الذي تعنيه، ثم حجبت وجهها بين صفحتي رواية ذات حجم كبير، قلت لا بد إنها غارقة فيما تقرأ. لم أحاول أن أعرف في الحال، ولا في اليوم الآخر ولا في السنة التالية، لأنها انتقلت، ولم يكن يعنيني من أمرها شيء، لأن غروري كان أكبر من أي عارض مرحلي. عرفت بعد حوالي سنتين، وانأ أسترجع تلك الفتاة في ذاكرتي إنها لدغتني لدغة مهذبة، كلدغة القطرة في العين. هل كنت فعلاً كما قالت الفتاة الإنكليزية ساخرة، اجترح المعجزات وآتي بالمستحيل؟ لماذا كل هذا التشبع بالذات؟ من المسؤول عن خرابي النفسي؟" (ص 175/174). ثم يعود إلى الموضوع ثانية بعد عدة صفحات ليؤكد ما يلي: "كانت لدغة زميلتي الإنكليزية حادّة كسكين مسنونة لا تحسُّ بجرحها فوراً ولا ينزف معها دمك فوراً. ولكن بعد حين يبدأ الألم والنزف". (ص 180).

يلاحظ القارئ والقارئة أنَّ الجواب عن السؤال الخاص بخرابه النفسي يوحي للقارئ والقارئة بجواب واحد لا غير: إنا ضحية، أنا ضحية هذا المجتمع. ويؤكد ذلك حين يقول في مكان آخر: "أنا ضحية العقلية الشفاهية السائدة بالعراق"!

ثم يعرج صلاح نيازي حول قضية أخرى ويشير إلى التباين في الرؤية والتحليل والتفسير بين العراقيين والبريطانيين، كيف نقف نحن عند سطوح الأمور وهم يوغلون عمقاً، يلجون في عمق المسائل المدروسة، ونحن نبحث في القشور، يقول الكاتب: "نحن نتحدث عن الغابة والبستان، وهم يفحصون كل نبتة على حدة، طولها، عرضها، خلاياها، أنساغها، لحاءها، استنباتها، تطويرها، أفضل بيئة لها" ويخلص إلى القول "أنا ضحية العقلية الشفاهية السائدة في العراق" (ص 83). هذا الإحساس العميق بأنه ضحية رافقه طوال حياته، وما يزال يعاني منه، ولن يتخلص منه!

وفي موقع آخر يقول صلاح "لماذا نتحدث عن أنفسنا بهذا الإفراط لدرجة الإسفاف؟ أحزاننا أكبر من كل الأحزان، وأفراحنا ممتلئة بالأنانية. وفي بعض الأحيان يكون فرحنا تشفياً، بالآخرين". (ص 181) ألا يبرهن لنا هذا الكتاب ذاته عن صحة ما توصل إليه الكاتب وهو مستلقٍ على سرير الطبيب النفساني، الذي هو نفسه، ليعالج نفسه بنفسه؟ لقد ترك لروحه وحياته حرية الحديث عن نفسيهما، وقد أجاد تسجيل حقائق الأمور، وأجاد التعبير عنها ونفع من يريد الانتفاع منها.

كتب الصديق صلاح نيازي: "قال لي أستاذي المشرف على أطروحتي بثقة طبيب وكأنه يعالجني من مرض: إنك تكثر من أل "أنا" وهذا لا يجوز في الأطروحات الأكاديمية، ولم يُكمل قراءة الفصل. كانت الوصفة الطبية ناجعة فعلاً، أولاً لأن الـ "أنا" قُرِنت بمرض، وثانياً لأن الأطروحة لن تقبل بوجود هذه العاهة". (ص 182). اعتقد جازماً بأن الأستاذ نيازي يعرف جيداً بأن الإكثار من أل "أنا" غير محمودة، سواء أجاءت في أطروحة دكتوراه أم في الأحاديث العامة والحياة اليومية.

يواصل الزميل قوله: "كان العلاج صعباً وتطلب سنوات، وما زلت أشكو من عقابيله". (ص 182). مرة أخرى يستلقي الزميل على سريره فهو متيقن حتى الآن أنه ما يزال بحاجة إلى معالجة هذه الظاهرة. كم أنت صادق مع نفسك، كم أنت حكيم.

يشخص صلاح نيازي مشكلة اجتماعية ونفسية كبيرة وعميقة الجذور يعاني منها الإنسان العراقي. انها الحديث عن الـ "أنا" المضخمة والمفخمة والغرور والاعتداد بالنفس ويعتبرها أمراضاً تستوجب العلاج، وهي ناشئة من تربية الأجيال المتعاقبة، فكيف الخلاص منها؟ إنه فخاخ منصوبة للإنسان! والـ "أنا" تصل في مراحل معينة إلى المقارنة مع الـ "آخر"، عندها تبرز ظاهرة النمطية في التمييز بين الـ "أنا" والـ "آخر: أو ما يطلق عليه بالاستريوتوب Stereotyp، أي الشخصية ذات التفكير النمطي.

كتب عن نشوء هذه العلل النفسية لدى الإنسان وهو طفل رضيع وصبي في المدرسة ما يلي:

"الأم العراقية ترضع طفلها الغرور مع الحليب: أجمل طفل، أفضل طفل، في المدرسة، درجاته أعلى الدرجات بين أقرانه، المعلمون يستغربون من ذكائه، جاء بالمرتبة الأولى. بجمل كهذه تنمي الأم في طفلها روحاً ديكية، قوية في المظهر، هشة في الداخل، والديك مهما كان تطوسه أجبن من عليها". (ص 64). ثم يتحدث عن المجتمع والمدرسة ويخلص إلى حصيلة واقعية ومحزنة:

"شربت الاعتداد بالنفس والطموح، منذ البداية، وها أنا اليوم أحاول شيئاً مستحيلاً. أريد أن أعزل حليب الأم الأول عن تلك الأمراض الخطرة المعدية". (ص 65). أجدد إعجابي وصدق احترامي لجرأته في تحديد ما عانى وربما يعاني منه حتى الآن.

يثير الدكتور صلاح الكثير من الأسئلة المهمة التي يجيب عن بعضها ويترك البعض الآخر لمهمة القارئ والقارئة. ويريد أن يشعرك بأنه قد تغير تماماً عما كان عليه من قبل حين كان ثورياً بالعراق، إذ كتب يقول:

"باختصار، لم تعد الشعارات الثورية، تلهب في دمي النار، وأصبحت فلسفة "التغيير من الجذور، تفزعني." (ص 68). ولكن صلاح نيازي نفسه كتب عن الجمود الذي يلف العراق والذي هو بأمس الحاجة إلى التغيير:

"منذ مئات السنين، لم يتغير شيء في سومر. نفس الوجوه المتأزمة، نفس الأحاديث الشاتمة والعنجهية، نفس الغرور المزهوّ بذاته، وفي الإحباط هم قصيرو الرقاب يلوذون كحيوانات منهورة ووجوههم كامدة كخيم محترقة". ص (203).

ليس هذا بغريب عن إنسان عاش المصاعب والمصائب بالعراق، ثم هو الآن يعيش في بلد تركت الروح الثورية منذ قرون خلفها واستساغت التطور الإصلاحي أو التدريجي، كما إن العمر والثقافة وطاقات الإنسان تلعب كلها الدور البارز في تحديد الموقف من عمليات التغيير الاجتماعي. أحس بأني لم أعد ثورياً بتلك الصورة التي كنت عليها قبل عقدين أو أكثر مثلاً، ولكن ما زلت أطمح إلى التغيير الجذري في المجتمع وعن طريق سلمي وديمقراطي.

يواصل الدكتور صلاح نيازي تسجيل رؤيته للتغير فيشير إلى ما يلي:

"لا يمكن للحضارة أن تبدأ بين عشية وضحاها. إنها كالبذور لا بدَّ لها من نمو بطيء. قد تعجل في خلق مجتمع متعلم، ولكن من الصعوبة أن يُخلق مجتمع متحضر، في فترة زمنية قصيرة". ص (68) وهذه المسألة تنطبق على الفرد أيضاً. فكثيراً ما يلاحظ بأن شخصاً عاش في بريطانياً عقوداً عدة وتعلم فيها وكون علاقات واسعة، ولكنه، وحال ما يعود إلى بلده، يعود إلى ذات السلوكيات التي مارسها قبل وصوله لندن مثلاً. أي لا بد لنا من التمييز بين التعلم والتحضر, فالمسافة بينهما طويلة. ولكنها ليست مسافة فقط، بل يفترض أن نفكر بما يفترض أن يحصل خلال الفترة الواقعة بين التعلم والتحضر،

إضافة إلى: ماذا نريد من تعلم الفرد والمجتمع؟ كانت الإجابة عن هذا السؤال ضرورية ولو بصورة غير مباشرة. عليَّ هنا أن أشير إلى إن المشكلة تكمن أيضاً في الانقطاع الحضاري بين سومر والعراق الراهن، إذ بينهما الإسلام وما أدراك ما حصل خلال الفترة الواقعة بينهما، إنه الانقطاع الحضاري الفعلي الطويل يا صديقي العزيز.

ليست مهمة الكتاب وضع المعالجات للمشكلات القائمة، فهو كتاب يتحدث عن سيرة ذاتية، فهو ليس بكتاب تعليمي، رغم ما فيه من حكم ودروس وإيحاءات وإشارات نقدية قوية في هذا الصدد. ولكني أدرك تماماً بأن الوصول إلى التعليم والتحضر يفترض أن يرتبطا عضوياً وجدلياً بتغيير البنية الاقتصادية المشوهة والمتخلفة الراهنة والتي ستساهم بدورها كعلمية سيرورة وصيرورة مترابطة في تغيير البنية الطبقية للمجتمع وبلورة الفئات الاجتماعية الحاملة للمجتمع المدني والديمقراطية. إذ إن التغيير الاقتصادي والاجتماعي يقترنان بتغيير في بنية التعليم والتربية وفي الوعي لدى الإنسان، وكلها تدفع وعبر عملية اقتصادية- اجتماعية- ثقافية –تعليمية وتربوية منزلية وسياسية معقدة وطويلة وصعبة للغاية، ولكنها غير مستحيلة، باتجاه خلق مجتمع ليس متعلماً حسب، بل ومتحضراً. فالمجتمع البريطاني لم يكن قبل عدة قرون أفضل من المجتمعات العربية أو المجتمع العراقي بصدد تلك العلل. والمسافة بين المجتمع البريطاني والمجتمع العراقي حالياً بعيدة وكأنها قرون تفصل المجتمع العراقي عن المجتمع البريطاني، ولكنها ليست قروناً من السنين فقط، بل وانقطاعاً حضارياً مديداً. دعني أقول ما ذكره الصديق الدكتور زهدي الداووي في إحدى نقاشاتنا، وهو مؤرخ وروائي في آن. ما يلي:

"مشكلة معظم الأدباء والفنانين العراقيين في الغربة هي المقارنة بين وطنهم العراق وأوروبا، دون فهم الخلفية التاريخية لعملية التطور. العراق ليس امتداداً عضويا لسومر وأكد بدليل أن الإسلام قد أدى إلى انقطاع حضاري عن الجذور، الأمر الذي أدى إلى ركود هائل في عملية التطور وكان أن تخلف العراق والبلدان الأخرى عن مواكبة الثورة الصناعية التي تسببت في نشوء وتطور البورجوازية الصناعية"، وهو رأي صائب أتفق معه تمام الاتفاق وأضيف إليه وتسبب في نشوء وتطور الطبقة العاملة وفئات من المثقفين والمثقفات والحياة الثقافية.

يقول صلاح نيازي:

"خرابنا في داخلنا وهذه أتعس طامة، أصبحنا كالخشب المأروض. لأكُن مريضي وطبيبي، رأس عيادتي. لأتعرف عليَّ، أولاً، وعلى جذوري الخفية." (ص 195). هذا بالضبط ما أشرت أليه في البداية في كونه استلقى على سرير طبيب نفساني هو صلاح نيازي ذاته. أعود فأقول لا يكفي أن نشخص العيب، بل لا بد من رؤية وتشخيص سبب العيب، إذ عندها يمكن معالجة العيب! إذ إن الحيرة أمام هذا الواقع لا تدفع بنا خطوة إلى الأمام.

كتب يقول بلغة وصورة شاعرية: "ما الذي حدث؟ هل جعلتني الغربة شبحاً لأجوس في الأطلال كفلاح صينيّ وازنت العصا والسلتين على ظهري. سومر بكفة وبغداد بكفة وعدت إلى لندن. رششت التراب الذي حملته من العراق على طول حديقتي. لماذا فعلت ذلك؟ لا أدري". لا نحتاج إلى كثير عناء لنعرف السبب. نشر المركز الثقافي العراقي في شباط/فبراير من هذا العام (2013) مقالاً لكاتب لم يذُكر اسمه جاء فيه:

"كلما ابتعدنا صرنا نلتفت إلى الوطن أكثر، نبحث في ما حولنا عن إشارة أو ذكرى أو ابتسامة أو حتى دمعة تشير إليه، لذا حين تطالعنا كلمات الشاعر العراقي الدكتور صلاح نيازي يمكن أن ندرك أي جهات تبددت أمامه وهو يلتفت دوما نحو العراق". العراق يعيش في بريطانيا، ولكنه يعيش الغربة ويعيش الحنين، شاء ذلك أم أبى وهو الذي كتب القصية البديعة التالية:

هكذا، من بلدٍ إلى بلد
أفتّش بين النجوم عن بنات نعش
وأقول إذن من هنا العراق
درجت معهنّ منذ الطفولة
أعرّفهن واحدة واحدة، ويعرفنني من بين كل الصبيان
في بعض الأحيان يغمزن لي حين أكون وحيداً
يومها دخلت رهبوت السر، وانتشيت كطائر، كطائر
هنّ كالقناديل في صواني العرس يطفن في السماء
وفي الليالي الغائمة احزن وتختلّ الدنيا
أتفقدهنّ لأنّهن كلّ ما أملك من أمان
مجرد وجودهن دليل الثبات والديمومة، يا للاطمئنان

تعوّدت أن أراهنّ فوق رأسي

إلى اليمين قليلاً، أمامي قليلاً.

هذا هو مكانهنّ الثابت، جذوري التي في السماء.

أحببت صغراهنّ التي تلهث وراءهن في رحيل دائم

تلهث وتعرج وتلهث في رحيل دائم

ما انتظرنها يوما، ولا هي قادرة على اللحاق

قيل عرجاء، تلهث وتعرج، ومن حبي لها سمّيتها مليحة

هكذا من بلدٍ إلى بلد إلى بلد

أفتش بين النجوم عن مليحة العرجاء

واليوم اسمع لهاثها ولا أراها في هذه السماء الغريبة

نظرت كالمعتاد إلى المكان الثابت في السماء

إلى اليمين قليلاً، إلى الأمام قليلاً، وما من أثر

حينما تتغير خريطة الأشياء تستنفر الحواس

هذه هدية الغربة

سألت صديقاً عن وضعه في الشتات العراقي، فأجابني قائلاً: "الوطن أم، والغربة مرة الأب". وفي أوضاع العراق الراهنة: "الوطن مرة الأب والغربة هي الأم"، هذه هي الغربة كما عكسها صديق آخر.

مارس صلاح نيازي أعمالاً كثيرة وأبدع فيها، سواء أكان ذلك في الإذاعة أم التدريس الجامعي أم في الترجمة، ولكنه لم يمارس العمل اليدوي، ولذلك تجد تجربته قد تكثفت في تلك المجالات التي عمل فيها ولم تنعكس أو تتجلَّ في ما يعاني منه العمال والفلاحون الفقراء والكسبة والحرفيون. ولم يكن مطلوباً منه أن يمارس ذلك. ولكن حين كان جائعاً جداً وحين كان عاجزاً عن تأمين خبز يومه، يُطرح السؤال التالي: لماذا لم يفكر في العمل اليدوي ويسعى إليه ليوفر عيش يومه، كما فعل الكثير جداً من المثقفين العراقيين الذين غادروا صوب الشتات العراقي في الستينيات والسبعينيات وما بعدهما حتى الفترة الراهنة؟ سؤال طرحته على نفسي وأنا أقرأ الكتاب، إذ كانت هناك إمكانيات غير قليلة للعمل اليدوي في بريطانيا وهي ليست بالضرورة ثقيلة على الإنسان كما في حالة العمل في دائرة البريد أو

محطات القطار أو غيرها. وعلى سبيل المثال لا الحصر، حين كنت في مدينة فرايزنگ قرب ميونيخ واحتجت إلى نقود عملت في البناء ومن ثم في معمل صبّ السبائك الحديدية (Gieserei=foundry).

أنهى الكاتب الكبير الدكتور صلاح نيازي كتابه بجمل حزينة جداً تعبر عن حيرة محيرة، إذ يقول، ما الفائدة في كل هذا؟ الشيء اليقين في حياتي الآن هو الحيرة... فتشت في البداية عن لقمة العيش وكأنها الإكسير، واليوم أفتش عما ينسيني حيرتي التي تزداد وتستفحل بمرور السنين. سأخرج من حلبة الحياة بحيرة أكبر. الحيرة ميراثي الأول والأخير، فأتخبط :

في كلِّ آلة موسيقية، آلاف الأنغام لم تكتشف بعد

في كلِّ شجرة، أصباغ بقدر عيدان الأعشاش

في كلِّ صخرة، عدد لا يحصى له من تماثيل لم تنحت بعد

يولد الإنسان وفي صدره مدن مطمورة

في حنجرته لغات مدحورة. لغات منقرضة

لغات في تابوت. لغات في زفاف.

ملامحه ليست ملامحه

ويداه مجدافا نوح دائماً

هل نحن الحقيقة أم الصورة؟ أم صورة الصورة إلى ما لا نهاية

هل نحن أغصان مطعمة في أشجار غريبة؟

ثم ينهي كتابه بما يلي:

قال معلّم الإنشاء بتأنيب مرّة: "لماذا تستعمل كلمات لا تعني شيئاً؟. والسؤال هو: هل كان المعلم على حق، أم أن كاتبنا فيلسوف يفتش كما كان شاعر الملحمة الرائعة، "ملحمة گلگامش"، يفتش عن سر الحياة وعن سر عذابات الإنسان!

برلين في 2013/6/19

(1) السهروردي: هو شهاب الدين السهروردي، يحيى بن حَبَش بن أَمِيرَك كنيته أبو الفتوح ولقبه شهاب الدين (545هـ586 – هـ) قتل في قلعة حلب بحكم قرقوشي أصدره صلاح الدين الأيوبي. اختار السهروري طريقة موته في أن يترك في العراء دون طعام أو ماء ليموت وحيداً وبعيداً ومتفرغاً لنفسه وفلسفته الإشراقية. نشر موقع المعرفة بعضاً من أبيات شعره وهو يتوقع موته القريب:

أبداً تحنّ إليكـمُ الأرواحُ ووصالكمْ رَيحانُها والراحُ
وقلوبُ أهل وِدادكمْ تشتاقكمْ وإلى لذيذ لقـائكمْ ترتـاحُ
وا رحمتا للعاشقين! تكلّفوا سترَ المحبّة، والهوى فضّاحُ
بالسرّ إن باحوا تباحُ دماؤهمْ وكـذا دمـاءُ العاشقيـن تُبـاحُ

2. مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود بابطين للإبداع الشعري. المعجم.رسالة الدكتور صلاح نيازي

رسالة الدكتور صلاح نيازي

عزيزي الأخ الدكتور كاظم حبيب

تحية طيبة وبعد

كانت مقالتك الضافية مفاجأة هزّتني من الأعماق

أردت أن ألتقط أنفاسي من هول الدهشة

قبل الكتابة إليك ولكن حدث ما لم يكنْ بالحسبان. كان علي أن أجري عملية جراحية

في العين اليمنى. كانت طويلة ومملة اختلط فيها اليأس بالأمل

منذ أكثر من أسبوعين وأنا لا أستطيع القراءة الجادة ولا الكتابة

سأعود للمستشفى بعد أسبوع وأتسلّم النتيجة النهائية

على أية حال أهنئك بموهبتك الأدبية التي ظهرت بأفكارك الثقافية الناضجة حقا

وبآرائك النقدية الكاشفة

أعجبت كذلك بطريقة طرحك للموضوع .

طريقة مقنعة بكل معنى الكلمة متهادية متروية بلا منبرية أو استعلاء يفتقر لها معظم الباحثين المتفرغين

ما أخصبك يا رجل وما أغزر علمك وإنسانيتك

كل الشكر والامتنان

صلاح نيازي 2013/7/18

ماذا يمكن أن نقرأ في ثنايا رواية "رسائل حب

للكاتب والقاص خليجية"جاسم المطير؟

عنوان الكتاب : رسائل حب خليجية

اسم الكاتب: جاسم المطير

الناشر: الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت

سنة النشر: طبيعة أولى 2008

عدد الصفحات : 288 صفحة

للكاتب العراقي المعروف جاسم المطير الكثير من المؤلفات الغنية شكلاً ومضموناً، فهو منتج غزير وقارئ دؤوب وناقد سياسي واجتماعي ساخر، ومساميره ستبقى تلاحق من يستحق الملاحقة والنقد. قرأت الكثير من الكتب التي صدرت له خلال العقود الأربعة المنصرمة، كما قرأت له المئات من المقالات السياسية والنقدية التي نشرها في المهجر، أو قبل ذاك حين كان يمارس العمل الكتابي والصحفي في مجلة النفط والتنمية وفي صحف أخرى. وقد أكسبه العمل السياسي والعيش في السجون خبرة ومعرفة قيمة بالبشر، وعواقب التعذيب في سجون ومعتقلات نظامي البعث الأول والثاني تعيق اليوم حركة جاسم المطير وأتعبت جسده، ولكنها عجزت عن تعطيل عقله وفكره النير وثقته العالية بصحة القضايا التي يناضل من أجلها وقدرته على الكتابة والتعبير الصادق عما يختلج في داخله وممارسة النقد. ومع ذلك ورغم مرارة الغربة يمتلك الكثير من الحيوية والعقلانية والعفوية الواعية في الكتابة وفي التعبير النافذ لما يريد إيصاله. وقد أعجبتُ كثيراً بما قرأته له خلال الفترة المنصرمة. ولكن رواية "رسائل حب خليجية" منحتني فرصة التعرف بشكل أجود على المستوى الفني الرفيع الذي يمتلكه الصديق جاسم المطير في كتابة الرواية وحبكة أحداثها واللغة الغنية المتماسكة والشفافة التي استخدمها في إنجاز هذا العمل الروائي الجديد كل الجدة على أدبنا العربي والشرق أوسطي. فالكاتب قدم لنا في "رسائل حب خليجية" لوحة أدبية ذات قيمة تاريخية وذات مستويات وأبعاد عدة، إنها أشبه بلوحة تشكيلية متباينة في مستويات النظر إليها.

أبدع الكاتب في عملية المزج الممتع والهادف بين الحقيقة والخيال، بين الواقع والاغتراب عنه، بين الحب والكراهية، بين الادعاء بالدين والدين، بين الظاهر من الأمور والباطن منه، بين الصدق والمخاتلة، بين الأمس واليوم. وكان التاريخ أداة طيعة بين يديه للتعبير عن الواقع الراهن عبر الماضي المتجدد بصيغة ما دون إقحام قسري لما يجري اليوم في واقع الحال. إنها رسائل حب غير اعتيادية، فرائحة الذهب الأسود، وقبلها اللؤلؤ، يفوح منها. إنها المواد التي تجلب رأس المال لتضاعفه عشرات بل مئات المرات على حساب شعوب هذه المنطقة.

الأسئلة التي تدور في بال القارئة والقاري لهذه الرسائل الخليجية في الحب كثيرة، ولكن على الأقل يمكن طرح سؤالين الأول: لِماذا اختار الكاتب هذه الموضوع، ولم أختار هذه الأسلوب في الكتابة؟ والسؤال الثاني هو: ماذا نقرأ في هذه الرواية الصادرة في العام 2008؟

لا أعرف بالضبط الدوافع التي دفعت بالصديق الكاتب على اختيار هذا الموضوع، ولكن اقدر بأن الأحداث المتتابعة منذ عدة عقود في المنطقة ومن ثم في دولها يعاد إنتاجها مرات ومرات ولكن بصيغ مختلفة وبأشخاص آخرين، ولكن الأهداف تبقى واحدة والعواقب على شعوب المنطقة واحدة، وهي التي أراد بها الكاتب جلب انتباه القارئات والقراء إلى هذه الحقيقة، رغم أنه يعتقدون بالمقولة القائلة "المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، في حين أن المؤمنين من شعوبنا لدغوا مئات المرات ومن نفس الجحر لا غيره، ولم يتعلموا منه شيئاً. واشعر بأن الأسلوب الذي اختاره أراد به أن يكشف عن الوجه المزدوج أو الوجوه العدة لأولئك الذين يسعون إلى تحقيق أهدافهم في بلداننا على حساب شعوبنا ويمارسون الأساليب الغبية التي تمر علينا ولا نحس بها لأننا ما زلنا نياماً وكأننا في سبات عميق لا نختلف كثيراً عن أهل الكهف. أن الطريقة التي عالج بها الموضوع استنفذت منه كتاباً واحداً، في حين استنفذت من الراحل الكاتب المبدع عبد الرحمن منيف خمسة أجزاء في كتابه الموسوم "مدن الملح" ليعبر عن نفس الموضوعات ويصل إلى نفس النتائج، ولكن بتكثيف رفيع وغير مخل.

يطرح الكاتب حاسم المطير في هذه الرواية مجموعة من الإشكاليات الكبيرة التي عاشها الخليج العربي خلال الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، استفاد في ذلك من فن كتابة "الرسائل المتبادلة" بين عاشقين أوروبيين، وبتعبير أدق إنكليزيين، بين بطلي الرواية ليكشف لنا عن تلك المشكلات التي عانى منها الخليج والتي نحصد اليوم نتائج وعواقب تلك الفترة.

الكاتب يقدم لنا بشكل خاص رؤية تفصيلية لما كان يدور في رأس الرجل العربي في تلك الفترة، وخاصة الرأس العربي البدوي قاطن الصحراء، ومدى ارتباط ذلك بما هو تحت الحزام. لقد استطاع الروائي المبدع جاسم المطير استخدام "رواية ألف ليلة وليلة" خير استخدام وقدم أفضل وأدق تحليل حول العلاقة بين الرجل والمرأة وحول إعادة إنتاج هذه العلاقة جيلاً بعد جيل في هذه المنطقة من العالم، كما أشار إلينا بشكل فني ممتع ودون إسراف كيف تتم مثل هذه العملية المعقدة والمتوارثة اجتماعياً وليس جينياً عبر تكريس العادات والتقاليد والتربية اليومية وما يمكن تطويعه عبر الدين في تربية الأطفال.

فالمرأة سلعة تباع وتشترى، إنها سلعة لأغراض متعة الرجل وليست للمشاركة مع الرجل في المتعة الجنسية، إنها متعة من طرف واحد لا غير. فالرجل سيد الموقف، ولكن السيد الفعلي الذي يتحكم به ليس عقله بل سلاحه البائس المنتصب دوماً بين فخذيهً.

فالرجل البدوي أو العربي يحمل سلاحه الذاتي شاهراً إياه في وجه المرأة فيقتنص الواحدة تلو الأخرى ليزيد عددهن عما سمح به القرآن، إذ أن النبي كانت له أكثر من 10 زوجات وقيل 15 زوجة، يقول الشيخ صالح الكرباسي في مركز الإشعاع الإسلامي ما يلي: "إختلفت الأقوال في عدد نساء النبي محمد (صلَّى الله عليه و آله) ، لكن المختار لدينا إعتماداً على ما رُوِيَ عن أئمة أهل البيت (عليهم السَّلام) أنَ رَسُولُ اللَّهِ (صلَّى الله عليه و آله) تَزَوَّجَ بِخَمْسَ عَشْرَةَ امْرَأَة، منها ما دَخَلَ (صلَّى الله عليه و آله) بهنَّ من نسائه"،(راجع: موقع مركز الإشعاع الإسلامي"للشيخ صالح الكرباسي بتاريخ 2009/10/2، ك. حبيب)،إذ يشير الشيخ صالح الكرباسي إلى أن النبي دخل بثلاث عشرة منهن ولم يدخل باثنين منهن. أما المجلسي فيذكر ما يلي: هناك أقوال أخرى منها ما رواه العلامة المجلسي عن " المبسوط " ، و ابن شهر آشوب عن أبي عبيدة أنه قال : تزوج رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثمانية عشر امرأة و اتخذ من الإماء ثلاثا ، راجع : ما ذكره العلامة محمد باقر المجلسي ، المولود باصفهان سنة : 1037 ، والمتوفى بها سنة : 1110 هجرية ، في كتابه بحار الأنوار : 13 / 389 ، و 22 / 191 ، طبعة مؤسسة الوفاء ، بيروت / لبنان ، سنة : 1414 هجرية ، و راجع أيضاً : ما ذكره محمد بن شهر آشوب المازندراني ، المولود سنة : 489 هجرية بمازندران ، و المتوفى سنة : 588 هجرية بحلب ، في كتابه مناقب آل أبي طالب : 1 / 159 ، طبعة : انتشارات علامة ، سنة : 1379 هجرية ، قم / إيران" (راجع: موقع مركز الإشعاع الإسلامي"للشيخ صالح الكرباسي بتاريخ 2009/10/2، ك. حبيب). في حين لم يسمح القرآن إلا بأربع زوجات (لا غير!)، وما ملكت أيمانكم (لا غير أيضاً!). أما الخلفاء المسلمون في عهود الأمويين والعباسيين وسلاطين العثمانيين وأولياء الله "الصالحين" والولاة وقادة الجيوش "المغاوير"، فكانت لهم زوجات وجواري يصعب عدّهن في غالب الأحيان، إذ كانت خزائن الأمة مفتوحة لهم بشكل مطلق!، وقد زادوا على ذلك حين امتلكوا الكثير من الغلمان، فهم يعتقدون بأن الله يسمح لهم بذلك ما دام سيوفره لهم في الجنة كما جاء في الآيات الثلاث التالية: "تحدّث القرآن الكريم عن "الولدان المخلّدون" في ثلاث سور هي الواقعة والطور والإنسان: "على سرر موضوعة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مُخلّدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين" (الواقعة، 15-18)، "ويطوف عليهم غلمان لهم كأنّهم لؤلؤ مكنون" (الطور، 24)، "ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا" (الإنسان، 19)." (راجع: من هم الولدان المخلدون في القرآن ؟، بقلم ناصر بن رجب).

المرأة العربية أو الشرق أوسطية هنا في ألف ليلة وليلة وفي الحياة العربية اليومية ليست سوى مشروع جنس وإشباع غير منقطع لِلذات وشهوات الرجال، ووظيفتها إنتاج المزيد من الأبناء دون البنات والبقاء وراء حجاب. المرأة خائنة، خانعة، ذليلة، مهذارة، راضية بالخنوع للرجل رغم العدد المتزايد من الزوجات فوق رأسها وكثرة هائلة من الجواري الحسان المستعدات لفتح سيقانهن لسيدهن في كل لحظة يشاء أو لغير سيدهن كما يشاء صاحب الجواري الحسان. أما الرجل فهو النموذج والأسد القادر على إخضاعهن جميعاً وغير الواثق منهن والرافض لاحترامهن. إنها مصيبة الرجل في نظرته البائسة والوقحة إلى المرأة، إلى الأخرى! وهنا يذكرني أسم أحد الرؤساء الأفارقة الذي حين يترجم إلى العربية يكون كالآتي: الديك الذي لم تنجو منه دجاجة. هل يتذكر القراء من هو؟ إنه الحاكم الشمولي موبوتو سيسيسيكو، الذي حكم كونغو المستقلة (زائير) 32 عاماً من 1965-1997!

ليست تلك الجارية العالمة في الفقه والطب والتاريخ والحياة العامة التي أعجبت هارون الرشيد سوى محاولة يائسة من مؤلف قصص "ألف ليلة وليلة" للتقليل من أثم الرجال ورفع الغبن المسلط على عقل النساء، لاتهامهن أو اعتبارهن "ناقصات عقل!". هل تذكر بنات وأنباء هذه المنطقة وكل المسلمات والمسلمين أين يرد مثل هذا النص، النساء ناقصات عقل؟ وحين تجتمع المرأة والرجل في مكان واحد فالشيطان ثالثهما! هل يمكن أن يكون يزايد أحد على هذا الشك اللعين والظالم بحق المرأة؟

جاسم المطير يمنحنا بهذه الرواية الجميلة فرصة التعرف أيضاً على الحب الذي لا يخضع للتمييز بسبب العرق أو اللون أو الجنس، أو يدلنا على الحب الشبقي الذي لا يُجهد المصابين به إلا من قلة الجنس، أو الحب الذي يعيش على اجترار الذكريات، وكذا الجنس الذي يخضع للوظيفة الحكومية والمصالح الدولية ومن أجل الوصول إلى توقيع وثيقة بالذل الدائم للشيخ الذي ارتضى لنفسه نهش قبيلته من أجل لحظة تجلي جنسي لا غير، "لقد نكح لندن ورب الكعبة" هكذا صرخ الشيخ عبد الله بعد أن استطاع أن ينام ليلة مع كريستين التي انتزعت منه في هذه الليلة جل ما كانت تسعى إليه لصالح بريطانيا، ولكن هذا الشيخ "الفحل!" نسى تماماً أنه بذلك فتح الأبواب أمام "نكح كل شعبه" وسرقة "ثروة قومه"، ورب الكعبة! وكذلك الحب الوظيفي الذي يسمح للعاشق أن يقبل بأن تنكح حبيبته لصالح وظيفته ومركز أعلى لهما مقابل تقدمها خدمة تقدمها لوزارته!

وبهذا كشف لنا الكاتب عن تلك الشبقية التي يتميز بها أمثال هذا الرجل العربي الذي أبدى استعداداً لا حدود له من أجل إشباع شهواته الجنسية في التوقيع على اتفاقيات أبقت شعبه أسير تلك الاتفاقيات لعقود طويلة لاحقة. إنه ليس شخصاً بعينه، إنه الرمز الذي تكرر ويتكرر مرات ومرات.

كما يمنحنا الكاتب فرصة ثمينة للتعرف على النوايا والمخططات الاستعمارية والصراعات بين الدول الاستعمارية وبين الشركات الاحتكارية حول النفوذ في منطقة الخليج والمؤامرات والمناورات والأساليب الملتوية التي كانت تحاك في وزارات الخارجية وأجهزة التجسس لصالح الحصول على ما يمكِّنها من البقاء واحتكار المنطقة لصالحها ومصالح شركاتها دون غيرها، إنها "المصالح الحيوية!". ولم تكن تجارة السلاح إلا شكلاً من أشكال الهيمنة وإثارة الصراعات والنزاعات بين القبائل وتحقيق أقصى الأرباح ومن خلالها الوصول إلى أفضل المواقع والامتيازات.

رواية "رسائل حب خليجية" تقدم لنا، إضافة إلى أسلوبها الأدبي الرفيع والجديد، أربع مسائل مهمة، وهي:

1 . الدور الذي لعبته المرأة في السياسة البريطانية. وعلينا أن نتذكر هنا "مس بل" ودورها في تنصيب ملك العراق وتشكيل الوزارات بالعراق وفي البناء الأول للدولة العراقية، إضافة إلى علاقاتها الوطيدة بشيوخ العشائر وتأثيرها الكبير على عبد الرحمن النقيب أول رئيس وزراء عراقي ومن كان على شاكلته والذي كان يناديها بـ"خاتون". فجاسم المطير لم يخترع كريستين، ففي السياسة البريطانية الكثير من أمثال هذه المرأة ممن لعبن أدواراً مهمة في السياسة البريطانية في الدول المستعمرة والتابعة حينذاك. لقد كانت المرأة مهمة في مخططات السياسة البريطانية في منطقة الشرق الأوسط لما لها من تأثير كبير وحاسم أحياناً غير قليلة على "الفحولة" العربية!

2 . المبدأ الذي تعتمده السياسة الاستعمارية، "الغاية تبرر الواسطة"، إذ كانت تمارس كل الأساليب الملتوية والمضللة، بما في ذلك اللعب على قاعدة "فرق تسد" قبلياً ودينياً ومذهبياً للوصول إلى تكريس مصالحها في المنطقة. ولم تكن الاغتيالات السياسية غريبة عنها، ومن هنا لم يقبل سكان العراق حتى الآن بأسباب موت الملك فيل الأول في سويسرا أو مقتل الملك غازي بحادث سيارة.

3 . أهمية إبقاء هذه المجتمعات متخلفة، رغم كون السياسة الاستعمارية تفتح مجبرة أبواب الحداثة على هذه الدول بسبب ركض المستعمرين الأعمى وراء مصالحهم وليس حباً في تقدم هذه الشعوب،

سواء أكان ذلك عبر تكريس ممارسات الصراع والنزاع والتمييز بين القوميات والأديان والمذاهب، أم بتكريس عدم ثقة الرجال بالنساء، أم بإبقاء المرأة خاضعة للرجل ولا تمارس حياة المساواة والحرية المطلوبتين والضروريتين لتطور المجتمع وتقدمه.

4 . والكاتب يضع أمامنا بانسيابية وموضوعية العوامل الكامنة وراء الأرتال الأولى من السياسيين والعاملين في أجهزة الأمن البريطانية أو الفرنسية التي وصلت إلى المنطقة بهدف التهيئة والتحضير وتوفير مستلزمات الحصول على قواعد اجتماعية مؤيدة للوجود الاستعماري في المنطقة، وعن الهدف المباشر من هذا الوجود الذي لم يكن يعني سوى استغلال ثروات هذه المنطقة. فإذا كانت في البداية مسألة الغوص في البحار لاستخراج "اللؤلؤ" ليحقق لهم أقصى الأرباح، فأن التنقيب فيما بعد عن الثروات في باطن الأرض، وخاصة النفط الخام، أصبحت هي المهمة التي استحوذت على عقول وسلوك كل العاملين، هذا الذهب الأسود الذي حقق لهم ولا يزال يحقق لهم أقصى الأرباح، في حين كلف ولا يزال يكلف شعوب منطقة الشرق الأوسط سيولاً مريعة من الدماء الزكية، كما لا يزال الفقر يعم نسبة عالية من سكان منطقة الشرق الأوسط، رغم غنى المنطقة بثرواتها أو خاماتها الأولية. وكانت المنطقة غنية بمستبديها والفاسدين والمفسدين ممن حكموا فيها والذين وجدوا الدعم والتأييد من تلك الدول.

وعلى امتداد الرواية يقدم لنا الكاتب معلومات قيمة عن العادات والتقاليد والطقوس القبلية، صراعات هذه القبائل ونزاعاتها، تحالفاتها واتفاقاتها وعهودها، وسبل حل الخلافات في ما بينها والأسس القويمة لهذه العلاقات، إضافة إلى علاقة الشيخ بقبيلته، ومدى الغنى الذي يتمتع به على حساب قبيلته وكثرة زوجاته وجواريه والعواقب الوخيمة لمثل هذه العلاقات ومصروفات الشيخ المالية على المنطقة وثرواتها.

إن الكتاب يضع أمام القارئة والقارئ لوحة كبيرة ملونة تجسد العلاقات البدوية وحياة البداوة وقبل انتقال تلك القبائل إلى حياة المدينة. ويمكن للمتتبع أن يقارن بين ما كانوا عليه هؤلاء القوم وبين ما هم عليه اليوم، فالسلوك لا زال بدوياً والعواقب لا زالت ذاتها رغم التقنيات الجديدة، فالعقلية ذاتها وما تحت الحزام ذاته لا ينقطع عن تسيير سيده!

إن الكتاب يكشف بما لا يقبل الشك عن كون الهدف الأساسي والمركزي للسياسات الاستعمارية في المنطقة كان اللؤلؤ والنفط وبقية الخامات، كان توظيف رؤوس الأموال والهيمنة على السوق وصادرات السلاح لها، وكذلك الاستفادة القصوى من الأيدي العاملة الرخيصة حينذاك، ولكنه مع ذلك أجبر على فتح نوافذ على حضارة وثقافة الغرب، كما اضطر إلى إقامة الشوارع والسدود والموانئ والسكك الحديد لكي يستطيع تمشية أموره الاقتصادية والتجارية والمالية،كما لم يكن أمامه إلى فتح مدارس .. وكان على شعوبنا أن تتابع هذا التناقض في هذه السياسة وأن تستفيد منه قدر الإمكان، ولكن الفائدة حتى الآن كانت ضئيلة.

أتمنى أن يُقرأ هذا الكتاب على أوسع نطاق، إذ أنه ليس جديداً بأسلوب روايته واعتماد الرسائل في متابعة الأحداث حسب، بل باللغة الغنية التي استخدمها الكاتب ومضمون الرواية وتسلسل الأحداث عبر الرسائل المتبادلة أيضاً. إن الرواية تمس الماضي، ولكنها تقربنا اليوم وبعفوية محببة من أحداث مختلفة من حيث المكان والزمان والأشخاص والأحداث، ولكنها متماثلة من حيث الفكر والعقلية والمضامين والعواقب.

23/ أيلول/سبتمبر 2009 **كاظم حبيب**

قراءة مكثفة في كاتب وكتاب

"بغداد حبيبتي ... يهود العراق... ذكريات وشجون"

البروفيسور شموئيل – سامي– موريه

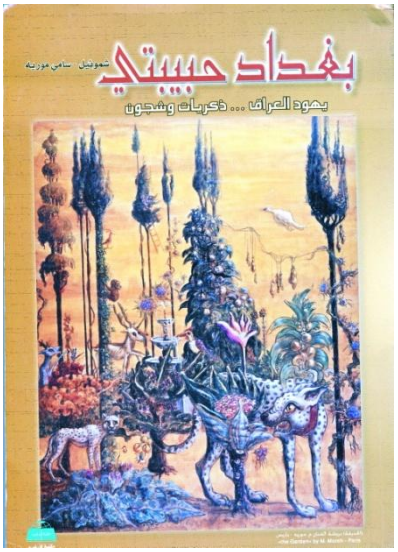

اسم الكاتب: البروفيسور الدكتور شموئيل (سامي) موريه

اسم الكتاب: بغداد حبيبتي ... يهود العراق ... ذكريات وشجون

دار النشر: مكتبة كل شيء – حيفا

سنة النشر: 2012

استهلال

في شتاء العام 2007 قرأ الكثير منا نحن العراقيات والعراقيين ولأول مرة مذكرات تكتب وتنشر بنكهة معطرة ورؤية جديدة ذات أهداف إنسانية واعية ومحركة للعواطف النبيلة للقارئات والقراء العراقيين وبلغة عربية ولهجة عراقية بغدادية ممزوجة بلهجة يهود العراق المحببة للنفس والتي تقترب من لهجة أهل الموصل. فمن هو هذا الكاتب الموهوب الذي أثار لدى العراقيات والعراقيين تلك العواطف النبيلة والروح الإنسانية والذكريات المنسية في البعض الكثير منها وذاكرة نادرة لرجل شاب بلغ السابعة والسبعين حين بدأ بكتابة هذه المذكرات، فمن هو هذا العراقي الذي حمل في ذاكرته وأسلوب كتابته ومضمون مذكراته تقاليد وعادات وتراث وتاريخ لا يعود لعراق النصف الأول من القرن العشرين حسب، بل جسد ما يقرب من 2600 سنة من حياة يهود العراق والعراقيين والعراقيات بشكل عام؟ من هو هذا الكاتب المبدع الذي أثار لديَّ ولدى الكثير من الناس الطيبين بالعراق وخارجه الرغبة الشديدة في متابعة حلقاته التي بلغت 53 حلقة مع خاتمة استغرقت الفترة الواقعة بين 2007/2/12 و 2011/3/21؟ وهذه الحلقات صدرت أخيراً في كتاب "بغداد حبيبتي" مع تقديم جميل وبارع للأخ الأستاذ سعد سامي نادر. وفي هذه الحلقات ذكرنا بأسلوب الفقيد سمير نقاش في الكتابة المحببة إلى النفسي والعميقة في مضامينها الإنسانية وواقعيتها ودقة المعلومات الواردة فيها. ويمكن أن نتذكر هنا رواية سمير نقاش (1938–2005م) الموسومة "شلومو الكردي وأنا والزمن".[1]

انه الأخ البروفيسور الدكتور شموئيل موريه (سامي المعلم)، أستاذ الأدب العربي في الجامعة العبرية في أورشليم القدس ورئيس رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، ومؤلف الكثير من الكتب باللغتين العربية والانجليزية، والمشرف على الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه والمحقق لبعض الكتب المهمة والباحث في المسرح العربي، انه الكاتب والشاعر الغزير في إنتاجه في مضامين كتاباته ورؤيته للعالم.

لا شك في إن الرجل المحب لبغداد وأهلها وحنينه للمكان الذي ولد فيه، والذي أجبر على الهجرة منه إلى إسرائيل، يحب بلده إسرائيل ودولته. وهو أمر طبيعي لكي لا يذهب بالبعض منا إلى تصور خاطئ، وأعني بذلك أن حبه لبغداد يجعله ضد إسرائيل. فإسرائيل وطنه الجديد بعد أن هجر أو هاجر من وطنه الأول،

---

[1] نقاش، سمير. شلومو الكردي وأنا والزمن. منشورات دار الجمل، كولونيا–ألمانيا 2004.

العراق. ولكن من الضروري هنا القول بأن كتاباته لا تعكس موقفاً قومياً متطرفاً أو قومياً يمينياً مناهضاً للعرب، فهو مواطن إسرائيلي ليبرالي ديمقراطي وعلماني محافظ. لغته وكتاباته بالعربية تكشف لنا جانبين مهمين يتفاعلان لديه ولا يتعارضان وهما:

1) إن حبه القديم المتجدد لبغداد ما يزال ينبض بقوة فيه وبعاطفة جياشة وحقيقية نابع من الحنين إلى المكان الذي ولد فيه وشبّ صبياً يافعاً وحيوياً، كما أن حبه للغة العربية والكتابة بها يؤشر موقفه الإيجابي من العرب واللغة العربية. وهو أمر يختلف تماماً لدى القوميين المتعصبين أو الذين يحملون الإيديولوجية الصهيونية. وعلينا هنا أن نشير إلى إن الاتجاهات القومية اليمينية لدى جميع الشعوب تحمل وجهة تمييزية إزاء الآخر, ويلعب التفكير النمطي الرجعي بين الـ "أنا" و الـ "آخر". دوراً كبيراً في توتير العلاقات بين الشعوب وفي نشوء الفكر العنصري أو "العرقي".

2) وأن حبه لوطنه إسرائيل وحبه لشعبه وقومه يتحركان فيه دوماً ويختلف عن الحنين للعراق أو لبغداد بشكل خاص والذي أصبح من الماضي الذي لا ولن يعود! وليس في هذين الجانبين أي تناقض أو صراع.

لمحة عن حياة وكتابات شموئيل موريه

ولد شموئيل إبراهيم موريه "سامي المعلم"[2] ببغداد في 22/ 1932/12 في عائلة تؤمن بالديانة اليهودية. عاش شموئيل مع عائلته حتى سن الثامنة عشر حين اضطرت عائلته لدى إسقاط الجنسية العراقية عنهم على مغادرة العراق في 22/ 1951/4 على وفق قانون إسقاط الجنسية الذي صدر أثناء وزارة توفيق السويدي في العام 1950.[3]

---

[2] **ملاحظة مهمة: أشار رأفت الهجان إلى شخص اسمه "شموئيل موريا" باعتباره رئيس قسم مكافحة التجسس العربي. وهذا الرجل هو غير البروفيسور شموئيل موريه. علماً بأن الأول هو عراقي أيضاً ومستعرب وكان صهيونياً حين غادر العراق وعمل في النشاط التجسسي والاسمان متماثلان، ولكن الأول يكتب اسمه شموئيل موريا والبروفيسور يكتب اسمه ب شموئيل موريه. وقد تحدثت بهذا الصدد مع البروفيسور موريه هاتفياً وأكد لي هذه المعلومة، وإنه غير الشخص الصهيوني شموئيل موريا، رغم إن رأفت الهجان كتب اسمه بنفس اسم البروفيسور موريه. كاظم حبيب**

[3] **صدر في العام 1950 قانون إسقاط الجنسية عن يهود العراق ممن يرغب بمغادرة العراق دون العودة إليه. لم يكن مثل هذا القانون متوافقاً مع المبادئ الأساسية التي سن بها الدستور العراقي لعام 1925، بل مخالفة صريحة له. صدر هذا القانون بفعل ثلاث قوى عملت على تهجير يهود العراق. وبعد مرور 63 عاماً على صدور هذا القانون، وبعد رفع الحضر عن نشر الكثير من الوثائق والكتب والاعترافات الصريحة لمؤسسات وحكومات وجواسيس يمكن القول وبثقة كبيرة بأن هذه القوى الثلاث هي:**

درس شموئيل في مدرسة السعدون الابتدائية النموذجية في البتاوين، ثم انتقل إلى مدرسة "فرنك عيني" المتوسطة ومن بعدها أكمل الثانوية في مدرسة "شماش" الإعدادية. نال شهادة البكلوريا العراقية في العام 1950. وكتب الأستاذ موريه عن حياته قائلاً: "هاجرت إلى إسرائيل في 1951/4/22 والتحقت بالجامعة العبرية لدراسة الأدب العربي الحديث وعلوم الشرق الأوسط. أنهيت اللقب الجامعي الثاني، الماجستير بتفوق. فأرسلتني الجامعة العبرية لكتابة أطروحة الدكتوراه في معهد العلوم الآسيوية والأفريقية في جامعة لندن حيث نلت درجة الدكتوراه عن أطروحتي حول الشعر العربي الحديث. وفي مطلع عام 1966 دعتني الجامعة العبرية لتدريس الأدب العربي الحديث وترأست قسم اللغة العربية فيها بين الأعوام 1983-1979. وفي العام 1980 أسست رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق. ونشرت ثمانية وأربعين كتابا في سلسلة منشورات الرابطة لكبار الأدباء والمؤرخين والشعراء اليهود النازحين من العراق. أعمل أيضا كعضو في هيئات تحرير للعديد من المجلات العلمية الاستشراقية والأدبية كما وقمت بنشر العشرات من الكتب ومئات المقالات باللغات الإنجليزية والعربية والعبرية، وشاركت أيضا في عشرات المؤتمرات العلمية في العالم بإلقاء محاضرات عن تخصصي في الأدب العربي. نلت جائزة الدولة في الاستشراق عام 1999 بالإضافة إلى وسام فيلق الأسد الفنلندي من رئيس دولة فنلندا عام 1986 لنشاطي كرئيس رابطة الصداقة الإسرائيلية الفنلندية في أورشليم القدس. ولا أزال أحاضر وأرشد طلبة الدكتوراه في الجامعة العبرية وأعقد وأشارك في المؤتمرات الأدبية حول أدب يهود العراق وتاريخهم."[4]

ولكن وقبل انتقاله للدراسة الجامعية أضطر الشاب شموئيل موريه المهاجر لتوه من بغداد أن يمارس، كبقية العراقيين الذين هاجروا إلى إسرائيل، أعمالاً شاقة، فهو الذي كتب ما يلي:

"وحين وصلت إسرائيل بدأت أعمل في البناء، وكان عملاً شاقاً، حيث انتقلت فجأة من العز إلى العمل الشاق لاستلال لقمة العيش. وجدت أني لست صالحاً لهذا العمل، فذهبت للدراسة في القدس مع أخوي جاكوب

---

1) الحكومة البريطانية متمثلة بسفارتها ببغداد وسفيرها حينذاك. 2) الحكومة الإسرائيلية متمثلة بجهاز الموساد وما اتخذه من سياسات وإجراءات. 3) الحكومة العراقية متمثلة برئيس الوزراء توفيق السويدي ووزير داخليته حينذاك صالح جبر. كما تحقق لهذه الثلاث دعم مباشر من ثلاثة أطراف أخرى هي: الحكومة الأمريكية والبلاط الملكي العراقي ورئيس الوزراء المخضر والدائم في العراق نوري السعيد. وأمكن خلال فترة قصيرة تهجير أكثر من 124 ألف مواطن يهودي عراقي ومواطنة يهودية عراقية إلى إسرائيل. وبالتالي أفقر العراق من مكون ديني مهم وسقط من لوحة الموزائيك العراقية الجميلة لون وترك فراغه في اللوحة. كاظم حبيب

4 إسرائيل بدون رقابة، موقع على الإنترنيت. مقابلة مع البروفيسور شموئيل موريه من الجامعة العبرية. أخذ المقطع بتاريخ 2013/4/8.

وريموند. كان ذلك في العام 1951، كنا أكثر من 70 طالباً يدرسون اللغة العربية في الجامعة العبرية. وقد كان مستوى الطلاب العراقيين عالياً جداً. أثناء ذلك جندنا في الجيش". [5]

أصدر الأستاذ موريه الكثير من المؤلفات باللغات العربية والإنجليزية والعبرية، إضافة إلى تحقيق الكتب وإعداد التراجم، حيث بلغت 35 كتاباً حتى الآن بهذه اللغات، وكذلك المئات من المقالات والدراسات ومقدمات الكتب التي نشرت في المجلات والصحف وفي المواقع الإلكترونية. يعتبر الأستاذ موريه واحداً من ابرز وألمع الكتاب اليهود الإسرائيليين عموماً والذين نشروا بالعربية والعبرية والإنجليزية، وخاصة في مجال الأدب والمسرح العربي، بشكل خاص. وأبرز كتاباته في ما يخص العراق يواجهنا كتاب يهود العراق (بالعربية)، والفرهود (بالإنجليزية)، وبغداد حبيبتي (بالعربية) وتحقيق كتاب الجبرتي (بالعربية)، والتي يمكن الاطلاع على قائمة كتبه في الهامش رقم (3)[6].

ساهم الأستاذ موريه بدور بارز ومتميز في تشكيل وإدامة عمل رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق وأصبح رئيسها الفعلي. وبرز دوره في هذا الجانب بثلاثة أمور:

1. **السعي إلى جمع شمل الجامعيين اليهود النازحين من العراق تحت مظلة علمية واجتماعية واحدة هي "رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق".**
2. **إصدار الكتب التي يؤلفها أعضاء الرابطة وغيرهم التي تبحث في علاقتهم مع العراق في الجوانب الأدبية والاجتماعية والتاريخية والفنية وما يرتبط بحياة يهود العراق في بلاد الرافدين ونشرها على أوسع نطاق ممكن، وخاصة باللغة العربية.**
3. **إقامة الندوات الفكرية والاجتماعية والنقاشات حول تاريخ وحياة اليهود بالعراق، وكذلك مناقشة الكتب التي تصدر عن الرابطة. وكذلك المشاركة في المؤتمرات والفعاليات التي تمس حياة اليهود العراقيين بالعراق وبإسرائيل.[7]**

---

[5] موريه، شموئيل–سامي، بغداد حبيبتي. يهود العراق... ذكريات وشجون. مكتبة كمل شيء، حيفا 2012. ص 7.

[6] موريه، شموئيل د. بغداد حبيبتي. يهود العراق... ذكريات وشجون. مكتبة كمل شيء، حيفا 2012. ص 7.

[7] قائمة بأسماء الكتب الصادرة عن رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق مثبتة في الملحق رقم 4.

إصدارات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق في إسرائيل

يشرف على هذه الرابطة السادة التالية أسماؤهم: الرئيس الفخري: الدكتور نعيم دنكور (OBE)

أعضاء مجلس الإدارة: البروفيسور شموئيل موريه – رئيس، المحامي حسقيل فتال – القائم بأعمال الرئيس، المحامي شاؤل بار حييم – نائب الرئيس، الدكتور نسيم قزاز، الدكتور دافيد سجف، أبراهام كحيلة، شلومو شبيرا، عزرا مراد والبروفسور يوسف كباي.

يتمتع الكاتب الذي بلغ عمره اليوم 81 عاماً بحيوية وطاقة عالية للعمل والإنتاج الفكري في إسرائيل وخارجها، وهو يتمنى من كل قلبه أن يزور العراق وأن يرى بأم عينيه الدار التي سكنها مع عائلته في محلة البتاويين والمدرسة الابتدائية التي تعلم فيها حروف الأبجدية العربية ولعب في أزقة المحلة مع أطفالها وسبح في مياه دجلة وأحب أول مرة وهو ما يزال في الثالثة من عمره، ثم ذاق طعم القبل الجمرية التي ألهبت الصبي والشاب شموئيل روحه الوثابة وجعلته يعيش في أحلام وردية لم تتحقق بالعراق. كتب بهذا الصدد يقول:

"ومنذ صغري أدركت بأني لا أصلح للتجارة التي كان يمارسها الكثير من يهود العراق. كنت في الثالثة من عمري، عاشقًا لكحلا ابنة عمتي ريما، ذهب الجميع وبقينا وحدنا في البيت وقد أصابنا الملل. عرضتُ علي ابنة عمتي عرضا لا يمكن ليهودي رده: "تالي (تعالى) انبيع!"، قالت: "ميسيغ (ممنوع) تطلع للدرب لَيْكونْ يضغبك المسلم"، قلت: "وليش يضربني المسلم؟". أجابت: "ألم يحذرك والداك؟" لم آخذ تحذيرها بمأخذ الجد، فتشت عن بعض الملاعق والشوكات والسكاكين الفضية "من شغل العجم"، وهي من مهر والدتي الذي دقق والدي في الحصول على كل حاجة شرطها في وثيقة الزواج. فحسب تقاليد اليهود تقدم عائلة العروس الجهاز والمهر للعريس، تصل تكاليفها في بعض الأحيان إلى أن يقضي والد العروس العمر في تسديد ديونه. فتحت الباب بعد أن صعدت على كرسي ووضعت الملاعق الفضية وغيرها على طبق من الصيني. ضحك بعض المارة لصغر سن هذين "التاجرين": "هذولي غير أيهود؟ والله بعد مفقسوا (لم يخرجوا) من البيضي وقيشتغلون بالتجارة!". جاء "ويحد ليبس چراويّة وزبون": "وِلْكُم هذا شِنْهَوْ ؟ هذا بيش اتبيعونه؟"، قلت: "أبدينار"! حمل لابس الجراوية الطبق وسار في طريقه غير مكترث لصراخي وأنا متشبث بذيل دشداشته: "وين الدينار، وين الفلوس؟"، دفعني ومضى دون أن يجرؤ أحد على اعتراض طريقه. عدت باكيا إلى البيت، قالت كحلا، "مقلتولك لا تطلع للدغب (الدرب)؟". غضب الوالدان، وقالت أمي: "وي غماد!(رماد عليك) مقلتولك لا تطلع للدغب ليضغبك المسلم؟، الله سوالك نيس! (هذه كرامة من الله)، مليح ما طلع خناق الولاد وذبحك!". وقال الوالد: "قَتْغيد أخلص خبزك هسّه؟ قلتولك مغة (مرّة) وألف لا تطلع للدغب ابحدك تغا يضغبوك!"، (أتريد أن اقضي عليك الآن! ألم أقل لك ألف مرة ومرة لا تخرج لوحدك، سيضربونك!" علق عمي يونا على الحادث: "هذا أشلون تاجر؟، ما شا الله علينو، من أول غزاته انكسرت عصاته ."![8]

---

[8] موريه، شموئيل د. بغداد حبيبتي يهود العراق ... ذكريات وشجون. طبعة أولى، مكتبة كل شيء. حيفا 2012. ص 20.

الأستاذ الدكتور شموئيل موريه متزوج حالياً من سيدة فنلندية محترمة أحبها وفتنته بجمالها وحسن أخلاقها. له ابن اسمه آشير من زوجته الأولى، وله بنت اسمها مايا هيلينا، وهو اسم فنلندي، وابن اسمه إبراهيم، على اسم والده الطيب الذكر، من زوجته الفنلندية.[9] (راجع الملحق رقم 4).

قبل سفري إلى بغداد وجه لي الأستاذ موريه رسالة شخصية رجاني فيها:

1. **أن ألتقط صور تذكارية للدار التي كان يسكنها مع عائلته الكبيرة في البتاوين قبل رحيلهم النهائي والمدرسة الابتدائية التي تعلم فيها.**
2. **وأن أجلب له حفنة من تراب مدرسته الابتدائية في البتاوين تذكره بأرض وشعب العراق.**

وفعلاً التقطت صورة للبيت وأخرى للمدرسة وثالثة للكنيس اليهودي في البتاوين. ثم ذهبت مع زوجتي والصديق الأستاذ مازن لطيف علي إلى المدرسة وكانت مغلقة. طرقنا الباب الجانبي، فتحت لنا الباب فراشة المدرسة وسألت عن حاجتنا. قلت لها: تسمحيلي أخذ شوية من تراب المدرسة؟ ابتسمت وقالت: أخذ عمي شكثر ما تريد. ثم اعقبت ذلك باستفسار معقول قائلة: ما تگلي عمي شلك بهاي حفنة التراب؟ أجبتها وأنا أبتسم: لي صديق كان يدرس بهذي المدرسة وهو يعيش بعيداً عن العراق ويرغب الحصول على شوية تراب من وطنه الأصلي، العراق حتى يبقى يذكر العراق ولا ينساه. فقالت أخذ عيني وأالله يطول بعمركم.

أخذت حفنة من التراب ووضعتها بكيس صغير تحت نظرات تعجب مرحة وتساؤلات عن هذا المحب لتربة العراق من المرأة العراقية الشعبية. أخذت حفنة التراب معي إلى ألمانيا، نظفتها من أوساخ علقت بالتربة ووضعتها في علبة مع صورة البيت والمدرسة والكنيس في البتاويين وأرسلتها إلى زميلي شموئيل في إسرائيل. ويبدو أن فرحته بما حوته العلبة كانت كبيرة، إذ أتحفني برسالة شكر جميلة.

شموئيل موريه في برلين

حين علمت بوجود الأستاذ موريه بمدينة بوخوم الألمانية ضيفا على معهد الدراسات الشرقية ورئيس المعهد البروفيسور الدكتور استيفان رايخموت، اتصلت مباشرة بالسيد رئيس المعهد وعرفته بنفسي ورجوته أن أتحدث مع البروفيسور الدكتور شموئيل موريه إن كان موجودا في المعهد. اكد وجوده وربط بين جهازينا. بدأ الحديث مباشرة باللهجة العراقية المحببة لكل منا. عرفته بنفسي وأشرت له إلى اطلاعي على

[9] رسائل متبادلة بين كاظم حبيب وشموئيل موريه. الملحق رقم 5.

بعض كتاباته ومذكراته ودعوته لزيارة برلين بضيافتي الشخصية. لم يتردد لحظة واحدة وشعرت بصوته مهلهلا. بلقاء العراقيين والعراقيات، إذ الذكريات التي كنا إلى ذلك الحين قد تمتعنا بسلسلة من حلقاته الأسبوعية.

تفضل البروفيسور الدكتور استيفان رايخموت وزوجته الفاضلة بمرافقة الأستاذ موريه إلى برلين بسيارتهما الخاصة وأوصلاه إلى الشقة التي نسكن، زوجتي وأنا، فيها. تحدثت قبل ذاك مع الصديق الدكتور علي إسماعيل جودت، إذ كان حينذاك رئيساً للهيئة الإدارية لنادي الرافدين الثقافي العراقي ببرلين، حول إمكانية عقد ندوة للأستاذ موريه في النادي العراقي. رحب بالفكرة وطرحها على الهيئة الإدارية للنادي التي رحبت بالفكرة أيضاً. وهكذا كان اللقاء.

وضعت مقترحا أوليا لبرنامج الزيارة وحين وصل إلى شقتي ببرلين بحثت معه موضوع البرنامج وتضمن عدة فقرات:

- ندوة في نادي الرافدين الثقافي العراقي بدعوة مفتوحة للعراقيات والعراقيين والعرب من الجنسين لمن يرغب بالمشاركة.

- زيارة نهرية في نهر "شپريه" ببرلين والمناطق المحيطة بالمدينة.

- زيارة إلى النصب التذكاري لضحايا النازية من يهود أوروبا في وسط مدينة برلين. ويتراوح عدد ضحايا النازية من يهود أوروبا بين 5-6 مليون نسمة [10]، إضافة إلى ضحايا يتراوح عددهم بين 10-40 ألف من النوربين (السنتي والروما)،[11] والكثير من الشيوعيين والاشتراكيين والديمقراطيين المسيحيين الذي قتلوا على أيدي النظام النازي في معسكرات الاعتقال النازية.

- زيارة متحف ضحايا الإرهاب النازي العنصري والفاشي من اليهود في معسكرات الاعتقال النازية ببرلين. يثير هذا المتحف الحزن في نفوس زائريه لأسباب ترتبط بالهندسة المعمارية للبناء الخارجي والداخلي أولاً، ولمعروضات المتحف من صور وحاجيات الضحايا التي تصور بواقعية محزنة تلك الجرائم البشعة التي ارتكبتها النازية بحق اليهود الأوروبيين في المعتقلات النازية، وبمختلف أساليب القتل، ولكن وبشكل خاص

---

[10] **الموسوعة الحرة ويكبيديا، أخذ الرقم بتاريخ 2013/4/8.**

[11] **Der Völkermord an Sinti und Roma، http://www.dhm.de/lemo/html/wk2/holocaust/sintiroma/**

أخذ الرقم بتاريخ 2913/4/8.

بالمحارق الغازية التي بناها النظام في تلك المعتقلات والتي التهمت النيران أجسام الملايين من البشر، وخاصة اليهود.

- زيارة متحف پيرگامون [12](Pergamon Museum) التاريخي ببرلين.

- لقاء مع بعض الأصدقاء من نادي الرافدين على مأدبة عشاء في شقة كاظم حبيب

وافق الصديق شموئيل موريه على البرنامج، وبذلنا الجهد لتنفيذه مباشرة وبالتعاون مع عدد من أعضاء النادي.

وخلال الأيام الأربعة أجهدنا الأستاذ موريه ببرنامجنا، ولم نأخذ بنظر الاعتبار "حوبة" العمر، ولكنه لم يتأوه ولم يعتذر عن فقرات البرنامج وحافظ على حيويته ونشاطه في تلك الفعاليات كافة وكأنه في الخامسة والعشرين من عمره.

كان اللقاء الاول مع الأستاذ شموئيل موريه حاراً كحرارة صيف العراق ومنعشاً كربيع الموصل أو شارع أبو نواس وحميماً في آن، وبدأ وكأن أحدنا يعرف الآخر منذ ستين عاما. وقد تحدث عن هذه الزيارة في الحلقة التاسعة والعشرين من حلقات "ذكريات وشجون" المنشورة في كتابه "بغداد حبيبتي". وقد التقطنا الكثير من الصور التذكارية. لهذا لم أجد مبرراً لتكرار نشرها أو الكتابة عنها. لقد كان اللقاء نشطاً من حيث عرض الذكريات وكذلك الأسئلة التي طرحت والإجابة عنها والمناقشة الحيوية التي دارت بين المحاضر والحضور في هذا الاجتماع الغني بتبادل الأفكار والمودة.

---

[12] متحف پيرگامون متحف ألمانيا بني خلال الفترة الواقعة بين 1910-1930 وأطلق عليه هذا الاسم تيمناً بمدنية أغريقية تاريخية قديمة. يحتوي هذا المتحف على آثار بابلية مثل باب عشتار الأصلية، وآثار آشورية وسورية قديمة وأثار اغريقية وفرعونية وإيرانية قديمة وإسلامية ...الخ، وهو واحد من أضخم المتاحف بالعالم. كاظم حبيب

قراءة مكثفة في كتاب "بغداد حبيبتي"

بعد أن انتهى الأستاذ موريه من نشر حلقات ذكرياته، طبعها في كتاب جميل وغلاف زُيّن بلوحة فنية رسمها ابن أخيه م. موريه تتضمن أشجاراً وحيوانات أليفة وغير أليفة تذكر المشاهد بلوحات خيالية مقاربة للفنون التي يجدها الإنسان في لوحات والت دزني أو بعض الرسوم الإيرانية القديمة.

أهداني الأستاذ الدكتور شموئيل – سامي – موريه كتابه الجديد "بغداد حبيبتي ... يهود العراق ... ذكريات وشجون"، طبعة أولى، صادر عن "مكتبة كل شيء" في حيفا 2012. حيث صدرت الطبعة الثانية بعد نفاذ الطبعة الأولى. كما صدر له في العام 1990 كتابه الموسوم "الفرهود" باللغة الإنجليزية. „Al-FARHUD The 1941 Pogrom in Iraq“ بالتعاون مع زميله زفي يهودا.[13]

تتوزع ذكريات الأستاذ شموئيل موريه في هذا الكتاب على 53 حلقة وخاتمة مع حوار معه أجراه الدكتور سمير الحاج المحامي وتقديم للأستاذ سعد سامي نادر تحت عنوان "شموئيل موريه .. شجون وأحلام وآمال عراقية نقية طيبة".

يبدأ الكتاب بقصيدة "مهداة إلى أخواتي وإخوتي العرقيين في كل مكان" بعنوان "قالت لي أمي، والأسى في عينيها".[14]

قالت لي أمي: "ظلمونا في العراق،
وضاقَ المُقامُ بنا يا ولدي،
فما لنا و"للصبر الجميل" ؟
فهيا بنا للرحيل"!
وعندما بلغنا الوصيدا،

[13] Moreh، Shmuel and Yehuda، Zvi. Al-Farhud The 1941 Pogrom in Iraq. The Vidal Sassoon International Center for the Study of Antisemitism، The Babylonian Jewry Heritage Center. Published by The Hebrew University Magnes Press، Jerusalem 2010.

[14] موريه، شموئيل. بغداد حبيبتي، مصدر سابق. ص ¾.

قالت لي: "يا ولدي لا تَحزنْ،

إلّي ما يريدكْ لا تريدَهْ" ،

هَمستْ: " يا حافرَ البير "

"بربكَ قلْ لي لهذا سببْ؟ "

ورَحلنا...

وقبلَ رَحيلِها الأخيرْ،

قالتْ لي أمّي،

والقلبُ كسيرْ:

"أحنّ إلى العراق يا ولدي،

أحنّ إلى نسيمِ دِجلة

يوشوِشُ للنخيلِ،

إلى طينها المِعطار

إلى ذيّاك الخميلِ،

بالله يا ولدي،

إذا ما زُرتَ العراقْ

بعدَ طولِ الفراقْ

قبّلِ الأعتابْ

وسلم على الأحبابْ

وحيّ الديار

وانسَ ما كانَ منهم ومنّا"!

*** * ***

هذه الليلة، زارتني أمّي

وعلى شفتيها عتابْ:

"أما زرت العراق بعدُ ؟

أما قبّلتَ الأعتابْ؟"

قلت: "واللهِ يا أمّي،

لِي إليها شوقٌ ووَجْدُ،

ولكن "الدار قفرا، والمزار بعيدْ" ،

ففي كلِّ شِبر منَ العراقِ لَحدُ

ومياهُ دجلةَ والفرات، كأيامّ التتار

تجري فيها دماءٌ ودموعُ

تحطّمت الصواري وهوتِ القلوعُ

فكيف الرجوعُ؟

أماه، ليس في العراق اليومَ

عزّ ومجدُ،

لم يبق فيها

سوى الضياعِ والدموعْ!

أماه، كيف أزورُ العراق؟

أما ترين كيف يُنْحرُ

عراقنا الحبيبْ،

من الوريد إلى الوريدْ؟

خبّريني بالله يا أمي!

كيف أعودُ ؟

ولمنْ أعودُ!

ونحنُ يهودُ ؟؟؟

بماذا يتميز كتاب الذكريات "بغداد حبيبتي"؟

حين ينتهي الإنسان من قراءة حلقات هذا الكتاب، سيجد نفسه أمام عدد من المزايا المهمة التي يمكن بلورتها بالآتي من النقاط المهمة:

1. **يضعنا الكتاب أمام ذاكرة شابة، حية ونشطة وهادفة في آن، يجمع بين الحنين للماضي بحلوه ومرّه وحقائق الوضع الراهن، بين الحزن والفرح، بين الجد والهزل، بين النكتة الساخرة والوخز الناعم غير المؤذي، بين**

الحب والكراهية، الحب للعراقيات والعراقيين، والكراهية لمن تسبب في تلك الهجرة القسرية اللعينة وما يعاني منه الناس في الوقت الحاضر.

2. **والكتاب يعكس المستوى الثقافي الرفيع للكاتب والأسلوب الشيق والسهل الممتنع في التعبير عن مكنوناته ويقدم مزاوجة جميلة مدركة لأهمية علم النفس الاجتماعي في استعادة الذكريات مرَّها وحلوها.**
3. **الكتاب مليء بالحب الصادق لبغداد والرغبة في زيارتها واستعادة الذكريات في أهم المناطق التي عاش فيها الكاتب.**
4. **وهو ليس مجرد سرد لذكريات أصبحت من الماضي البعيد الذي لا يعود، بل يجسد ذكريات حية لدى الكاتب والقراء والقارئات وكأنها حصلت بالأمس لا غير، رغم إنها بالقطع لن تعود ولن يعود للعراق.**
5. **كما إنه ليس مجرد ذكريات بل هي مزاوجة ناجحة بين الماضي والحاضر، بين الذكريات والدروس التي يمكن استخلاصها منها، إنها جمع بين الحنين الجميل والألم الدفين وعدم القدرة على العودة إلى مواقع الذكريات، وهي تمس شغاف القلب وتحاكي العاطفة أولاً وقبل كل شيء، ولكنها تستخدم العقل والمنطق في الطرح والمعالجة.**
6. **والكتاب يحمل في طياته الكثير من النصوص التي يُطلق عليها بالـ "إخوانيات" المليئة بالود والشوق للأصدقاء أو لمن ذهبوا ولن يعودوا!**
7. **حين يكتب سامي المعلم عن بغداد وعن الحب وعن نهر دجلة تشعر بأصالة عراقيته وعمق وعيه بما يكتب رغم مرور أكثر من ستة عقود على مغادرته بغداد. فاللغة التي يستخدمها تجسد عشقه لها وعشقه وحنينه لمياه دجلة والفرات. يتحدث عن حياته وعلاقاته بالناس وبالعلم والدراسة ويضعنا أمام دأبه في العمل ومنجزاته العلمية ببساطة ووضوح بما يدفعنا للتدقيق في ما نكتب ونعمل.**
8. **والكتاب يتنقل بقرائه وقارئاته بين بغداد والقدس ولندن وامستردام وبوخوم بألمانيا ومدن كثيرة أخرى. وبين هذه المرأة العراقية التي التقى بها صدفة في مكتبة وذلك العراقي الذي نشر قصيدة مليئة بالمودة والاعتزاز بسامي موريه وتقديراً له. إنها رحلة جميلة وممتعة بين عوالم كثيرة بين الأدب والتاريخ وعلم النفس والاقتصاد، وهو أسلوب جديد في نحت الذكريات.**
9. **والكتاب لا يعتمد على ذكرياته الخاصة، بل ينقل إلينا ذكريات يهود العراق، حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، افراحهم وأتراحهم وعلاقاتهم بالعراقيين في المدرسة والشارع ومحلات السكن، في السوق التجاري وسوق الصيارفة وسوق البزازين وفي العمل، كما ينقل إلينا ذكريات آخرين وردت في كتبهم، كما في كتاب "يومان في حزيران" للكاتب إسحق بار–موشيه حيث استطاع آخرون تصوير مأساة وبوغروم (Pogrom) الفرهود ضد اليهود في العام 1941،[15] أو حين يتحدث عن الكاتب والصحفي المبدع أنور شاؤل أو الكاتب مير بصري.**

---

[15] موشيه، إسحق بار، يومان في حزيران. مكتبة الدكتور داود سلمان، سالا، لمؤلفات يهود العراق. أورشليم القدس، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق. 2004.

لو حاولنا أن نمر على الفقرات التي يتحدث فيها عن الفرهود، وله في هذا الموضوع أكثر من كتاب ومقال وبحث، يجد الإنسان في ثنايا الكتاب اللوعة الشديدة والمرارة الساحقة لما حدث من أناس كان المفروض ان يمارسوا الحماية لمواطنيهم أياً كان دينهم أو مذهبهم أو قوميتهم. وهو لا يوجه الاتهام لكل العراقيين، بل يؤكد بوضوح على من قام بذلك. كتب في الحلقة السابعة تحت عنوان من المسؤول عن الفرهود ما يلي:

"بدأت مذبحة الفرهود في يوم 1 حزيران في باب الشيخ من قبل الأكراد الشيعة الفيلية بعد أن دس المفوض الألماني فريتز غروبه سمومه النازية وحرض ضد اليهود وبث دعايته العنصرية بين أفراد الشعب والجيش العراقي خلال عدة أشهر مما هيأ الأجواء للإيقاع بهم. ثم جاء اندحار الجيش العراقي، الذي ضمّ بعض الأطباء والضباط اليهود، أمام القوات البريطانية ورفض "مختار محلة الكريمات" السفير البريطاني السر كيناهان كورنواليس Sir Kinahan Cornwallis (1883-1959م) السماح للجيش البريطاني المحتل بدخول بغداد وأن كانت تقع على عاتقه مسؤولية الحفاظ على الأمن فيها. (أنظر، سلمان درويش، كل شيء هادئ، ص 60-62). إذا فالألمان النازيون والانكليز الذين خدمهم اليهود حتى أصبح الشعب العراقي يرى فيهم متعاونين مع الأجنبي المحتل البغيض، هم المسئولون عن مذبحة الفرهود. هؤلاء الإنكليز خانوا العرب ومن ثَمّ خانوا اليهود في العراق ورموهم فريسة لكل من اشترى حطام الدنيا بالآخرة فقتلَ اليهود ونهبَ أموالهم "احتسابا" في الفرهود. أما الأتقياء منهم فقد راعوا الذمة وحموا الذمار، بل خاطروا بحياتهم لحماية جيرانهم اليهود. فالذين شاركوا في مذبحة الفرهود بالقتل والنهب كانوا من صغار ضباط الجيش والشرطة والرعاع والمجرمين الذين باعوا آخرتهم بدنياهم، هؤلاء هم المجرمون الذين شاركوا النازيين والانكليز الذين كان البترول العراقي أثمن في نظرهم من دم يهود العراق".[16] ورغم صواب هذا التشخيص العام، فأني أجد فيه حكماً قاسياً حين يشير الكاتب إلى إن المذبحة بدأت من قبل الكرد الفيلية الشيعة. من الممكن أن يكون بعض الكرد الفيلية قد شارك بذلك، ولكن الغالبية والأساس لم يكن الكرد الفيلية ولا العرب الطبيعيين بل هم المأدلجون من الجماعات التي تربت على الفكر النازي والكراهية لليهود. فالعلاقات بين اليهود والكرد الفيلية كانت طيبة واعتيادية ولم تكن مبنية على العداء، كما أنَّ الكرد الفيلية لم يكونوا عموماً عدوانيين أو يعتدون على الناس. ولكن هذا لا ينفي احتمال مشاركة البعض منهم كأفراد.

---

[16] موريه، شموئيل, بغداد حبيبتي. مصدر سابق. ص 60.

كما أنَّ الكاتب يعود وبصواب يؤكد "أما الأتقياء منهم فقد راعوا الذمة وحموا الذمار، بل ضحوا بحياتهم لحماية جيرانهم اليهود." 17

أما الأستاذ موريه فلدي القناعة بأن فاتته المعرفة التفصيلية والمدققة بطبيعة شخصية رشيد عالي الگيلاني، وكذلك بشخصية يونس السبعاوي، مفكر المجموعة التي نفذت الانقلاب ومجموعته المسماة فدائيي يونس السبعاوي. فاسم يونس السبعاوي السري في حزب الشعب هو "فرهود"، هذا الحزب الذي تأسس بمبادرة من الحاج محمد أمين الحسيني، مفتي الديار الفلسطينية، ورشيد عالي الگيلاني ومجموعة الضباط الأربعة. وهذه المجموعة هي التي شاركت بفعالية مع نادى المثنى بن حارث الشيباني وبالتنسيق والتعاون الكثيف مع فرتس غروبه، الوزير المفوض الألماني ببغداد، في عملية التثقيف بالفكر النازي والعنف والكراهية لليهود. واقترح على الأستاذ موريه إعادة النظر بالمقطع التالي:

"وشهد بنزاهة الوزير يونس السبعاوي في معاملته لليهود حتى في آخر يوم أو يومين قبل الفرهود وبعد فرار الگيلاني إلى تركيا، إذ أمر بدفع ثمن 400 "صوبة" (مدفأة) اشتراها الجيش العراقي من والده بالرغم من عدم وجود وصل بيده سوى اسم ضابط برتبة ملازم بقسم التجهيزات العسكرية وبالرغم من علمهم بأنه يهودي، فقد سمع الضباط يقولون عنه: "إنه يهودي ولا يأكل طعامنا!"، ومع ذلك فقد ناداه يونس السبعاوي وقال له: "هاك الوصل، ومع السلامة!". إذن، تاجر يهودي يدخل وزارة الدفاع، عرين الحكومة التي ألقيت عليها تهمة مجزرة الفرهود والتي فرّ أعضاؤها ما عدا السبعاوي، يعطيه هذا الأخير الوصل عن بضاعة اشتراها الجيش العراقي في مثل هذه الفترة الحرجة، ولم يسخروا منه ولم يهينوه بل أكرموه واحترموا محافظته على التقاليد اليهودية؟ هل كان يحدث مثل هذا في وزارة الدفاع في المانيا النازية أو أية دولة أوربية متحضرة في أثناء الحرب العالمية الثانية؟ إذن، كيف نستطيع حل هذا اللغز؟ فهذه الشهادات تؤكد أن رئيس الوزراء، الگيلاني، وأحد وزرائه من كبار النازيين في العراق والذي ترجم كتاب "كفاحي" لهتلر ومن الذين اعدموا شنقا فيما بعد وهو يونس السبعاوي، قد تصرفوا في تلك الظروف العصيبة بشهامة وإباء لا يملكهما سوى عراقي أبِيّ النفس عزيزها. إذن، فالنازية التي تمسخ الأوربي إلى وحش كاسر ومن زبانية الجحيم، لا تنال من إنسانية العراقي الشهم الأبي الذي يدافع عن كرامته أمام مستعمري وطنه! وخير دليل

---

17 المصدر السابق نفسه ص 60.

على ذلك هو أنه لم يقتل يهودي واحد أثناء حكمهم العراق إلى يوم 31 أيار، 1941 ."[18] لا يمكن مقارنة حالة التاجر مع جريمة الفرهود التي لم تكن حادثة عفوية، بل كانت هادفة ومنظمة من قبل أتباع قادة النظام وحزبهم السياسي السري وجماعة نادي المثنى وفرتس غروبا ورغبتهم المشتركة في الانتقام لانكسارهم العسكري وفقدانهم قاعدة أساسية لنشاطهم في المنطقة.

ورد في كتابي عن يهود العراق ومحنة المواطنة بهذا الصدد ما يلي:

"انتهت الحركة الانقلابية بمغادرة مجموعة القيادة العسكرية والسياسية البلاد، ولاسيما القيادة الحزبية التي قادت العملية سياسيا وعسكرياً، وكانت تقف على رأس الحركة أثناء العمليات العسكرية بين القوات البريطانية والقوات العراقية. وعقد آخر اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة رشيد عالي الگيلاني في 27 مايس/أيار من عام 1941. ثم صدر عنه القرار رقم س 3646 بتاريخ 1941/5/28 القاضي بتشكيل (لجنة الأمن الداخلي في العاصمة والطوارئ) حيث تم انتخاب أمين العاصمة رئيساً لها. وهي اللجنة التي وقعت اتفاقية الهدنة مع القوات البريطانية، والتي بدأت مفاوضاتها لوقف زحف القوات البريطانية على بغداد التي تمت في 1941/5/31. وفي التاسع والعشرين من مايس/أيار، غادر رشيد عالي الگيلاني بغداد، وكذلك المفتي الحاج أمين الحسيني باتجاه إيران. وكان آخر من غادر العراق من المجموعة القيادية على الأرجح، هو السياسي البارز والمتميز في الحركة الانقلابية ووزير الاقتصادي محمد يونس السبعاوي. إذ أنه واصل العمل في بغداد، وأعلن نفسه حاكماً عسكرياً لمنطقة بغداد والمنطقة الجنوبية، وطالب باستمرار المقاومة ضد القوات البريطانية. ولكن لجنة الأمن الداخلي، استطاعت إقناعه بعدم جدوى المقاومة، وطلبت منه مغادرة البلاد باتجاه إيران . ثم بدأت بعدها التفاوض مع القوات البريطانية لغرض إعلان شروط الاستسلام. وعلى أثر ذلك حلت كتائب الشباب، ومنها مجموعة الدفاع عن يونس السبعاوي (حرس السبعاوي–الفدائيون). وجدير بالذكر هنا أن السبعاوي، عمد إلى تشكيل ثلاث منظمات شبابية شبه عسكرية لحمايته، والدفاع عن الحركة الانقلابية، والتصدي للقوات البريطانية الزاحفة صوب بغداد، وهي (كتائب الشباب) و (الحرس الحديدي) و(فدائيو يونس السبعاوي). وهذه الكتائب كانت في طليعة القوى التي هاجمت اليهود، ونفذت فاجعة الفرهود في بغداد".

[18] المصدر السابق نفسه، ص 59–60.

من المهم أن نتابع ما ورد في ذكريات موريه عندما نقرأ في مذكراته رؤية ورد فعل الصبي موريس حول ما حصل في جريمة الفرهود حين دعي لرفع العلم العراقي في مصيف سرسنك بكردستان العراق:

" بدأت جراح الفرهود تلتئم رويدا رويدا، أو هكذا خيّل لي. خرجنا صيف عام 1947 نخبة من طلاب المدارس اليهودية في بغداد، من مدرسة فرنك عيني وشماش والمتوسطة الأهلية في مخيم للكشافة شمال العراق نتمتع لأول مرة بمشاهدة جمال جبال شمال العراق وينابيعها وبساتينها في مصيف صلاح الدين والسولاف وسرسنك وزاخو وساندور وغيرها من المدن الكردية الشمالية الرائعة الجمال بجبالها السامقة بحللها الخضراء وجداولها الرقراقة وطيورها المغردة بين أشجارها التي تنوء بثمارها. وبعد أن نصبنا مخيمنا في سرسنك ناداني أستاذ الرياضيات نوري منشي (واليوم يوجد شارع يحمل اسمه في طيرة الكرمل غرب سفح الجبل الأشم وشارع آخر في بيتح تكفا ("ملبس" حسب اسمها أيام الانتداب البريطاني) يحمل اسم الكاتب "سمير نقاش") وقال لي: "اذهب مع موريس شماش لرفع العلم على الصارية!". أخذت العلم العراقي وأنا مبتهج بهذا الشرف العظيم الذي حظيت به. أمسك موريس الحبل بيده لرفع العلم ووقفتُ وقفة استعداد مع تحية كشفية وأنشدت تحية العلم العراقية:

دُمْ عَلى هَامِ العُلَى يا عَلَمُ خافِقًا تَحْمِيكَ بِيضٌ خُذُمُ

بدأ موريس يرفع العلم وظننت أنه يردد معي النشيد، أرهفت سمعي فإذا به يردد باللغة العبرية: "ويزّاح ويمّاح" (لِيُزَحْ وَلْيُمْحَ)، لم أصدق ما سمعته وصحت غاضبا وتقدمت لأصفع موريس: "يا حمار، يا مجنون! ماذا تقول؟ هذا علمنا يا خائن! أتهين العلم!" امتقع وجه موريس واغرورقت عيناه بالدموع وصرخ في وجهي: "أتقول هذا علمنا؟ لو كان علمنا لما اغتصبوا أمي وأختي وقتلوا والدي أمام عيني لأنه دافع عن عرضه. هل اغتصبوا أمك وأختك وقتلوا أباك أمام عينيك يا ابن البتاويين؟ تعال اضربني تعال! تعال! هل سمعت صراخ والدك وهو يذبح أمام عينيك وتوسلات أمك وأختك طلبًا للرحمة؟ هل رأيت الشيخ الذي قطع رجلي جارنا الطفل الرضيع بحجليهما الذهبيين وسار في شارع غازي كالمنتصر الفاتح وهو يجلجل بجلاجل حجلي الذهب مترنمًا:

"اشحلو الفرهود لو أيعود يومية، يا يُمّا ويا يابا[19]!

---

[19] ملاحظة: "وكان المشاركون في حملات العنف هذه، التي اقترنت بعمليات السلب والنهب والقتل والتدمير ضد العائلات اليهودية وبيوتها ومحلات عملها ومصالحها الاقتصادية ببغداد، يهزجون في شوارع بغداد:

"حلو الفرهود كون أيصير يومية"

" حلو الفرهود كون ايصير يا خاله"

قل لي هل رأيتهم؟ من هو الخائن يا سامي، نحن أم هم؟ ألم نخدمهم كالعبيد ونسكت على ما صنعوه بنا؟ هل تعرف معنى عار الاغتصاب واليتم، هل تعرف؟" صعقتني كلمات موريس وغامت الدنيا في عيني وتجللت سماء سرسنك بالغيوم السوداء وتساقطت قطرات دم عذراء من العلم الذي توقف عند منتصف الصارية. شعرت باليأس والوحدة والضياع وصحت بموريس شماش: "كفى بربك! كفى! تعال نعود إلى معسكر الكشافة. "لم أنم الليل بطوله وكان موريس يبكي ويئن ويقول: "اغتصبوا أمي وأختي وذبحوا أبي ويريد ابن البتاويين ضربي!" كنتُ قد سمعت في حينه عن مثل هذا الاغتصاب من بعض الأصدقاء وكتب عن مثل هذه الحادثة فيما بعد الأديب المحامي نزيل الدنمرك نور الدين وهب في قصته الواقعية التي تقشعر لها الأبدان "هتلر في الإبريق". بقيت حائرا متسائلا: لماذا حدث الفرهود؟ ومن هو المسئول عنه؟؟؟". 20

يتناول البروفيسور شموئيل موريه موضوعات كثيرة في كتاب الذكريات والسجون فيعرج بوعي على ظاهرة سلبية ابتلى بها الشرق عموماً والعربي خصوصاً، ظاهرة قتل المرأة "غسلاً للعار ودفاعاً عن الشرف!"، وتصور الإنسان إنها انتهت، وإذا بها تعود اليوم وكأن المجتمعات العربية تعيش في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وكذلك عن الحب. ومن يتابع أخبار قتل النساء وانتحارهن القسري يؤكد عودة العراق مئة عام إلى الوراء اجتماعياً وأكثر من سبعة عقود اقتصادياً وصناعياً وزراعياً. كتب موريه بأسلوب ساخر قائلاً:

"فالعشق المسيحي هو عشق روحي أنثوي، أما العشق المسلم فهو عشق فحولي ذكري كما قال الفيلسوف الألماني نيتشه مؤلف كتاب "هكذا تكلم زرادشت" دعا فيه إلى "الإنسان المتفوق". أما الحب الجسدي فقد كان كما روى الأستاذان نعيم قطان ونسيم رجوان في مذكراتهما، بأنه كان يشترى في مواخير المدينة، بؤرة الفساد التي يجول ويصول فيها الشيطان صباح مساء، ويقف رجال الشرطة على بابه يفتشون عن السلاح المخبأ في جيوب الرجال، سنوات طويلة قبل أن يبتكر الفدائيون تفجير أنفسهم في المطارات والأماكن العامة انتقاما لشرف المسلمين الذي انتهكه الأستعمار والحضارة الحديثة التي تخشى من الموت، فخربوا الثقة

" أذاني أطرشت من كسر القفاله"

" حلو الفرهود كون أيصير يا عمه"

" أنظر على الشباب اشلون ملتمه".

راجع: حبيب، كاظم. اليهود والمواطنة العراقية. كتاب جديد لم يطبع بعد.

20 موريه، شموئيل. بغداد حبيبتي . مصدر سابق. ص 53-54.

والأمن بين الناس. أما أيام زمان فقد كان التفتيش لأجل الحفاظ على حياة من كن ينعتن باللقب المشين "البغايا" هؤلاء المسكينات ضحية المجتمع الفاسد المعلق فوق رءوسهن دوما حكم رجال العشيرة بالإعدام طعنا بالخناجر حتى الموت، حذرا من أن أحد أفراد العائلة المنكوبة في شرفها قد يقدم على القتل لغسل عار العائلة، وعند ذلك فقط تبدأ زغاريد النساء ورقصات "جوبي" الرجال ولعلعة الرصاص في الفضاء مبشرة بتطهير الشرف من أدران عار الجسد النسائي المباح بيد الشرق الذي استعبد المرأة في تقاليد بالية تجعل جسدها ملكا لرجال الحمولة والعشيرة. فشرف العائلة يكمن بين "فخذي حريم" العشيرة كما قال لي محاضر شجاع من جامعة بير زيت، ولأن "الجدار المقدس" خلقه الله وعلى الفتاة عبء الحفاظ عليه مهما كلف الأمر وإلا فرجال العائلة "تعرف شغلها". أما في صعيد مصر، فكما يقول عبد الرحمن الشرقاوي في روايته "الأرض"، فيقف الأب الغيور على عتبة مخدع العروسين منتظرا أن يرمي العريس بالمنديل المضرج بدم البكارة ليبشر له بقدوم الفرج وبأنه يستطيع تناول الطعام والفطور أخيرا، فقد بيضت الحلوة وجهه ولا يحتاج إلى توجيه رصاصة إلى رأس ابنته إذا حدث، لا سمح الله، أنها فقدتها في حادثة أو أنها ولدت بدون جدار مقدس. قال لي ناحوم من مدرسة فرنك عيني وهو يضحك بأسى "البوحي (البارحة) تزوج ابن عمي وعغوصو (عروسه) طلعت منقوبه، ورجعناها البيت أبوها!" فقد أعادوا السلعة "المعيوبة" إلى صاحبها، خاطر يعرف شغلو وياها بدون سؤال وجواب، والله خوش منطق وخوش شرف." [21] وهو يتحدث مع أديبة عراقية فيقول:

تكرر الأديبة التي تجري المقابلة معي لتوقظني من سرحة أفكاري إلى الماضي بسؤالها المحرج: "أستاذ! حبيت بالعراق مسلمة؟"، لا شك إنها تربت بعد هجرتنا ولم تسمع بالتحذيرات الثلاثة التي كانت أمهات الأطفال اليهود يرضعنها لأبنائهن مع حليبهن: "لا تطلع للدغب تغا يضغبك المسلم، لا تعلي عينك على المسلمية تغا والله يذبحوك، إذا كفغ المسلم ابدينك، أحسن لك اسكت ولا تجاوب" (لا تخرج إلى الطريق فإن المسلم سيضربك، لا ترفع عينيك إلى فتاة مسلمة فإن أهلها سيذبحونك والله، وإذا كفر مسلم بدين اليهود من الأفضل أن تصمت ولا تجبه.!).[22]

كان للمثقفين العراقيين دورهم في العودة إلى دراسة وتقييم تاريخ يهود العراق ودورهم في الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعامة بالعراق خلال مئات السنين، ولكن وبشكل خاص خلال العهد الملكي وبين 1921–1952 ومن تبقى منهم بعد ذلك وغادر العراق في أوائل السبعينات. وصدرت العديد من الكتب في هذا الصدد. وللكاتب والناشر مازن لطيف دور ثقافي وإنساني مهم في هذا الصدد. وتسنى لي أن أنشر

---

[21] **المصدر السابق نفسه. ص 179.**

[22] **المصدر السابق نفسه. ص 180.**

كتاب "اليهود والمواطنة العراقية: أو (يهود العراق بين الأسر الجائر والتهجير القسري الغادر) بطبعتين في عامي 2005 و2008. والآن أعمل على تحديث وتوسيع وإضافة موضوعات جديدة للكتاب، ويطبع طبعة أولى ببيروت خلال الأشهر الستة القادمة.

لا شك من يقرأ الكتب الصادرة عن يهود العراق سيشخص التباين الكبير بين الكتاب في مواقفهم من اليهود وهجرتهم القسرية، ولكن وبشكل عام يمكن القول بوجود موقف إيجابي سليم من الغالبية العظمى من يهود العراق ومن دورهم الفعال في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإبداعية. ومن بين من تصدى لدور اليهود العراقيين شعراً هو الأستاذ الدكتور جبار جمال الدين في عدد من قصائده العمودية والنثرية، وليسمح لي أن أضع أمام أنظار القراء قصيدته الآتية التي عنونها "سامي، يَا مُلْهِمَ الشّعْرِ"، والمقصود هنا صديقنا المشترك الأستاذ سامي موريه والتي نشرت على موقع الأخبار للأستاذ نوري علي بتاريخ 5 كانون الأول/ديسمبر: 23

سامي، يَا مُلْهِمَ الشّعْرِ"

نَشِيدُ الأناشِيدِ هَذا الّذِي.. أطَلّ عَلَى مَسْمَعِي مِنْ جَدِيدْ

أمِ العِيدُ عِيدَانِ قَدْ أصْبَحَا.. وَمِنْ بَعْدِ بُعْدٍ وِصَالٍ فَرِيدْ

أخِي يَا نَسِيمَ الرّبِيعِ الْبَهِيّ وَيَا هَمْسَةً في شِفَاهِ القصيدْ

لَصَوْتُكَ صَوْتُ الهِزَارِ الْبَدِيع.. يُغَنّي وَيُطْرِبُنِي مِنْ بَعِيدِ

يَقُولُونَ: سَامِي، فَقُلْتُ النّدَى وَسِحْرُ العَرَاقِ وَمَاضٍ تَلِيدِ

حَسِيبٌ نَسِيبٌ كَرِيمُ الطّبَاع .. عَلَى مِنْكَبَيْهِ تُرَاثٌ مَجِيدْ

فَلاَ غَرْوَ أنْ صِارَ فِي خَافِقِي.. مُقِيمًا وعن وُدّهِ لا أحِيدْ

يَقُولُونَ: أنْتَ تُحِبُّ الْيَهُودَ،.. فَقُلْتُ: أجَلْ بَلْ وَأرْجُو الْمَزِيدْ

هُمُو صَفْوَةُ اللهِ في خَلْقِهِ.. لِهُمْ فِي الْوَفَاءِ تُرَاثٌ عَتِيدْ

أخِي، يَا ابْنَ مُورِيهْ يَا كَوْكَبًا.. يَلُمّ الشّتَاتَ وَيُدْنِي الْبَعِيدْ

---

[23] **جمال الدين، جبار أ. د. قصيدة "سامي يا ملهم الشعر".موقع الأخبار. 2010/12/5. أخذت القصيدة بتاريخ 2013/4/12.**

تَعَالَيْتَ يَا بَيْرَقًا فِي السّـمَاءِ وَبُورِكْتَ مِنْ مُخْلِصٍ لاَ يَحِيدْ

سَتَبْقى بِقَلْبي بِرَغْمِ الْبِعادِ.. قَرِيبًا قَرِيبًا كَحَبْلِ الوَرِيدْ

سَأَدْعُ الإِلَهَ بِتَوْرَاتِهِ.. بِإِنْجِيلِهِ بِالْكِتابِ الْمَجِيدْ

بِأَنْ تَلْتَقِي فِي رَوَابِي الْعِراق.. وَتَسْعَدُ دَوْمًا بِعُمْرٍ مَدِيدْ

فَيَا صَاحِبِي يَا صَدِيقَ الوَفَا.. لأَنْتَ بِقَلْبِي رَجَاءٌ وَطِيدْ

تَمُرّ السّنُونُ وَقَد تَنْتَهِي.. وَمَا يَنْقَضِي وُدّ نَا بَلْ يَزِيدْ

كَسِفْرِ الْخُرُوجِ وَمَا ضَمّهُ مِنَ السّحْرِ أَوْ مَا احْتَوَى مِنْ جَدِيدْ

أَوِ الْتَثْنِيَاتِ وَأَفكَارِهَا.. تَسَامَتْ عَلَى كُلّ فِكْرٍ تَلِيدْ

أَوِ الصّوَرِ الْغرّ قَدْ صَاغَهَا.. بِتَلْمُودِهِ حزقيالُ الرّشِيدْ

سَتَبْقَى أَخِي وَاحَةً لِلْوَفا.. رَعَاهَا قَدِيمًا رَجُالٌ وَصِيدْ*

*** وصيد= الملوك**

تشير نقاشات بعض العراقيين حول كتابات الأستاذ موريه وكأنه يطلب منه أن يترك دولته ويعود إلى العراق ليحمل الجنسية العراقية، والبعض الآخر يعتقد بأن كتابات الدكتور تريد كسب عطف العراقيين لأغراض في نفس يعقوب. لا يمكن للأستاذ موريه، الحاصل على جائزة الدولة في الاستشراق والمخلص لشعبه ودولته أن يتخلى عن جنسيته ويعود ليأخذ الجنسية العراقية بعد أن تجاوز عمره الـ 81 عاما، وأن يترك عائلته وأولاده وبناته وأحفاده. وهو طلب غير معقول وغير مقبول. شموئيل موريه يحب أن يزور العراق ويحن إليه وإلى أهله على أن يزوره حين تنشأ علاقات طبيعية بين البلدين في قادم الأيام وليس غير ذلك. كما إنه يكتب بصراحة وشفافية دون أن يترك مجالاً لتفسير أقواله ولا يراوغ في موقفه الدفاعي عن إسرائيل والمحب لها، ولكنه في الوقت نفسه يقف إلى جانب حل الدولتين ومعالجة المشكلات بالطرق السلمية والديمقراطية التفاوضية. وأنا أشير إلى هذا الموقف يتبادر إلى ذهني واقع آخر أشير إليه في أدناه:

أجبر مئات ألوف العراقيات والعراقيين أفراداً وعائلات على الهجرة واللجوء إلى الدول الأوروبية والولايات المتحدة وكندا واستراليا ونيوزيلندا وبعض الدول العربية وغيرها بهدف الخلاص من الدكتاتورية البعثية الغاشمة وإرهابها وحروبها وتجويع سكانها لسنوات طويلة في فترة الحصار على العراق. وأجبر هؤلاء على

البقاء أكثر من عقدين أو حتى أكثر من ثلاثة عقود في الشتات العراقي. وحين سقط النظام عاد القلة من العراقيات والعراقيين، ولكن أجبر كثرة من الناس على مغادرة العراق بسبب طبيعة النظام القائم على المحاصصة الطائفية السياسية والأثنية، وبسبب الإرهاب والفساد والبطالة. وأصبح الآن ما يقرب من أربعة ملايين إنسان عراقي يعيشون في الشتات. ونسبة عالية منهم لن تعود إلى العراق لأسباب عدة منها:

1. **إن الأوضاع في العراق لم تستقر وما تزال تهدد الإنسان في حياته ورزقه كما حصل لعشرات الألوف من العراقيين خلال السنوات العشر المنصرمة سواء أكانوا من المسيحيين أم الصابئة المندائيين أم الإيزيديين أم من أتباع المذهبين السني والشيعي في الإسلام بسبب التمييز الديني والطائفي السياسي وبسبب الإرهاب والفساد المالي والإداري والحزبي، وبسبب البطالة وغياب مبدأ المواطنة الحرة والمتساوية.**
2. **إن الكثير من العراقيات والعراقيين اكتسبوا جنسيات جديدة بالوطن الثاني الجديد الذي احتضنهم كلاجئين كرام أو كعاملين أو قدم لهم المساعدة الاجتماعية للعيش الكريم. ودخل أبناء وبنات هؤلاء في المدارس والجامعات وتوظفوا في تلك الدول ولم يعد يشدهم إلى الوطن سوى الحنين لمرابع الطفولة والصبا. وهم لا يطمحون إلى أكثر من القيام بزيارة الأقرباء والعودة إلى وطنهم الجديد الذي احتضنهم ووفر لهم أسباب العيش الكريم والسعادة وعدم الخوف من المستقبل.**
3. **شعور المواطن والمواطنة بالحرية والديمقراطية والتمتع بحقوق الإنسان واحترام كرامة الإنسان في وطنهم الجديد، في حين ما زال وطنهم الأصلي لا يوفر لهم الأمن الاستقرار والبقاء على قيد الحياة، كما يوفر لأطفالهم كل أسباب الدراسة والتقدم في العمل والحياة. وعلينا أن نقرأ ما يصرح به من ذهب إلى العراق وعاد بخفي حنين من أصحاب الكفاءات بسبب الجفوة والإهمال الذي جوبهوا به من المسؤولين وعلى مختلف المستويات.**

وإذا كان هذا حال العراقيات والعراقيين الذين هجروا البلاد طوعاً أو هرباً من مآسي وكوارث البلاد في فترة حكم الدكتاتورية البعثية والدكتاتور الشمولي صدام حسين وفي فترة الحكم الطائفي السياسي والإرهاب الدموي والتمييز والفساد والبطالة والفقر، فلماذا نطالب البروفسور سامي موريه وغيره من يهود العراق إلى التخلي عن جنسيتهم الإسرائيلية بعد أن طردوا من العراق شر طردة وحرموا من وطنهم وممتلكاتهم المجمدة حتى الآن، أن يعودا إلى العراق ليأخذوا الجنسية العراقية التي لا تقدم لهم الأمن والاستقرار والكرامة. والأستاذ شموئيل موريه على حق كبير حين يقول بأنه مستعد لزيارة العراق حين يكون الوضع طبيعياً بين الدولتين وحين يسود السلام وحين يغيب الاستبداد والتمييز الديني والمذهبي والقومي من أرض العراق ويبتعد حكام العراق عن مصادرة حقوق الإنسان وحقوق المواطنة.

هناك الكثير الذي يمكن كتابته عن كتاب بغداد حبيبتي وعن مؤلف الكتاب وكتبه وكتاباته الأخرى، ولكن أفضل أن أوجه الدعوة للقراء والقارئات أن يقرأوا هذا الكتاب لا للمتعة فحسب بل للإمعان به واستخلاص

الدروس والعبر منه واستذكار حياة العراقيات والعراقيين اليهود وغير اليهود بالعراق خلال النصف الأول من القرن العشرين أو عن مواقف ورؤية الكثير منهم ممن التقوا أو تعرفوا على الأستاذ موريه وتحاورا معه.

وبين من كتب عن الأخ شموئيل موريه الفقيد الشاعر أنور شاؤل، إذ نظم قصيدة نشرها في ديوانه الموسوم "وبزغ فجر جديد" في باب الأخوانيات وبمناسبة منحة درجة بروفيسور من الجامعة العبرية بالقدس ننشرها فيما يلي:[24]

لو كان شِعري لؤلؤاً يُنظم في سلكٍ ذهبْ

يستقطب الأنظار ممن قد نأى أو اقتربْ

لو كان سحريَّ الرؤى به القوافي كالشُهُبْ

لو كان شمَّساً قد أطلَّت من تلافيف السُحُبْ

لو كان شعري نغمةً عبرَ هدوءٍ أو صَخَبْ

أو نفحةً مسكيةً بها نسيمُ الفجرِ هبْ

لعله كان يرى أهلاً لأعلامِ الأدبْ

لكن شعري أحرفٌ من وشوشاتٍ أو لهبْ

فحبذا العذر إذا قصَّر عن نيلِ الأربْ

يا معدن اللطف ويا أمثولةَ الخُلقِ العذِبْ

يا عبقريَّ البحثِ والـ تحقيق خيرَ من دأبْ

يا من له فصلُ الخطا ب إذ أذاعَ أو كتبْ

---

24 شاؤل، أنور. وبزغ فجر جديد، شعر. تحيتي إلى البروفيسور شموئيل موريه. منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق –رقم 4–. مكتبة الدكتور سلمان درويش– سالا لمؤلفات يهود العراق. أورشليم – القدس ، 1983. ص 147.

إن الكاتب يمنحنا بكتابه الجديد فرصة ثمينة للتفكير بما جرى لليهود العراقيين وما جرى ويجري اليوم ضد المسيحيين والصابئة المندائيين والإيزيديين بالعراق من تمييز وقتل وتشريد وتهجير وتغيير لديموغرافية مناطق سكناهم، إضافة إلى الصراعات القابلة للتحول إلى كارثة مرعبة بين الأحزاب الإسلامية السياسية الشيعية والسنية وميليشياتها المسلحة، ودور قوى الإرهاب لتنظيم القاعدة الإجرامي وقوى البعث الدموية المسلحة في تشديد كل ذلك. إنها فرصة لكل مواطن أن يقدِّرَ أهمية الخلاص من الحكم الطائفي السياسي والتحول إلى المجتمع المدني الديمقراطي حيث تسود هوية المواطنة العراقية الحرة والمتساوية.

برلين في أذار/مارس – نيسان/أبريل 2013

رسالة من الكاتب البروفيسور شموئيل موريه (سامي المعلم) إلى كاظم حبيب

البروفيسور العلامة كاظم حبيب الصديق الوفي، حفظه الله،

وصلني مقالكم المنصف الرائع، ولا اكمل ولا اشمل، الذي يُعتمد عليه في تفاصيله وتحليله. وهنا تكمن عظمة الكاتب والمؤرخ في تحليله الصائب الموضوعي دون تزييف الواقع ليلائم النظريات السياسية والقومية والدينية، هل تسمح لي ان اضعه كخاتمة لديواني الجديد "تلك ايام الصبا، وهذه ايام الحنين"؟ ارجو ان تتكرم بالسماح لي بنشره لاهميته التاريخية ولا اخالني ان احدا من الكتاب يستطيع ان يبلغ شأوه وشموله ودقته،

"اضاعوك واي فتى اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر"

ولو عرفوا قدركم لعينوكم وزيرا في الوزارة العراقية لانقاذ العراق من محنه،

اطال الله في حياتكم ونضالكم وقائمة كتبكم وسأوصي المهتمين بتاريخ العراق بكتابة اطروحة عنكم اذا وجدت من بين الطلاب من هو كفوء لمثل هذا الموضوع الجليل.

اصدرت الجامعة العبرية تحقيق كتاب الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار، في 2700 صفحة مع فهرست شامل في مجلد كامل في 1086 صفحة ، وسعره 550$ بدون تكاليف البريد، كما صدرت ترجمة كتابي عن المسرح العربي الوسيط في العالم العربي ترجمه عمرو زكريا عبد الله في نطاق منشورات الجمل، لم يصلني منه سوى نسخة واحدة، كما نشرت الجمل الطبعة الثالثة المنقحة لكتابي "الشعر العربي الحديث وتأثير التيارات الشعرية عليه، وصلتني نسخة واحدة منه، والله كريم.

سلامنا إلى العائلة الكريمة، وإلى من يذكرنا من الاصدقاء في برلين والمانيا،

ودمتم وعوفيتم

اخوك، سامي

2014/3/21

قراءة في كتاب "بغداد أمس" للكاتب البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ

اسم الكتاب: بغداد أمس

المؤلف: البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ

المترجم: د. محمود عباسي (الكتاب بالأصل باللغتين العبرية والإنجليزية وترجم عن اللغة العبرية إلى العربية).

دار النشر: دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر م. ض. – شفاعمرو/ إسرائيل

سنة النشر: 2011

عدد الصفحات: 176 صفحة بضمنها مجموعة من الصور للنصف الأول من القرن العشرين بالعراق.

ملاحظة: يشير الكاتب إلى إن كتاب بغداد أمس "Baghdad Yesterday" هو الجزء الأول، في حين ستصدر ترجمة الكتاب الثاني الموسوم "Life after Baghdad,, تحت عنوان " الحياة بعد بغداد" في صيف عام 2014.

المدخل

نحن أمام شخصية أدبية كبيرة، أمام عالم رائع في الأدب العربي والنقد الأدبي، كتبه وكتاباته الأدبية ودراساته العميقة تجسد ذلك لمن اطلع على أبرز كتابات هذا الأديب اليساري والحداثي في آن (راجع الملحق رقم 1 في نهاية هذا المقال). لهذا فالكتابة عنه لن تكون سهلة بأي حال، ولست طامعاً في ذلك بل سأحاول أن أقرأ بعناية كتابه المترجم من الإنجليزية إلى العربية والموسوم "بغداد أمس". إنه كتاب قيم وأصيل وكتب بلغة أدبية رائعة.

والكاتب البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ من مواليد بغداد 1933 وعاش فيها مع عائلته حتى العام 1951 حين هاجر العراق إلى إسرائيل بعد صدور قانون إسقاط الجنسية عن يهود العراق. ولد في عائلة متوسطة الحال وعلمانية، وهي عائلة كبيرة ومعروفة عراقياً، كما انتشر أبناء هذه العائلة في بقاع كثيرة من العالم منذ النصف الأول من القرن العشرين حتى الوقت الحاضر. إلا إن أبرز شخصيات هذه العائلة القدامى هو الحاخام الكبير عبد الله سوميخ، في حين أبرز أبناء وبنات العائلة في الوقت الحاضر هو البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ. وقد كتبت عنه في كتابي الموسوم "اليهود ومحنة المواطنة العراقية" ما يلي: " بعد بضعة قرون من التقهقر في ميدان التعليم الديني بدأت الطائفة اليهودية ببغداد بفتح مدارس دينية على مستوى عال عرفت باسم (تلمود توراه) أي دراسة التوراة، وقد تم تأسيس أولى هذه المدارس عام 1832 أعقبها تأسيس أول كلية دينية (يشيبا) عام 1840 وقد ترأسها الحاخام عبد الله سوميخ وبلغ عدد تلاميذها عام 1848 الستين"[25]. كما كتب عنه الدكتور سلمان درويش في كتابه الموسوم " كل شيء هادئ في العيادة" ما يلي: "الحاخام عبد الله كان احد ثلاثة الحاخامين الذين تقلدوا سلطة القضاء الديني اليهودي في بغداد حيث كان التعليم الديني فيها راقياً وفيها مدرسة دينية يتولى هو رئاستها ويقوم بهذا العمل البار مجاناً، كما كان مرجعاً للرد على اليهود في مختلف الأقطار كالهند والصين وإيران والشام بالإضافة إلى بلاد ما بين النهرين من تفسيرات

---

25 رجوان، نسيم. موجز تاريخ يهود العراق. منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق– 19. أورشليم– القدس. 1998. ص 83.

وإيضاحات دينية في تحليل أو تحريم مأكولات ومشروبات عصرية ومخترعات مختلفة. وكان بعيداً عن التعصب وعرف بمجاراته لروح العصر والتقدم ومتطلبات التطور الفكري الاجتماعي".[26]

درس ساسون سوميخ الابتدائية في مدرسة "مدام عادل" الأهلية ثم درس المتوسطة والثانوية في مدرسة "شماش". وفي المدرستين أكثرية من أبناء وبنات العائلات اليهودية ولكنها ضمت مجموعة من المسيحيين والمسلمين أيضاً. حين تخرج من الثانوية كانت الأبواب قد أغلقت بوجه أبناء وبنات اليهود في التعليم العالي أو الوظائف الحكومية بل حتى الوظائف في القطاع الخاص. مما وجد الشباب اليهودي أن مستقبله قد أغلق بوجهه وفقد حرية الحركة هي أقسى ما يمكن أن يعاني منه الإنسان في بلد لا يعترف بالهوية العراقية بل بالهويات الفرعية ويميّز بها لصالح هوية فرعية واحدة وجزئية ضد الهويات الفرعية الأخرى، وهي الحالة التي لا تخلق المواطنة الموحدة والمتساوية، بل تدفع به إلى الهامش والهجرة إن أراد صيانة حريته وكرامته ورعاية مستقبله.

تعرف على الرؤية العلمانية للمجتمع في علاقات عائلته وفي موقفها من الدين أو الدولة أو إزاء الديانات الأخرى وكذلك في المحيط الذي كان على احتكاك به، وخاصة عبر بعض المدرسين الذين درسوه في المدرسة الثانوية ويعتّز بذكر البعض منهم سواء أكان من أتباع الديانة اليهودية أو الإسلامية أو المسيحية، منهم على سبيل المثال لا الحصر أستاذ الكيمياء نسيم عزرا نسيم، والكاتب الأستاذ محمد شرارة والدكتور حسين مروة، صاحب كتاب النزعات المادية في الإسلام" الذي اغتيل بتاريخ 17 شباط 1987 في منزله ببيروت من أعداء الحزب الشيوعي اللبناني والحركة الوطنية اللبنانية. تعرف على الكثير من الأدباء والشعراء العراقيين ومنهم بشكل خاص محمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب ونُلند الحيدري وعبد الرزاق عبد الواحد ورشيد ياسين ووأكرم الوتري وحسين مردان وغيرهم من شعراء تلك الفترة. بدأ بكتابة الشعر مبكراً ونشر بعض أشعاره في الصحف العراقية حين كان تلميذاً في

---

[26] درويش، سلمان د. كل شيء هادئ في العيادة، منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق–2. 1981، أورشليم القدس. ص 55.

مدرسة شماش الثانوية. لم يكن مغموراً بالسياسة كالكثير من أبناء وبنات جيله، كما لم يكن عضواً في حزب سياسي بالعراق، ولكنه كان ديمقراطي النزعة وتقدمي التوجه صوب الحداثة واليسار.

حين هاجر إلى إسرائيل كان عمره 17 سنة. تسنى له الدراسة بعد مرور عدة سنوات في جامعة تل أبيب وحصل على شهادة البكالوريوس في اللغة العبرية والتاريخ من جامعة تل أبيب في العام 1962 ومن ثم على شهادة الماجستير في اللسانيات في قسم اللغات السامية في الجامعة العبرية بالقدس في العام 1965. ثم انتقل إلى جامعة أوكسفورد بلندن لينجز رسالة الدكتوراه التي حاز عليها في العام 1968 وكانت تبحث في أدب نجيب محفوظ وثلاثيته الشهيرة بين القصرين (1956)، قصر الشوق (1957)، السكرية (1957) . وقد حازت دراسات وكتابات البروفيسور سوميخ على تأييد كبير وتقدير استثنائي من الروائي والكاتب الكبير والحائز على جائزة نوبل للآداب، إذ كتب رسالة بخط يده موجهة للأستاذ ساسون سوميخ بتاريخ 1978/10/12 وموقعة بـ "المخلص نجيب محفوظ"، القاهرة، جاء لضمنها المقطع التالي: (راجع الملحق رقم 1 ويتضمن صورة رسالة نجيب محفوظ بخط يده).

"الأستاذ ساسون سوميخ

إليك صادق تحياتي وشكري وبعد

لقد اطلعت على رسالتك بسرور صادق ، إعراباً عما أكنه لك من شكر لعنايتك الكريمة بدراسة أدبي ، وقد صرحت في أكثر من مجال بأن كتابك عني يعتبر عملاً نقدياً عميقاً وشاملاً ، وإنه يعتبر من أفضل ما كتب عني إن لم يكن أفضلها جميعاً. وطبيعي إنني لمست فيه حبك للأدب العربي ولاجتهاداتي فيه لا تحرياتك عن عقلية عدو. بل إن دراستك كانت غنية في المقام الأول وإنسانية بالمعنى الشامل والدقيق." 27

قبل إنجاز رسالة الدكتوراه عين سكرتيراً علمياً لمجمع اللغة العبرية. وبعد التخرج عمل محاضراً في مادة الأدب العربي ثم رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في جامع تل أبيب في الفترة الواقعة بين 1972- 1984، ومنح درجة الأستاذية في الأدب العربي والنقد الأدبي في العام 1980. وفي الفترة الواقعة بين 1982 -2003 شغل كرسي الأستاذية للأدب العربي في جامعة تل أبيب. وبين عام

---

27 راجع: Sasson Somekh, Life after Baghdad, Memoirs of an Arab-Jew in Israel, 1950-2000. Sussex, Academic Press, Brighton. PortlandToroto. 2012. P.168).

1996-1998 شغل مركز رئيس مركز الأكاديمية الإسرائيلية بالقاهرة. وفي العام 2004 حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة بن غوريون.

لقد عمل الأستاذ ساسون سوميخ أستاذا زائراً في جامعات كثيرة منها "جامعة برنستون، كلية سانت أنتوني في أكسفورد ، ومعهد بحوث أننبرغ ، جامعة نيويورك وجامعة أوبسالا."[28]

حاز الأستاذ ساسون سوميخ على وسام إسرائيل، وهو أرفع وسام يمنح في إسرائيل لدوره العلمي الكبير في مجال الآداب العربي واللغة. كما كرم عضو فخري في مجمع اللغة العربية بإسرائيل تقديرًا له على ما قدّمه للأدب العربي الحديث من دراسات وأبحاث قيّمة أغنت المكتبة العربيّة. وهو أول كاتب وأديب إسرائيلي ممتميز من أصل يهود العراق ينال هذه الجائزة الكبيرة. وفي هذا الاحتفال تحدثت الدكتور كلارا سروجي- شجراوي التي قدمت نبذة عن حياته وأعماله القيمة كما تحدث أساتذة وأدباء بهذه المناسبة التكريمية، إضافة إلى الأستاذ ساسون سوميخ الذي قدم كلمة بهذه المناسبة.[29] والبروفيسور سوميخ عضواً فخرياً في مجمع اللغة العربية بإسرائيل، وكان من مؤسسي هذا المجمع المهم الموازي لمجمع اللغة العبرية.

منذ انتقال ساسون سوميخ إلى إسرائيل التصق بالتيار الفكري اليساري دون أن ينتمي إلى حزب سياسي، فنشر في جريدة الاتحاد ومن ثم في مجلة الجديد ونشر عشرات المقالات حول الأدب العربي والنقد الأدبي متخذا مساراً واقعياً ومحفزاً لقراءة الأدب العربي أو الدعوة للمشاركة في الكتابة العربية. لقد أتقن اللغة العبرية مما ساهم في مشاركته في ترجمة الكثير من الشعر العربي الحديث، إضافة إلى مساهماته الشخصية. إن مقالاته عن الأدب العربي بشكل عام والفلسطيني منه بشكل خاص في الصحف العبرية والمجلات المتخصصة جلبت انتباه الكثير من القراء واكتسبت أهمية خاصة لنشر الأدب العربي، ومنه الشعر العربي. كصحيفة "هآرتس" ومجلة "عتون 77" ومجلة "كيشت "ومجلة "موزنايم" وغيرها. ويجد الباحث مقالات له في مجلة الكرمل المتخصصة باللغة والأدب والتابعة لكلية الآداب في حيفا، حيث نقرأ لساسون سوميخ فيها مثلاً : فن الشعر العبري في ظل فن الشعر العربي

---

[28] راجع: وكيبيديا ، الموسوعة الحرة، ساسون سوميخ. باللغة الإنجليزية).

[29] مؤتمر ثقافي لمجمع اللغة العربية في حيفا، موقع بانيت وصحيفة بانوراما. عقد مجمع اللغة العربية يوم السبت 15-12-2012 في مسرح الميدان في حيفا، مؤتمرًا ثقافيًا خصصه لإصداراته لعام 2012.

في القرون الوسطى، وبدايات الترجمة الأدبية في القرن التاسع عشر ومشكلة الأسلوب القصصي.30 كما كان ينشر الكثير من مقالاته في جريدة الشرق الشفاعمرية.

وبصدد الأدب الفلسطيني واهتمام الأستاذ ساسون سوميخ به كتب البروفيسور محمود غنايم مقالاً موضوعياً ومهماً نشر في جريدة الشرق الأوسط وبتاريخ 4 أيلول/سبتمبر 2001 بعنوان "من «اعرف عدوّك».. إلى البحث الاستشراقي، جاء فيه :

"أما أهم باحث في تقديري للأدب الفلسطيني فهو بلا شك البروفسور ساسون سوميخ، أستاذ كرسي الأدب في جامعة تل أبيب. وسوميخ من أصل عراقي جاء إلى الجامعة من الحياة الأدبية. فقد كان في شبابه من النشيطين في صفوف الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وقد كتب في مجلات الحزب وعرف العديد من الأدباء الفلسطينيين عن كثب وأقام علاقات ودية مع هؤلاء الأدباء، أمثال راشد حسين وسميح القاسم وتوفيق زيّاد وإميل حبيبي وحنا أبو حنا وغيرهم الكثير.

ودراسات سوميخ الأكاديمية انطلقت من وجهة نظر فنية، حيث انشغل بقضية اللغة في الأدب. وتكتسب دراسات سوميخ أهمية خاصة لأنها لم تبق محصورة في أروقة الجامعة، بل له العديد من المقالات والدراسات التي نشرت في الصحافة الإسرائيلية: العربية والعبرية. إضافة إلى رصيد كبير من الترجمات إلى العبرية لأدباء فلسطينيين، مثل غسان كنفاني، راشد حسين، إميل حبيبي، محمود درويش، ميشيل حداد، سهام داوود وغيرهم.

والبروفسور سوميخ، صاحب مدرسة في الأكاديميا الإسرائيلية، وقد تخرّج على يديه العديد من الطلاب الذين انتشروا في عدة جامعات داخل إسرائيل وخارجها. وكاتب هذا المقال أحد تلامذته الذين اهتموا اهتمامًا خاصًا بالأدب الفلسطيني. وقد أصدر سوميخ كتابًا عن الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود وكتابًا آخر عن إميل حبيبي، وكتابًا ثالثًا باسم «المدار الصعب: رحلة القصة الفلسطينية في إسرائيل.«

ولا بدّ أن نذكر للبروفسور سوميخ جديته وموضوعيته في دراسة الأدب الفلسطيني، وكذلك معالجته لموضوعه عن حبّ للأدب العربي لا من منطلق التعالي على هذا الأدب أو التعامل معه كشهادة سياسية . اجتماعية فحسب، وتحتل جامعة تل أبيب اليوم مكان الصدارة في دراسته هذا الأدب، وإذ

---

30 راجع: مجلة "الكرمل في اللغة والأدب. 1982 و1983 .

يدرّس فيها أساتذة عرب يفردون حصة لا يستهان بها لدراسة الأدب الفلسطيني. وفي كل سنة لا يخلو المنهج الدراسي من مساق أو عدة مساقات لدراسة هذا الأدب"[31].

لقد أخذت هذا المقتطف الطويل من مقال البروفيسور غنايم لأهميته في تشخيص العلاقة السليمة بين البروفيسور سوميخ والأدب الفلسطيني والأدباء الفلسطينيين والقائمة على الندية والتفاعل والحب الخالص للأدب العربي عموماً والفلسطيني والمصري على نحو خاص.

نشر الأستاذ ساسون سوميخ الكثير من الكتب الأدبية التي يمكن ذكر العديد منها فيما يلي:

"عالم نجيب محفوظ" و "دنيا يوسف إدريس"و لغة القصة عند يوسف إدريس، كما صدر له عن إسهامات الأدباء اليهود الأدبية والفكرية في مصر وكتاب آخر يستعيد فيه ذكرياته عن العراق، عراق الفكر والثقافة. ولد كتاب آخر عن الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود وآخر عن أميل حبيبي. ثم توج إنتاجه بكتاب يعتبر قمة في البحث الأدبي الأكاديمي يتطرق فيه إلى تطور لغة الأدب في المنجزات الأدبية الحديثة. 32
ترجم البروفيسور ساسون سوميخ الكثير من الشعر لشعراء عرب منهم الشاعر الفلسطيني محمود درويش. جاء في مقال كتبته مايا جاغي عن سيرة حياة محمود درويش ورد النص التالي المأخوذ عن سوميخ حول العلاقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين في شعر محمود درويش :
"وعند ساسون سوميخ, الباحث الإسرائيلي في الأدب العربي في جامعة تل أبيب والذي عرف درويش في ستينات القرن العشرين ويترجم القصيدة إلى العبرية " تهدف القصيدة إلى الحوار: إنها لا تتكلم عن الإسرائيليين كمجرمين, بل تقول : لم لا يفهمون ؟ لا معنى للقول أن هذا الرجل يكرهنا".[33] وهذا الموقف يجسد الفكر الإنساني الذي يحمله ويتمتع به الأستاذ ساسون سوميخ.

---

[31] غنائم، محمود د. "من إعرف عدوك ..إلى البحث الاستشراقي"، جريدة الشرق الأوسط العدد 8316 بتاريخ 2001/9/4، والدكتور محمود غنايم باحث فلسطيني يقيم في مدينة باقة الغربية في المثلث، أستاذ الأدب العربي في جامعة تل أبيب.

[32] بولس، حبيب د. ساسون سوميخ ، عريس جائزة إسرائيل في مجال الدراسات الشرقية، لسنة 2005– الناصرة.

[33] المصدر : الغارديان البريطانية 8 حزيران 2002. الكاتبة مايا جاغي وترجمة غازي مسعود. الدستور الأردنية، 28 حزيران/ يونيو 2002

خصائص هذا الكتاب

الذكريات التي كتب عنها ساسون سوميخ والتي يتراوح عمرها بين 65-75 عاماً تشعرك بحيوية الكاتب وطراوة الذكريات التي يتحدث عنها واعتزازه بها، ففي هذه الفترة بالذات تكونت في واقع الحال شخصية الأستاذ سوميخ الأديب الشاعر والكاتب والباحث والأكاديمي المميز والمترجم والناقد الأدبي الكبير وتكاملت عبر العقود المنصرمة بمعارف جمة وتراكم خبرات هائلة وجهود دؤوبة لم تعرف الكلل أو الملل.

يقدم الكاتب في كتاب لا تتجاوز صفحاته 160 صفحة (عدا الصور الأرشيفية) معلومات تحليلية غنية جداً عن حياة يهود الطبقة الوسطى العراقية، عن حياتها اليومية وعلاقاتها وزواجها والمشكلات التي تحيط بها ودورها، وعن حياة أطفال تلك العائلات ودراستهم والأجواء المحيطة بهم. إنه تكثيف رائع لمن يرغب في الحصول عن حياة الطبقة الوسطى بالعراق في الأربعينات من القرن العشرين. فالكتاب يعتبر وثيقة تاريخية مهمة جداً عن حياة الطبقة الوسطى من يهود العراق، ولكنها تنقل أيضاً لوحة قاتمة عن حالة اليهود والمسلمين الفقراء والمعوزين في مناطق سكن بائسة تؤكد التمايز الاجتماعي الطبقي في المجتمع العراقي عموماً وبين اليهود باعتبارهم جزءاً من هذا المجتمع.

وأهمية الكتاب تبرز في قدرة الكاتب في أن ينقل بعفوية عالية جداً وبلغة جميلة بالأصل إلى القارئ حياة المثقفين العراقيين في سنوات العقد الخامس التي تميزت بالتواضع والعلاقة الحميمة والرغبة في المساعدة لدى الشعراء والأدباء والأساتذة حينذاك لمن يحتاجها ويطلبها من التلاميذ والطلبة والتي يجدها مجسدة في شخصية أستاذه في ثانوية شماش الأديب اللبناني العراقي المعروف محمد شرارة والذي يكن له جل الاحترام والاعتزاز.

وأهمية الكتاب تقدم رؤية صادقة وموثقة في مصادر كثيرة أخرى بإن الغالبية العظمى من يهود العراق كانوا مخلصين جدا للوطن العراقي الذي عاش فيه أجدادهم منذ ما يزيد عن 25 قرناً، وإن هذه الوطنية الخالصة لا تقل حباً والتصاقاً بالمجتمع والعراق عن أتباع بقية الديانات والمذاهب بالعراق. ويمكن أن نجد مصداقية ذلك في ما كتبه في دفتره الامتحاني في وصف التغييرات التي طرأت على العراق منذ الحرب العالمية الأولى حتى أواخر الحرب العالمية الثانية، وكان متأثراً بفكر أستاذه وصديقه الحميم محمد شرارة حيث كتب ما يلي: "باشرت على الفور أكتب أشياء من روح محاضراته الثورية ، وأكثرت من استعمال تعابيره الماركسية. أتذكر أنني كتبت خلاصة حين فتحت كتاب "بغداد أمس" قرأت الإهداء الآتي الذي خصني به الأستاذ ساسون سوميخ "الأستاذ كاظم حبيب، من بغدادي إلى أخيه، محبتي واعتزازي، 2013/10/6". جملة مكثفة محملة بمشاعر الود والحنين إلى مدينة بغداد وأهليها وما فيها. حينها قررت الكتابة عن هذا الكتاب. ولكن انشغالي بإنجاز كتابي الموسوم "لمحات من عراق القرن العشرين" الذي صدر أخيراً بأربيل عن دار آراس، أعاقني عن البدء بإعادة قراءة الكتاب والكتابة عنه. وحين

عدت إليه قرأته أكثر من مرة وتمتعت به وأعادني إلى أجواء بغداد الحبيبة. وقبل البدء ببعض التفاصيل بودي أن أشير إلى بعض الانطباعات التي تشكلت في ذهني حال انتهائي منه.

تسويغاتي وتبريراتي، قائلاً: بأن العراق لم يحظ أبداً بالاستقلال، لأن الاستعمار البريطاني قد تعامل مع العراق كمستوطنة له، رغم المؤشرات الخارجية للاستقلال السياسي، وأضفت والآن تبدأ مرحلة كبت مرير آخر، يتمثل بتأثير الاستعمار الأمريكي" وأضاف في كتابه ما يلي: "من كان يتخيل في تلك الأيام احتلالَ أميركياً للعراق، كما حدث فعلاً في عام 2003).

وعند قراءة استهلال الكتاب تواجه القارئ أفكار جوهرية تعبر عن مدى التصاق يهود العراق حين كانوا بالعراق بوادي الرافدين، ببلاد ما بين النهرين، كما إن الكثير منهم ما يزال يمتلك الزخم نفسه حتى الآن في تتبعه لأحداث شعب العراق رغم افتراقه عنه أكثر من ستة عقود. فيهود العراق كانوا "يفتخرون ويتباهون، كما يقول سوميخ، بأقدميتهم في بلاد الرافدين"، فهم قد عاشوا على هذه الأرض الطيبة أكثر من 2500 سنة وسبقوا العرب إليها. كما إنهم يفتخرون لما أنجزوه أو شاركوا في إنجازه، سواء أكان في الجوانب الدينية أو الثقافية العامة وفي ما حمله يهود العراق من ثقافية رافيدينية صوب بلدان العالم الغربي والشرقي. ولا شك في أن يهود العراق لهم الحق الكامل بالافتخار بأنهم أول من أدخل المدارس الحديثة إلى العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومن بين هؤلاء تبلورت تدريجياً الاتجاهات المدنية والعلمانية في حياة المجتمع العراقي، إضافة إلى دور المسيحيين في هذا الصدد.

إن من تبقى من المجموعة الكبيرة من يهود العراق التي أجبرت على الهجرة وانتقلت إلى إسرائيل أو الدول الأوروبية والولايات المتحدة وكندا ما زالت ترتبط روحياً وثقافيا بالعراق وثقافة العراق والناس بالعراق وتتأثر بأحداثه. فعلى سبيل المثال لا الحصر يشير الأستاذ سوميخ إلى ما يلي:

" أنشأت مجموعة مثقفين إسرائيليين من أصل عراقي عام 1994 تقريباً جمعية جديدة تهدف إلى استعادة استذكار الماضي العراقي ليهود بغداد وعلى الأخص حياتهم إلى جوار جيرانهم المسلمين والقيام بذلك على قدر الإمكان، دون التأثر بالنزاع العربي الإسرائيلي". (ص 10).

يتحدث ساسون في هذا الكتاب عن شعبه العراقي، الذي عاش في أحضانه حتى بلوغه السابعة عشرة سنة، بلغة كلها حب وتقدير وتعبير عن إدراك حقيقي لطبيعة هذا الشعب ومشكلاته وطموحاته ولا يحمّل هذا الشعب بغالبيته مسؤولية تهجير اليهود أو هجرتهم الجماعية بعد صدور قانون إسقاط الجنسية عن اليهود، بل يحمل جهات أخرى مثل هذه المسؤولية. وقد أشرت إليها في كتابي عن يهود العراق والتي لا اعتقد أنه يختلف فيها معي في هذا الصدد والتي لخصتها بثلاث قوى تتحمل هذه المسؤولية: هي الحكومة العراقية والقوى القومية الشوفينية المتعصبة، والحكومة الإسرائيلية والحركة الصهيونية والموساد الإسرائيلي والحكومة البريطانية والدور النشط لسفارتها ببغداد، إضافة إلى دعم مباشر من جانب الولايات المتحدة. إن الكتاب يسجل ذكريات الصبي ساسون سوميخ وتتركز تقريباً بين

سن العاشرة ومغادرة العراق، وهي غزيرة بمضامينها الديمقراطية والاجتماعية ذات الخلفية السياسية غير المعبأة بالحزبية أو بأيديولوجية محددة.

لقد كان يهود العراق مندمجين بالمجتمع العراقي، فهم يعيشون مع مسلمين ومسيحيين وأتباع ديانات أخرى ويعملون معهم ويسكنون في مناطق مختلطة، إذ لم تعرف بغداد أو المدن الكبيرة الأخرى حيثما وجد اليهود العراقيين "غيتوات" خاصة بهم، كما كان الحال في أغلب الدول الأوروبية. لقد كانوا يعيشون بصورة مشتركة، وكان الإنسان يجد في منطقة الشورجة ثلاث دور للعبادة: مسجد للمسلمين وكنيس لليهود وكنيسة للمسيحيين، وكانت تشكل أركاناً ثلاثة لأكبر الديانات من حيث العدد بالعراق. وكان للصابئة والإيزيديين وغيرهم دور عبادتهم أيضاً ومراقد أوليائهم الصالحين. وعلينا أن ننتبه إلى إن هذه الظاهرة الإيجابية كانت لا تعني أنه لم يكن بالعراق تمييز ديني أو طائفي ينطلق من الفئات الحاكمة ومن بعض شيوخ الدين، ولكنها كانت محدودة ولا تتحرك إلا بفعل الحكام أو بعض الأوغاد الذين يجدون في القومية أو الدين مرتعاً خصباً لمعاداة الآخرين. ونجد في كتاب "بغداد أمس" ما يؤكد على الحياة المشتركة إذ كتب سوميخ يقول:

"ويهمني أساساً أن أوجه القراء إلى تأمل تاريخ المعاصر ليهود العراق من خلال رؤية مستفيضة، أي ليس من خلال كون هذه الجماعة مجموعة بشرية منطوية على نفسها، منفصمة عمّا يجري في الدنيا, زاهدة عن التواصل مع جموع المسلمين والمسيحيين في البيئة التي تعيش فيها". (ص 11) ونجد مصداق ذلك في فصول الكتاب والعلاقة بين المثقفين من أتباع الديانات كافة.

ومن الجدير بالإشارة إلى إن المتعلمين والمثقفين من يهود العراق والمتحدثين بأكثر من لغة أجنبية، إلى جانب العربية، ونتيجة لعلاقاتهم الواسعة بأوروبا ودول الشرق الأخرى، ومع القوات البريطانية والإدارة البريطانية إلى العراق وتشكيل الدولة العراقية في العام 1921 نشأت بفترة مبكرة النواة الجديدة بين يهود العراق قبل غيرهم للبرجوازية المتوسط العاملة إلى ثلاثة في مجالات أساسية في الإدارة وفي التجارة والبنوك والثقافة والتي أصبحت حاملة للرؤية المدنية والعلمانية للدولة والمجتمع. وقد التحقت بها ذات الجماعات من أتباع الديانات الأخرى، وخاصة المسيحيين والمسلمين.

قراءة في كتاب "بغداد أمس"

يشتمل الكتاب على استهلال و25 فصلاً يستند كاتبها البروفيسور ساسون سوميخ على ذكرياته التي ما تزال حية طرية شاخصة أمام ناظريه بكل أحداثها وأبعادها ونتائجها أو عواقبها، كما تضع القارئ والقارئة في أجواء العقد الخامس من القرن العشرين، أجواء الأربعينات التي تميزت بالحركة والتطور السريع للبنات الأولية لبناء المجتمع المدني العراقي الجديد. إن ما يختزنه من ذكريات يعود لهذه الفترة

بالذات وما وصل إليه عبر عائلته أو المحيط الذي تحرك فيه وتعامل معه والشخصيات التي أثرت فيه وتفاعلت معه إن ما يقدمه لنا في هذا الكتاب الكثيف يعتبر لوحة صادقة ومعبرة وصافية عن العراق الملكي، العراق الذي لم يهرب هو منه، بل أُجبر على مغادرته حين سدّت أبواب المستقبل بوجهه ووجه الكثير من شباب وشابات اليهود العراقيين في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن العشرين حيث ترك العراق في تلك الفترة بشكل خاص ما يزيد عن 120 ألف عراقي من أتباع الدين اليهودي وقبل ذاك وبعد ذاك أنتقل إلى فلسطين أو إلى إسرائيل بعد 1948 أو إلى أوروبا والولايات المتحدة ما يتراوح بين 20–30 ألف مواطنة ومواطن عراقي يهودي الدين. لقد صدرت قرارات من الحكومة العراقية بمنع قبول خريجي المدارس الثانوية في الكليات والمعاهد العراقية في جميع أنحاء العراق: كما منعوا من التوظيف في الدوائر والمؤسسات الحكومية وفصل أو أحيل على التقاعد من كان ما يزال يعمل فيه، ثم أصبح العمل في القطاع الخاص صعباً للغاية لأغلب يهود العراق. وكانت هذه القرارات الظالمة والسيئة هي من بين الأسباب الرئيسية، إضافة إلى قانون إسقاط الجنسية السيئ الصيت، إلى هجرة اليهود، وخاصة الشبيبة منهم في البداية ومن ثم الهجرة الجماعية. لقد كان هناك موقف واضح لدى الحكومتين البريطانية والإسرائيلية بضرورة تهجير يهود الدول العربية كافة إلى إسرائيل والتي أقرتها الحكومة الملكية العراقية في حينها وعملت هذه الدول وحكوماتها على تنفيذ القرار وبإصرار عجيب. ومن يطالع الصحافة العراقية القريبة من الحكومة العراقية والقوى القومية اليمينية المتشددة حينذاك، والصحف العربية، وخاصة في نهاية الأربعينات وفي أعقاب تأسيس الدولة الإسرائيلية وحرب العام 1948 حتى وفي العامين 1950 و1951، ومنها الصحف التالية: " النبأ، الأمة، الحصون، اليقظة، الأخبار، لواء الاستقلال، الزمان، الحوادث، الدفة، النهار، الفخ والآراء." 34 ، سيجد إنها كانت مليئة بمقالات وإعلانات لكتاب معروفين بالهجوم العنصري والمناهض ليهود العراق والتي كانت تؤلب الرأي العام العراقي ضد اليهود وتدعو إلى عزلهم ومقاطعتهم وكأن يهود العراق هم المسؤولين عما حصل في فلسطين من تقسيم وإقامة الدولة الإسرائيلية على وفق القرار الصادر عن مجلس الأمن والأمم المتحدة في العام 1947 وتنفيذه في العام 1048 وبدء الحرب العربية الإسرائيلية.

في الفصول الأربعة الأولى يتحدث سوميخ عن فترة الصبا والعائلة وزواج العم عزرا ويتجاوز الطفولة، ولكن لم ينس حبه الأول وهو ما يزال طفلاً صغيراً. وهي إشارة جميلة إلى إن الحب يبقى الهاجس الأساسي لدى الإنسان والذي يصل إلى الطفل بصورة عفوية وطبيعية مع حب وحليب الأم. ويتذكر ساسون حين كان يتمدد في سريره على سطح الدار كيف كان يتطلع بإعجاب ودهشة بالغة وانتعاش

---

[34] Iraqi Jewish Archive. IJA Number: 2746. Arabic Newspaper Clippings Regarding Jews Emigrating from Iraq.

كبير وتساؤلات كثيرة دون إجابات يسمح بها العمر والمعرفة والخبرة إلى سماء بغداد الصافية المفروشة بملايين النجوم المتلألئة المضيئة، وهي تبعث الطمأنينة في نفسه وتنشط الخيال. وحين يشير بشكل عفوي إلى الناموسية التي كانت تستخدمها العائلة على سطح الدار يتعرف الإنسان على إن العائلة متعلمة ومتوسطة الحال وقادرة على شراء واستخدام الناموسية للخلاص من البق الذي لا يرحم في لسعاته الشديدة وامتصاصه دم العراقيين. وقد قال "أبو إسحاق الصابي" في وصف ليلة شديدة الحرارة وكثيرة البق فيقول:

وليلة لم أذق من حرها وسناً كأن في جوها النيران تشتعل
أحاط بي عسكر للبق ذو لجب ما فيه إلا شجاع فاتك بطل
من كل شائلة الخرطوم طاعنة لا تحجب السجف مسراها ولا الكلل
طافوا علينا وحر الصيف يطبخنا حتى إذا نضجت أجسادنا أكلوا

وكان ساسون الصبي وهو ينظر إلى السماء والنجوم تدور في ذهنه الكثير من الأسئلة حيث كتب يقول: "من الطبيعي، أن تدور في دماغي الصغير، في تلك الليالي، وأنا داخل الناموسية تساؤلات "وجودية" مَن الذي خلق هذه الأشياء؟ متى وكيف؟ كان من الواضح لي، آنذاك، إن ما جاء في سفر التكوين ...غير "منطقي" وغير "علمي". ويبدو إن ساسون قد احتفظ بهذه الأفكار لنفسه، في حين بادرت إلى السؤال عن هذه الحالة على النحو التالي:

حين كنت في الصف الرابع الابتدائي سجلت في "المدرسة الإرسالية الإنكليزية السورية" ببيروت. وكنت أسكن مع أخي في شقة مقابلة لساعة الجامعة الأمريكية ببيروت حيث كان أخي يبدرس الطب هنا. في البيت كنت أصلي صلاة المسلمين، وفي المدرسة كنا نصلي جماعياً وعلى أنغام البيانو صلاة المسيحيين وكنت أدعو معهم، وهي ما تزال في الذاكرة كما في الذاكرة صلاة المسلمين: "أبانا الذي في السموات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك. كما في السماء كذلك على الأرض. خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم. وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا في تجربة. لكن نجنا من الشرير. بالمسيح يسوع ربنا لأن لكَ الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين.". وقد فكرت وأنا الصغير في هذا التباين في أسلوب الصلاة وأسبابه ولماذا نصلي ولمن. فسألت أخي مرة: هل هناك رب أو ألله؟ فكان قد حصدت صفعة ليست قوية ولكنها كانت كافية لتسكتني في تلك اللحظة. ولكن لم يخل السؤال عن بالي. وحين عدت إلى العراق أتذكر أني كتبت قصة قصيرة وأنا في الصف الخامس الابتدائي تحوم حول الموضوع ذاته وفيها نكران لوجود الله, رغم صلاتي اليومية وقراءتي للقرآن الذي ختمته عشرات المرات في أشهر رمضان، وإلا لكان عليه أن لا يكون بين الناس فقيراً أو مريضاً، إذ كان لنا بعض

الجيران المرضى والفقراء وكان ذلك ينغصني كثيراً. وأتذكر أني حرقت تلك القصة خشية أن تقع في يد عائلتي وأتقلى علقة أو "بسطة" عراقية. وذاك التساؤل هو الذي جعل مني ما أنا عليه الآن مع احترامي الكامل لأتباع كل الديانات والمذاهب ودفاعي عن حقهم في العبادة وفي اختيار الدين الذي يجدون فيه ضالتهم.

ويشارك سوميخ كل يهود بغداد، سواء من يعيش في إسرائيل أم في بلدان أخرى، في حنينهم لبغداد ونهر دجلة والسباحة فيه وشارع أبو نواس والليالي المقمرة والسمك المزگوف، ولكن ليس كلهم يستطيع أن يصف جلسة المزكوف العراقية بامتياز وعمل رجل الموقد حيث كتب يقول: "كنا نصل إلى إحدى الزوايا الهادئة لهذه الأرض البتول بالبلم، وكنا نجلب معنا للترفيه بالإضافة إلى آلات العزف (أو الغرامافون)، الأسماك الكبيرة من نوع "الشبوط" التي تعد من أفخر وأجود اسماك نهر دجلة . كنا نشعل الموقد بالأخشاب الصغيرة التي كنا نعدها مسبقاً. كان رجل الموقد المتخصص في شواء الأسماك على الموقد، يعدها للشواء المكشوف بعد تعليقها على اسياخ تحيط بالنار المتقدمة. بعد ذلك كان ينّزل السمك عن النار ويتبلها بأنواع البهارات المختلفة (على الأخص الكاري الهندي) وشرائح الطماطم. كنا نهش ونبش وتنبسط أساريرنا في انتظار السمك الذي كان شواؤه في مراحل النضوج ... وحين كانت تتناهى إلى خياشيمنا روائح خليط البهارات ، كنا ندرك إن ساعة الاحتفال قد دنت". (ص 32).

وإذا كان الكثير من الصبية في مثل عمر ساسون حينذاك يهتمون باللعب والرياضة وأشياء مسلية أخرى، كانت سلوى الصبي ساسون القراءة واقتناء الكتب من مصروف جيبه اليومي المحدود أو إجراء الاختبارات الكيماوية التي كف عنها بعد إحداثه انفجاراً في البيت كان يمكن أن يورطه مع التحقيقات الجنائية العراقية التي كانت حين ذاك تشك بكل يهودي عراقي وكأنه صهيوني وعدو للعراق، وكانت على خطأ فاحش.

لقد عشق الكتاب، وخاصة الكتاب الأدبي نثراً وشعراً، وراح يبحث عنه وعن الكتاب والشعراء، فكان له العون في مدرسة شماش الثانوية التي عينت أساتذة عرب مسلمين يدرسون فيها اللغة العربية والأدب العربي والأحوال المدنية، ومن بينهم بشكل خاص الأستاذ محمد شرارة وحسين مروة، وهما لبنانيان جاءا إلى العراق ليدرسا في الحوزة الدينية في النجف وتحولا إلى صف اليسار العراقي، وهما كاتبان وأديبان متميزان. نشأت صداقة حميمة بين سوميخ وشرارة استمرت روحياً رغم انقطاعها الفعلي، وتواصلت مع بنات شرارة في الخارج. لقد كانت لقاءاته في مقهى حسن العجمي بصحبة الأستاذ شرارة ذات أهمية في تطوره الفكري والأدبي والتصاقه المبكر بالفكر اليسار، ومنها لقاءاته بشاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري الذي كتب عن ذلك يقول:

"بعد انتهاء اليوم الدراسي، استجمعت قواي، وذهبت مع الأستاذ شرارة إلى مقهى حسن العجمي. كان الشاعر يجلس وحيداً يدّخن ويشرب الشاي"الكسكين". كنت مرتبكاً ومتوجساً. لم أعد أتذكر اليوم فحوى محادثتنا وما دار فيها، سوى أني أتذكر أن الموضوع "اليهودي" قد أثير في هذه الجلسة. حكى لنا

الجواهري، كيف وجد نفسه في عام 1937 بين قضبان السجن بسبب دفاعه عن فقراء الجالية اليهودية"، (ص 136). ثم يسرد سوميخ الحكاية ويذكر الأبيات الأتية ضمن قصيدة كتبها الجواهري بعد توقيفه بتهمة "زرع الفتنة الطائفية" وهو بعيد عنها كل البعد بعد خروجه من السجن في حينها:

يا عابثاً بسلامة الوطن العزيز وبالأماني
ومفــرقاً زمــر اليـهـود كــلا لــشان
ما أنت والكاشير والطاريف من بقرٍ وضان

ثم يقول: "أثار بي اللقاء مع الجواهري شهيتي الأدبية، كما أدى الدفء الإنساني الذي طوقني به، إلى أن أغوص عميقاً في قراءة الأدب العربي، وعلى الأخص الشعر، وصرت أتخيل نفسي شاعراً." (ص 136). وبالمناسبة فقد كانت لي علاقات حميمة مع الشاعر الجواهري وأهداني قصيدة جميلة "إلى أبي سامر" من 31 بيتاً شعرياً ضمن ما يطلق عليه بـ "الإخوانيات" في العام 1987، وقد نشرها الصديق الفقيد الدكتور محمد حسين الأعرجي في كتابه الموسوم "الجواهري دراسة ووثائق" الصادر عن دار المدى 2002. وجاء في البيت الأول قوله:[35]

يا أبا سامرٍ ، وأنت حبيبٌ تتخطى الأحبابَ والأسمارا
لكَ مني شوقٌ يدغدغُ نفسي كنسيمٍ يُدغدغُ الأسحارا

لقد كان محمد شرارة الشخصية التي ساعدت سوميخ للوصول إلى أبرز الشعراء والأدباء وأصحاب الصحف المحلية في تلك الفترة وكتابها، وبشكل خاص الجواهري والسياب وحسين مروة ومحمد حسن الصوري وغيرهم. وكان لهذا الأثر الكبير والأساسي في البدء الفعلي لنشوء الشخصية الأدبية الكبيرة ساسون سوميخ الذي أعتز بصداقته الجديدة.

يستحث الأستاذ محمد شرارة هذا التبجيل الكبير الذي يكنه له صديقه المبكر ساسون سوميخ، فهو إنسان جليل وكاتب وأديب مرموق نشر العديد من الكتب والمقالات ذات الأهمية الفائقة في حياة ونضال الشعب العراقي وعلى امتداد عشرات السنين. لقد التقيت بالأستاذ محمد شرارة في بيت ابنته حياة شرارة وزوجها الصديق الدكتور محمد صالح سميسم. لقد دعيت على وجبة غذاء في بيتهم وقد كان ذلك بعد إطلاق سراحي من مديرية الأمن العامة ببغداد وبعد تعذيب كاد يودي بحياتي في حينها. وقد استقبلت بحفاوة اعتز بها كثيراً وتحدثنا عن الوضع العام بالعراق والعواقب الوخيمة لاستمرار ذلك. وكان الأحبة الثلاثة وأنا معهم قد اتفقنا على إن على الحزب الشيوعي العراقي أن يترك الجبهة مع البعث لأن البعث يمارس التعذيب والقتل بحق الشيوعيين واليساريين ويحاول أن يتستر بالجبهة القائمة. ومن المحزن

---

35 الأعرجي، محمد حسين د. الجواهري دراسة ووثائق. دار المدى للثقافة والنشر. ط أولى، دمشق، 2002. ص 473-476.

تأكيد واقع أن الرفيق العزيز محمد صالح قد استشهد على أيدي البعثيين الأوباش مسمّماً ومات بعد أن أطلق سراحه بفترة قصيرة في العام 1982 وكنت قد غادرت العراق بطلب من المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. ولقد سبق استشهاد الدكتور الطبيب محمد صالح سميسم وفاة الأستاذ محمد شرارة في العام 1979. وفي أول آب من عام 1997 وقع انفجار في بيت حياة شرارة استشهدت على أثره حياة وابنتها الكبرى مها ونجت البنت الصغيرة زينب. وتشير بعض المعلومات إلى إن البعث هو الذي دبر هذه الجريمة النكراء.[36]

يتحدث ساسون سوميخ في هذا الكتاب عن مسألتين مهمتين باتجاهين مختلفين في العقد الخامس من القرن العشرين تحت عنوان مشترك "بين الفرهود والوثبة" وهما حدثان وقعا في العام 1941 و1948 على التوالي. وقد عشت الأولى ببغداد وأنا صبي صغير لا يتجاوز السادسة من عمره، شاركت في الثانية وأنا بعمر الثالثة عشر في كربلاء دون أن أعي تماماً أهمية الحدث. كتب عن الحدث المأساوي الأول يقول:

"لقد انهار النظام القصير الأمد المحابي للنازية, وفرّ قادته ليجد الكثير منهم ملاذاً خارج العراق. في حين تلكأ الجيش الإنجليزي وولي العرش العراقي في فرض سيطرتهم على العاصمة العراقية من جديد. في تلك الأيام التي خلت فيها المدينة من سيطرة النظام والقانون، عاثت جماهير المشاغبين فساداً وفوضى وكان معظمهم من أبناء القبائل البدوية الذين توطنوا في ضواحي المدينة، فنهبوا وقتلوا دون تمييز في الأحياء اليهودية، خاصة الأحياء القديمة والفقيرة، وقد انضم إلى المشاغبين بعض الجنود الفقراء، بعد أن تشتت وحداتهم وتفرق شملها. ومن حسن الحظ أن المشاغبين لم يصلوا إلى معظم الأحياء الجديدة التي شيدت في الثلاثينات والأربعينات وسكن فيها عشرات الآلاف من يهود المدينة". (ص 106) ثم كتب ما يلي: تدفقت الأنباء عن أعمال النهب والقتل والاغتصاب، في أوساط يهود بغداد. لقد ذبح المشاغبون الكثير من اليهود (حوالي 150 شخصاً) دُفنوا فيما بعد في قبر جماعي، وهكذا ظلت تتوارد، على مدى شهرين، أخبار الفظائع الرهيبة وأعمال التنكيل وعبث المشاغبين والقتل بالدم البارد، واغتصاب الفتيات اللائي أحاق بهن الويل والدمار." (ص 107/106) وللحقيقة نقول بأن هناك تبايناً في عواقب تلك الفاجعة. فالتحقيق الخاص الذي قامت به رئاسة الطائفة اليهودية توصل إلى ما يلي: "كان عدد اليهود الذين قتلوا 179 قتيلاً، كما جرح 2118 شخصاً آخر، وبلغ عدد الدور التي نهبت في الفرهود حوالي 1000 دار، وعدد الحوانيت التي أفرغت 2500 حانوت، كما بلغ عدد

---

36 الحزب الشيوعي العراق. الرحيل المر في آب. مجلة صوت العمال, بغداد. 16 آب/أغسطس 2012 .

اليهود الذين مسهم الضرر في قليل أو كثير 40 ألف يهودي"[37]، في حين سعى التقرير الحكومي الرسمي إلى تقليص عدد القتلى إلى 120 قتيلاً فقط.

ويشير الأستاذ سوميخ إلى العواقب النفسية والاجتماعية على يهود العراق، خاصة وأن الفرهود قد وقع بالبصرة أيضاً دون وقوع قتلى وجرحى في الأوساط اليهودية، بما يلي:

"حلت على جميع أبناء جالية بغداد صدمة عنيفة، بمن فيهم أولئك الذين لم ينلهم الأذى خلال فواجع "الفرهود" وويلاته (هكذا سمى سكان بغداد هذا الحدث الأليم ولا أدري لماذا) وقد دهمتهم الأحداث وباتوا مفجوعين مشدوهين. ترى كيف حدث أن انقلب جيران الأمس إلى وحوش ضارية؟ وهل الفرهود سيبقى حدثاً طارئاً. لن يتكرر أبدا؟ أم أنه سيكون فاتحة لعصر جديد مثير للمتاعب، في العلاقات بين المسلمين واليهود في بلاد الرافدين؟ (ص 107). ثم يواصل فيكتب:

"تجدر هنا الإشارة أن الكثير من المسلمين القاطنين في جوار اليهود في المناطق القديمة من بغداد قد دافعوا عن اليهود، ولم يترددوا في منحهم الحماية والملاذ، رغم المخاطر التي تعرضوا لها من جراء ذلك. ورغم كل هذا، قل وتضاءل الشعور بالأمن الذاتي، الذي رافق يهود بغداد". (ص 107).

هنا بودي أن أشير إلى بعض الملاحظات المهمة بعد دراستي المستفيضة والمستمرة لأحداث فاجعة وجريمة الفرهود ببغداد، وأخف من ذلك بالبصرة.

1. لقد قاد حزب الشعب، الذي تأسس في العام 1940 ببغداد برئاسة مفتي الديار الفلسطينية الحاج أمين الحسيني، ومعه رشيد عالي الگيلاني والعقداء الأربعة ويونس بحري، الذي سمى نفسه حزبياً "فرهود"، الانقلاب على الشرعية حينذاك وشكل حكومة الإنقاذ الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني دوراً كبيراً في تأجيج الدعاية ضد يهود العراق واليهود عموماً. كما لعبت العلاقات التي بدأت قبل ذاك ومنذ منتصف العقد الرابع بين القوى القومية العراقية، وخاصة نادي المثنى بن حارثة الشيباني الذي تأسس في العام 1936 ببغداد، وبين النظام النازي الهتلري دوراً كبيراً في نشر الدعاية المضادة لليهود بالعراق وخاصة ببغداد، ولعب الدكتور فرتز غروبا, الوزير الألماني المفوض ببغداد دوراً كبيراً في تطوير هذه العلاقة وفي تبادل الوفود الشبابية وفي إلقاء المحاضرات في النادي، كما لعبت إذاعة برلين (هنا برلين حيّ العرب) والمذيع الضابط النازي العضو في قوات الـ SS يونس بحري (Johannes Bahri) دعايته المضادة لليهود، إضافة إلى دور حكومة رشيد عالي الگيلاني والعقداء الأربعة ويونس السبعاوي الذي ترجم كتاب هتلر المعروف "كفاحي" إلى العربية، وكان وزيراً للاقتصاد وشكل

---

37 معلم ساسون،عزت. على ضفاف الفرات، ذكريات أيام مضت وانقضت. دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر. شفا عمرو. 1980. ص 158. يشير السيد أنور شاؤل، نقلاً عن الباحث الأستاذ إبراهيم توينا في الجزء السادس من كتابه "يهود بابل" إلى أن عدد المنكوبين بلغ 584،48 شخصاً. راجع: شاؤول،إبراهيم. قصة حياتي.. . مصدر سابق،ص 247.

ثلاث منظمات شبابية شبه عسكرية، بضمنها "فدائيو يونس السبعاوي. وقد طرحت في كتابي في النسخة التي ستطبع في ربيع هذا العام عن محنة يهود العراق ما يلي:

1. وقعت في يومي الأول والثاني من حزيران عام 1941 القوى الشوفينية المتطرفة ذات العلاقة الوثيقة بقوى حركة رشيد عالي الگيلاني المناهضة لليهود حملات عدوانية شرسة منظمة وواعية وهادفة ضد المواطنات والمواطنين اليهود ببغداد تميزت بالعنف والشراسة واستخدام مختلف الأسلحة الخفيفة والجارحة تساندها جمهرة غبية وغير واعية وجاهلة من الأوساط الشعبيةً ومن الرعاع الذين يتحينون أية فرصة للمشاركة في النهب والسلب والقتل الذي حفل به تاريخ العراق القديم والحديث، التي حركتها تلك القوى المنظمة سياسياً، وعصابات الجريمة والنهب والسلب. أي تلك القوى التي تأثرت كثيرا بالدعاية النازية والفاشية بالعراق والموجهة لمعاداة اليهود والتي أصيبت بخيبة أمل نتيجة انهيار الانقلاب العسكري وعودة قوات الاحتلال البريطانية للسيطرة الكاملة على العراق وتوقيع العراق على اتفاقية الهدنة التي اعتبرها القوميون الشوفينيون العرب مذلة للجيش العراقي والعراق. أطلق على هذه الحملة بـ "فاجعة الفرهود"[38]. وكان المشاركون في حملات العنف هذه، التي اقترنت بعمليات السلب والنهب والقتل والتدمير ضد العائلات اليهودية وبيوتها ومحلات عملها ومصالحها الاقتصادية ببغداد، يهزجون في شوارع بغداد:

"حلو الفرهود كون أيصير يومية"

" حلو الفرهود كون ايصير يا خاله"

" أذاني أطرشت من كسر القفاله"

" حلو الفرهود كون أيصير يا عمه"

---

38 تشير أغلب الدراسات التي تحت تصرفنا إلى أن عدداً كبيراً من اليهود كان قد خرج لاستقبال عبد الإله عند عودته إلى بغداد. وقد صادف ذلك اليوم عيد النبي يشوع. وكان اليهود فرحين مستبشرين بعودة الوصي. وقد أثار هذا الموقف غضب الجماهير التي كانت ترى في اليهود حلفاء لبريطانيا. وبالتالي توجهت بعمليات العنف ضدهم. ولكن التحرك ضد اليهود كان قد بدأ قبل عودة عبد الإله إلى بغداد وخروج اليهود فرحين لاستقباله. فالمذكرة التي قدمها فهد إلى رئيس الوزراء حينذاك، رشيد عالي الگيلاني، تتضمن احتجاجاً ضد أعمال العنف والاعتداء التي توجهت ضد اليهود خلال تلك الفترة مؤكدا أهمية عدم التمييز في المعاملة إزاء اليهود. إن فرحة جماعات من اليهود بعودة عبد الإله إلى بغداد ربما جاءت نتيجة خشيتهم من استمرار الاعتداءات عليهم من جانب القوى القومية الشوفينية، وهي ليست السبب في الاعتداء الذي وقع عليهم، بل بسبب العداء الذي روجت له الدعاية النازية بالعراق وفي مناطق أخرى من العالم ضد اليهود، وبسبب النشاط الصهيوني ضد العرب في فلسطين. لقد برهنت كثرة من القوى والجماعات القومية العربية أثناء وجودها على رأس السلطة أو في ممارساتها السياسية وكتاباتها أنها معادية لليهود، وليس للصهيونية فقط. وفي المقابل تتخذ القوى الصهيونية بإسرائيل مواقف مماثلة للقوميين الشوفينيين العرب، فهي لا تميز بين العرب وبين أولئك الذين يمارسون التمييز ضد اليهود، بل هناك نزعة عنصرية غالبة في الحركة الصهيونية مناهضة للعرب، الذين هم أيضاً من أصل سامي.

" أنظر على الشباب اشلون ملتمه".

هذه الأهزوجة باللهجة العراقية العامية تعني: (حلوة هي عمليات السلب والنهب والقتل وإشعال الحرائق ضد اليهود عساها أن تتكرر يومياً، أذناي يا خالتي أصيبتا بالبكم من كثرة أصوات كسر أقفال المحلات والبيوت .. وأن عمليات النهب والسلب والقتل والتدمير حلوة يا عمتي، إذ أرى كيف أن الشباب يتجمعون لممارسة الفرهود أيضاً)!! إنها تعبر عن روح الشر والغزو البدوي الذي لا يرحم والكراهية الدينية المقيتة الناجمة عن تربية دينية مشوهة ومزيفة.

لم تكن جمهرة من الجنود وحدها وراء هذه العمليات الإجرامية فحسب، بل وجمهرة من الشرطة المسؤولة عن أمن المواطنات والمواطنين والمدنيين وبتأييد من بعض الضباط وبعض رجال السياسة من المعسكر القومي الشوفيني، إضافة إلى كتائب الشباب التابعة للحركة الانقلابية وأتباع يونس السبعاوي.

2. أتفق تماماً بأن عدد كبيراً من أهالي بغداد الذين عاشوا مع مواطنيهم يهود العراق قد دافعوا عنهم وسعوا إلى حمايتهم من غضب الرعاع حقاً. وهناك وثائق كثيرة تؤكد ذلك. ولكن كان هناك من خان الجيرة وشارك في عمليات النهب والسلب والاغتصاب والقتل. وكان ساسون على حق حين تساءل: "ترى كيف حدث أن انقلب جيران الأمس إلى وحوش ضارية؟ رغم إن البعض من الباحثين اليهود العراقيين بإسرائيل يعارضون ذلك، وأعتقد أنهم ليسوا على حق، فالكثير من الكتابات التي نشرت من قبل كتاب يهود عراقيين أشاروا بوضوح إلى حقيقة محاولة عائلات عراقية سعت واستطاعت حماية البعض من يهود العراق ممن تعرضوا إلى تلك الفاجعة المريع. كتب السيد مير بصري عن هذه الفاجعة وبهذا الصدد ما يلي: "كان الحاج طاهر محمد سليم من أشراف بغداد عائداً إلى داره المطلة على شارع غازي (الذي سمى بعدئذٍ شارع الكفاح) فرأى شباب يهود ينزلون من السيارات العامة ويذبحون ,فتجري دماؤهم البريئة على قارعة الطريق. أسرع في سيره ودخل مركز الشرطة وقال للشرطة: ألا ترون المذبحة أمامكم, فأين شهامتكم المسلكية وغيرتكم العربية؟ لكنهم سخروا منه وقالوا له: أذهب إلى دارك, أيها الحاج, فلا شأن لكَ في الأمر, وخرج يجر أذيال الخيبة, وحاول عبثاً ردع الرعاع, ولم يجد بداً من المضي إلى داره كئيباً." [39] وهذه الحقيقة المتواضعة لا تنفي الهمجية التي مارسها هؤلاء المجرمون بحق المواطنات والمواطنين اليهود في مذبحة الفرهود.

---

[39] بصري، مير. رحلة العمر: من ضفاف دجلة إلى وادي التّيمس، ذكريات وخواطر. منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق. مكتبة الدكتور داود سلمان. سالا. أورشليم–القدس. 1992. ص 59.

ووثبة كانون الثاني/يناير 1948 هي المسألة الثانية التي يتحدث عنها الأستاذ ساسون سوميخ، والتي نجمت عن محاولة بريطانيا عقد اتفاقية جديدة هي اتفاقية بورتسموث (نسبة على ميناء بورتسموث بانجلترا) لتحل محل معاهدة 1930 التي رفضها الشعب العراقي باستمرار في وقت كان صالح جبر رئيس وزراء العراق، وكانت الطبخة قد تمت بين الثلاثي عبد الإله ونوري السعيد وصالح جبر وبالتنسيق والتعاون الكاملين مع السفارة البريطانية وقادة القوات البريطانية في الحبانية والشعيبة. وقد استطاع الشعب بوحدته إسقاط هذه الاتفاقية ولكن لم يستطع إلغاء المعاهدة إلا بعد نجاح ثورة تموز 1958. وفي هذه الوثبة شارك يهود العراق، كبقية الموطنات والمواطنين من أتباع الديانات والمذاهب والقوميات والاتجاهات الفكرية والسياسية الأخرى في المظاهرات وتكللت بالنجاح. ويشير الأستاذ سوميخ بصواب كبير إلى وحدة الشعب العراقي حينذاك وعن الاحتفال الذي ألقى به الجواهري قصيدته الرائعة "أخي جعفر" في جامع الحيدرخانة، والذي شارك فيه طلاب مدرسة "شماش" حيث كتب: "وما زلت أذكر كيف استقبل منظمو الاحتفال طلاب مدرسة "شماش" اليهود وأنا من ضمنهم، بحفاوة بالغة، حتى إن المنظمين حاولوا إدخالنا إلى ساحة المسجد في الداخل، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك إثر الازدحام المذهل. لقد أرادوا أن يؤكدوا لنا ولغيرنا بأن اليهود أيضاً وطنيون عراقيون. وأنهم يفرقون بين اليهودية والصهيونية". (ص 111). وهنا أستطيع أن أجيب عن استفسار الأستاذ سوميخ حين كتب عن والديه يقول: "بين حين وآخر ، كلما انتابتني ذكريات تلك الأيام، صعوبة جمة في العثور على شرح مقنع، لحقيقة عدم تفكير والديّ في يوم من الأيام على مدى الأربعينات بالهجرة إلى الولايات المتحدة مثلاً." (ص 109). إن سبب عدم تفكير والديه بالهجرة إلى بلاد أخرى غير العراق يكمن في التصاقهما الشديد بأرض الأجداد والآباء منذ قرون وقرون، إنه وطن الولادة ومرابع الطفولة والصبا، بلد الحب الأول والزواج وولادة الأطفال والعمل والأصدقاء...، هذه وغيرها تجعل الإنسان لصيقاً بأرضه التي ولد فيها وشرب من مائها وعانى الحلو والمر فيها، إنهما وطنيان عراقيان بكل معنى الكلمة وليس غير ذلك.

كان الحزب الشيوعي العراقي، كما يشير إلى ذلك الأستاذ سوميخ بصواب كبير، هو الفاعل الكبير في وثبة كانون الثاني ومعه منظمة "عصبة مكافحة الصهيونية" بالرغم من منع نشاطها، إلى جانب مشاركة بقية القوى والأحزاب الوطنية، رغم مشاكسة وإساءة القوميين اليمينيين والشوفينيين العرب للشيوعيين واليساريين. ولهذا سعى حكام العراق للانتقام بوحشية كبيرة من الحزب الشيوعي لفشلهم في عقد الاتفاقية الجديدة فقرروا إعدام خمسة من قادة الحزب الشيوعي العراق، هم يوسف سلمان يوسف، السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي، وزكي بسيم وحسين محمد الشبيبي، عضوا المكتب السياسي للحزب، إضافة إلى يهودا صديق وساسون دلّال. وقد نفذ الحكم في الأربعة الأوائل في شباط من عام 1949 في حين أعدم الأخير في مايس/أيار من العام نفسه. وأتفق هنا تماماً مع الأستاذ سوميخ في إشارته إلى الظلم الذي أراد حنا بطاطو إلحاقه بـ "ساسون دلّال" حين ارتكب خطأً فادحا في إشارته غير

الموضوعية وكأن ساسون دلّال كان يعمل بدوافع صهيونية. وهنا يمكن الإشارة إلى ثلاث ملاحظات مهمة حول ساسون دلّال وهي:

- **لقد كان ساسون دلّال شاباً حيوياً وذكياً ومخلصاً حين وصل إلى قيادة الحزب نتيجة اعتقال عدد كبير من قادة الحزب الشيوعي العراقي وكوادره، وبالتالي كانت تجربته التنظيمية والقيادية محدودة.**
- **كان ساسون دلّال شاباً متحمساً ونشطاً وفعالاً في نضاله في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، ولكنه كان في الوقت نفسه ثورياً يتسم باليسارية، أو ما يطلق عليه بـ "مرض الطفولة اليساري" في ممارسة السياسة والتي تجلت في نداءاته التي كان يوجهها من خلال التنظيم لرفاق الحزب. ولم يكن الوحيد قد اتسم باليسارية حينذاك. ففي انتفاضة تشرين الثاني 1952 رفع المتظاهرون شعار "بس تأمر باسم العرش انشيلة", أي حالما يأمر بهاء الدين نوري، وكان في العام 1952 سكرتيراً للحزب وكان اسمه الحزبي حينذاك باسم, نطيح بالملكية أو بالعرش مثلاً**
- **وكان الخطأ الذي ارتكبه ساسون دلاّل يكمن في عدم انتباهه أو إدراكه السياسي الضروري لواقع "الجزر" الذي كانت تعاني منه الحركة اليسارية خصوصاً والحركة الوطنية العراقية بشكل عام حينذاك، وبالتالي كانت المظاهرات التي دعا لها ونفذها بالهيكل العظمي للحزب لا تنسجم مع واقع الحركة وقدرات الناس على التظاهر، وكانت تلك التظاهرات تنطلق بالشيوعيين وحدهم وليس بالجماهير التي يفترض أن تكون محيطة بهم. ونتيجة ذلك كانت أغلب الاعتقالات تقع على أعضاء في الحزب الشيوعي العراقي.**

وعلينا أن نؤكد بأن هذه السياسة لم تكن متعمدة أو بهدف إيذاء الحزب الشيوعي، بل تعبر عن ضعف في الوعي وعن فكر يساري صبياني خاطئ حينذاك.

وحين حاول نوري السعيد مساومته وإنقاذ رأسه من الموت رفض ساسون دلال ذلك وهتف من على أعواد المشنقة بحياة الحزب الشيوعي العراقي، إضافة إلى ما سجله ساسون سوميخ عن الرسالة التي كتبها عشية إعدامه والتي جاء فيها: "إنني أبتهل إلى الله ألا يضيع كفاحي هباءً. لن تستطيع القوى الرجعية السيطرة إلى الأبد، إنني مُقدِم على الموت غدراً لأنني آمنت بأن للناس الحق في تقرير مصائرهم بالديمقراطية والسلام والحياة المتكاملة. إنني إنسان حر لأنني أعرف الحقيقة." (سوميخ، ص 104).

من المآسي الكبيرة التي نفذها البعثيون القتلة ونظامهم الاستبدادي كان الهجوم المجرم في العام 1973 على عائلة يهودية ببغداد، الذي كتب عنه ساسون سوميخ في كتابه "بغداد أمس"، والذي نفذته أجهزة أمن النظام الاستبدادي حين عمدت إلى ذبح عائلة يهودية من أصل سوري سكنت العراق واعتبرته وطنها، حيث كتب يقول:

"حدثت هذه المصيبة حين داهم جنود أو رجال شرطة بيتهم وذبحوهم ذبح النعاج، الوالدين وأولادهم الثلاثة الذين كانوا معهم في البيت، وقد نجا الأولاد الثلاثة الآخرون بأعجوبة". (ص 150). وقبل ذاك كان قد نفذ البعثيون أحكاماً بالإعدام ضد يهود عراقيين بتهمة العمل لإسرائيل، كما قتل الكثير من المسلمين بتهمة العمل لصالح الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا، وكل التهم كانت باطلة والأحكام ظالمة متعسفة.

إن كتاب "بغداد أمس" يقدم شهادة آسرة عن أوضاع العراق في الأربعينات من القرن الماضي يستحق القراءة ويستحق كاتبه الشكر الجزيل على ما وفره لي من متعة في قراءة الكتاب والكتابة عنه. وأتمنى أن يحظى بما يستحق من اهتمام من القراء والقارئات ونقاد الكتب الأدبية والمذكرات.

كانون الثاني / يناير 2014 البروفيسور كاظم حبيب

الملحق رقم 1: قائمة أهم كتب البروفسور ساسون سوميخ للفترة 1972-2014، جامعة تل ابيب

1972 (بالعربية): دنيا نجيب محفوظ: الرواية – الأقصوصة – المسرحية \ مختارات مع مقدمات\

3 197 :(بالانكليزية)’ Novels The Changing Rhythm: A Study of Najib Mahfuz

1973(بالعبرية): نهر الفراش ـ مجموعة من الشعر المعاصر في سوريا ولبنان – ترجمة وتقديم

1975Two Versions of Dialogue in Mahmud Taymur’s Drama (بالانكليزية):

1976(بالعربية): دنيا يوسف إدريس من خلال أقاصيصه

1979 (بالعبرية): التراكمات – مختارات شعرية لميشيل حداد

1978 (بالعبرية): تحت المظلة – قصص مصري معاصرة

1981 (بالعبرية): مبنى القصة ومبنى المسرحية في أدب يوسف إدريس

1981 (بالعربية): ثلاثة فصول في أدب نجيب محفوظ

1981 (بالعبرية): أعشق بالحبر الأبيض – من إشعار سهام داود

1984 (بالعربية): لغة القصة عند يوسف إدريس

1993 (بالعبرية): الترجمة على جانب الطريق |مداخلا ت في الترجمة الأدبية |

2003 (بالعبرية): بغداد أمس ـ سيرة ذاتية ج 1 (ترجم للعربية والانكليزية والتركية)

2007 (بالعبرية) : جغرافية بديلة: مترجمة عن الشاعرة المصرية إيمان مرسال

2008 (بالعبرية): أيام غريبة - سيرة ذاتية ج 2 / صدرت له ترجمة انكليزية بعنوان "الحياة بعد بغداد"

2012 (بالعبرية): حامل المصباح في ليل الذئاب- مختارات مترجمة من شعر سركون بولص

تحت الطبع (بالعبرية): مختارات مترجمة من شعر محمود درويش

الملحق رقم 2: رسالة الروائي المصري الكبير نجيب محفوظ إلى الأستاذ ساسون سوميخ

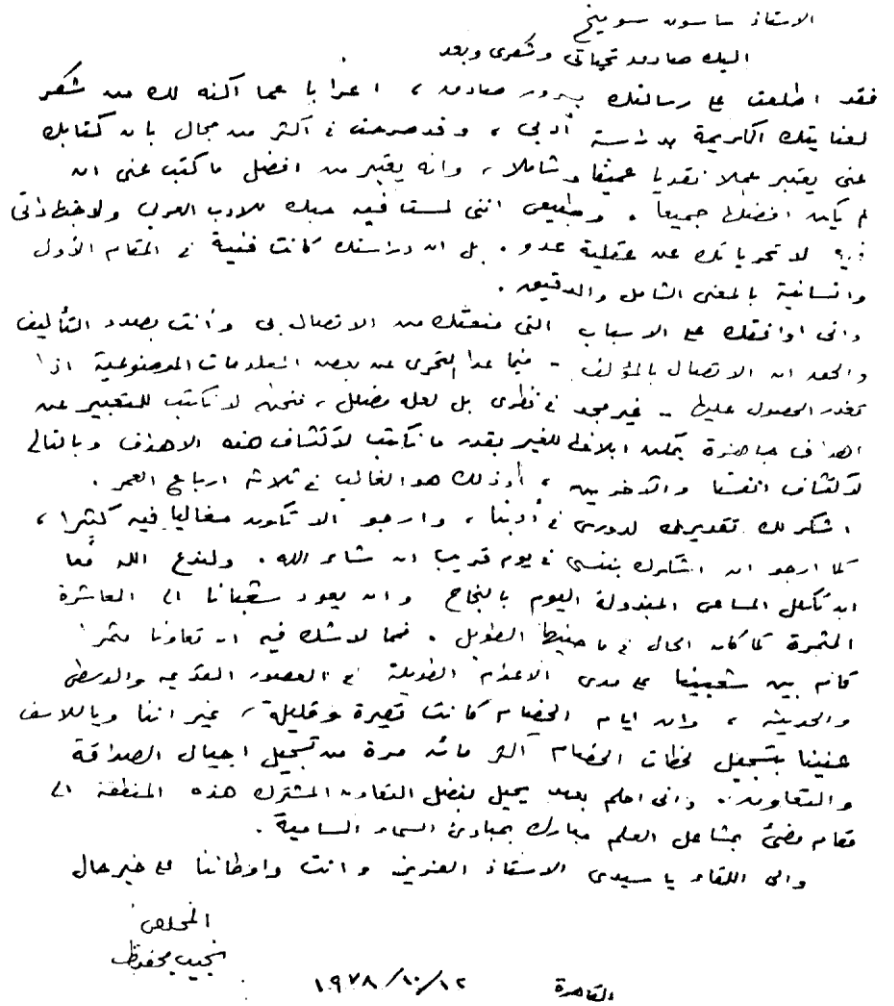

الاستاذ ساسون سوميخ

اليك صادق تحياتي وشكري وبعد

فقد اطلعت على رسالتك بكرم صداقة ، اعترافا بما آلفته لك من شعر لغتك الكريمة بدراسة أدبية ، وقد صرحت في أكثر من مجال بأنه كمقابل لمن يعتبر محمد نقديا عميقا وشاملا ، وأنه يعتبر من افضل ما كتب عني انه لم يكن افضل جميعا ، وطبيعي انني لست فيه مثلك بسبب العرب والاخطاء التي لا تحصى التي لم تكن عن عمد أو عن عقلية عدو ، بل انه دراستك كانت فنية في المقام الأول وانسانية بالمعنى الشامل والدقيق .

واني اوافقك على الاسباب التي منعتك من الاتصال بي وأنت بصدد التأليف والعهد انه الاتصال بالمؤلف - فيما عدا ما يتحرى عن بعض المعلومات الموضوعية التي تعتبر الحصول عليها - فيرجع في نظري بل لعله مضلل ، فنحن لا نكتب للتعبير عن الصراف بالشخصية بقدر ما نكتب لاكتشاف كنه الاهداف وبالتالي لاكتشاف انفسنا واكتشاف بيئة ، أو ذلك هو الغالب في تلك الرسائل الحميمة .

شكرا لك تقديرك لدوري في أدبنا ، وارجو ان تكون مشغولا فيه كثيرا ، كما ارجو ان اشاهدك بنفسي في يوم قريب ان شاء الله . ولندع الله معا ان تكمل المساعي المبذولة اليوم بالنجاح وان يعود سجالنا الى العاشرة الشهرة كما كان الحال في ماضيه الطويل . فما لدينا فيه ان تعاونا نشعر قائم بيننا شعبيا على مدى الاعوام الطويلة في العصور القديمة والوسطى والحديثة ، وان ايام الخصام كانت قصيرة وقليلة ، غير انها ويا للاسف خلفتنا بتسجيل لحظات الخصام التي ما تثبت مرة من تسجيل اجيال الصداقة والتعاون . واني اعلم بعد جميل لفضل التعاون المشترك هذه المنطقة الى مقام رضيّ بمشاعل العلم مبارك بجاذبة السماء السامية .

واني اللقاء يا سيدي الاستاذ العزيز وانت واوطاننا في خير حال

المخلص

نجيب محفوظ

القاهرة ١٩٧٨/١٠/١٢

كاظم حبيب

قراءة في كتاب [هروب موناليزا "بوح قيثارة"] للشاعرة بلقيس حميد حسن

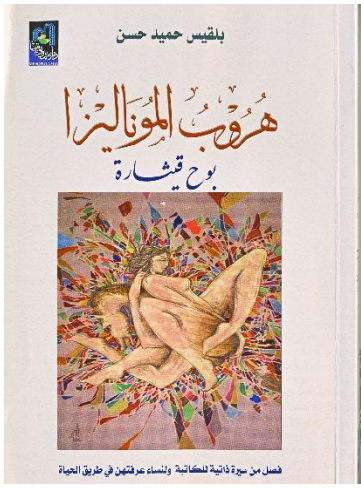

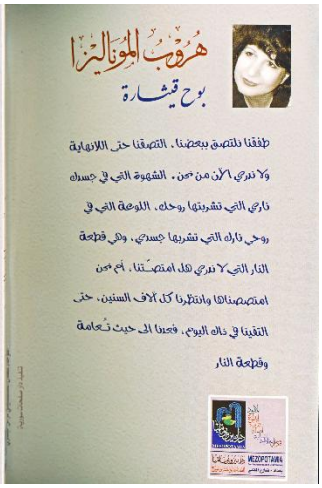

الكتاب: هروب موناليزا، بوح قيثارة

الكاتبة: بلقيس حميد حسن

دار النشر: دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع

مكان النشر: بغداد

تاريخ النشر: طبعة أولى، 2013

عدد الصفحات: 275 صفحة

صدر حديثاً للشاعرة المبدعة وعاشقة الحب والحياة بلقيس حميد حسن كتابها الجديد أو كما ثبت على الغلاف الأول "سيرة ذاتية للكاتبة ولنساء عرفتهن في طريق الحياة"، وهو يجسد مجرى مسيرتها الحياتية والنضالية ومن عرفتهن في طريق النضال الطويل. فماذا حمل إلينا هذا الكتاب الجديد وهي الشاعرة المبدعة التي أتحفتنا بجميل شعرها، بباقات من شعرها الفواح بعطر الحياة وسحر الحب والجمال ورقة الكلمات.

حين كنت في هولندا للمشاركة في احتفال تكريم الصديق العزيز والكاتب البارز الأستاذ جاسم المطير، أهدتني الشاعرة والصديقة العزيزة لي ولأم سامر كتابها الجديد، وكانت هدية جميلة فشكراً لها ولهديتها.

تتميز بلقيس بتعدد المواهب والكفاءات، فهي شاعرة موهوبة ومبدعة ورقيقة، تمتلك صوتا غنائياً منعشا ومشنفاً للأسماع ورقصها ساحر وأناقتها وذوقها في اختيار ملابسها يتسم بالبداعة ويعبر عن حس مرهف للألوان وتناسقها أو علاقاتها المتبادلة، ولها طباع تغري الإنسان بحبها، إنها باختصار امرأة، نفاذة لا تنسى وجميلة في آن.

سمعتها تشدو شعراً لها بصوت غريد سحرتني وسحرت من استمع إليها من النساء والرجال الذين طلبوا المزيد فزادت باستحياء ولكن مقرونة بالثقة بالنفس، إذ كانت تصدح بأبيات من شعرها الرشيق والرقيق، الحزين أحياناً والسعيد الضاحك المقهقه أحياناً أخرى، العاشق حتى الثمالة أو المنكوب بعشقه، الثائر كبحر هائج، والهادئ كخرير المياه في نهر صغير، إنها النسمات الصباحية المنعشة والمحفزة للحياة.

قرأت لها مقالات فتعلمت منها أسلوبها وعمق مضامينها ومفرداتها وسعة افقها ورقة أحاسيسها وجميل قولها.

تحادثنا فكانت غزيرة بمعارفها العامة وحافظة كبيرة للشعر وذات اطلاع واسع وقدرة غنية على تبادل الرأي والحوار بتواضع جم، تملك روح النكتة وقادرة على الضحك على نكتة أو موقف يخصها.

نشأت في بيت شعر عاشق وحافظ للشعر. الأب، الذي أصبح نموذجاً للطفلة والصبية والمرأة الناضجة بلقيس، كان يدفع بها وبأخيها إلى حب وحفظ الشعر العربي والتمتع به وفهم معانيه وفك رموزه. لقد نقل حبه للشعر وموهبته في حفظه لابنته وابنه، رغم اختلاف المشارب، إلا حفظ الشعر ونظمه، وأن اختلفا في الفكر والاتجاه والمضمون والمنحى العام.

قرأت لها أخيراً سيرتها الذاتية التي أسمتها هروب موناليزا "بوح قيثارة"، إنه عنوان جميل لقصيدة أو أغنية أو قصة أو سيرة ذاتية تسجيلية وتحليلية ذكية، وكانت الأخيرة. إنها بوح ونوح ومسرة قيثارة في آن، هي ألوان قزحية متناسقة، إنها أغصان جميلة معطاءة مطعمة بشجرة غريبة، ذات ثمار كثيرة، على وفق تعبير الشاعر صلاح نيازي الذي عنون سيرته الذاتية بكتاب "غصن مطعم بشجرة غريبة"، إنها شجرة الناصرية ذاتها، المدينة التي ولدت فيها وولد فيها قبلها الشاعر المبدع صلاح نيازي. إنها مزيج من مشاهد كثيرة يصلح بعضها الكثير أن يمثل على المسرح بعد أن وقعت أحداثه في الواقع المعاش ولم تنقطع عن مسرح

الحياة الفعلي. إنها رواية تسجيلية لسيرة ذاتية وسيرة مطعمة بسير أخرى يشتبه القارئ أو القارئة لها، أو قل إنها أرادت لهما ذلك، أن تتعقد عليهما اللوحة أو يصعب عليهما فهمها وكأنها تقول لهما إنها أنا بلحمي ودمي وأعصابي، عشقي وجنوني في الحب والهوى، وإنها هي تلك المرأة التي تتصورونها، أو إنها هن كلهن فلا فرق في ذلك.

قبل أن أبدأ بمطالعتها قال لي الصديق الأستاذ فارس الماشطة إنها روايتها الأولى، وهي بديعة بانتقالاتها الرشيقة من وتر إلى آخر، من موقف إلى آخر، من الطفولة البريئة إلى الصبية اليافعة، إلى السياسية الثائرة، إلى النساء الرفيقات المعتقلات المعرضات للتعذيب الهمجي في سجون النظام، إلى شرطة الحدود وقرارات منع الناس من السفر المخالفة لأبسط حقوق الإنسان، وطيبة الشرطي أو رجل الأمن الذي لم يعتقلها وتركها تعود إلى بغداد، ثم الهروب بجواز مزور عبر الحدود العراقية والغربة، إلى الحديث عن الحب والحياة المنعشة، إلى سلخ سلوك الفحولية المزيفة لدى الذكور التي تستحق الجلد، إلى الرجل الذي أهمل زوجته وراح يلوط بالصغار من الأولاد وكيف يقنعهم بإدخال سهل غير مؤذٍ، إلى الرجل الذي يغشى زوجته ولا يعرف الوفاء لحبيبته ولا لزوجته، إلى الحنين الطاغي للوطن وملاعب الأطفال رغم المآسي التي يعيش تحت وطأتها الناس بالبلاد، إلى الحوار مع الأب الذي لن يعود، الأب المغرم بأبنائه والشعر وبالبنت الشاعرة المغرمة بأبيها أيضاً، إلى الأم الطيبة التي تخشى على ابنتها من أي تنوير نسوي، إلى اللعب بالعصفور من طفل صغير ومن ثم من رجل محروم ومكبوت إلى حد اللعنة في مجتمع ملعون بالمحرمات، وخاصة الاختلاط بالمرأة.

ثم قرأت الرواية واعدت قراءة بعض أوتارها. القارئ المتعجل سيجد فيها متعة جنسية في مشاهد معينة لا غير، وربما البعض الآخر سيجد فيها الشطط عن المقبول والمعقول في مجتمع متخلف مصاب باللعنة، عندها سيخرج باستنتاج متعجل أيضاً. وهو أمر طبيعي. ولكن القارئ المتمعن والمتأني سيطرح على نفسه السؤال التالي: هل هذا هو هدف الرواية؟ ليس هذا هو الهدف، حسب قناعتي، ولكنه يحقق جانباً مهماً منه، لأن الحب هو الحياة والعشق أو الهيام بكل أنواعه، هو غاية الإنسان في الحياة وجوهر وجوده، وهو من خصائص الإنسان وطبيعته بالفطرة. لهذا لا أشك في أن تتمتع القارئة ويتمتع القارئ وهما يقرأان رواية هروب موناليزا (بوح قيثارة) بوقت جميل والشعور بأحاسيس جياشة ورغبة داخلية في التعبير عن الذات أيضاً. ومن جانبي فقد تمتعت حقاً بها وبأوتارها ومشاهدها. ولكن السؤال الذي طرحته على نفسي هو: ما

هي الخصائص التي ميزت هذه الرواية أو السيرة الذاتية للشاعرة الحالمة والمتيمة دوما بحب الإنسان والحياة؟ أود أن الخص ما تلّمسته أثناء القراءة بالنقاط التالية:

إن الرواية جسدت رغبة جامحة لا يمكن إيقافها في التعبير عن الذات، في الكشف عن المكنون، في وضع ما يسمى بالحياء المفتعل جانباً، في قول ما يجب أن يقال بكل شفافية وصدقية وأمانة بالغة مع النفس والقارئة والقارئ. إنها الصراحة التي تجعل كل كتاب مرغوباً ومطلوباً ومقبولاً.

والرواية تسجل شاعرية الكاتبة بلغتها الرشيقة والرقيقة التي استخدمتها في انجاز تلك الأوتار الصداحة بالحزن والفرح والألم الدفين والرغبات الجامحة والشبق الذكوري أو النسوي الشديد. إنها شفافة ورقيقة حتى في المواقع التي تتحدث فيها عن القسوة كما عبرت عنه وهي في بيت عائلة رجل الحدود الذي منعها من السفر ولكنه لم يسلمها لقوى الأمن، إنها التفاتة إنسانية لم تفت على شابة ذكية وجميلة مثل بلقيس رغم خشيتها من نظرات الرجل الشرقي المغرم بعصفور المرأة لا غير، على حد تعبير الأستاذ الكاتب والساخر خالد قشطيني (أبو نايل) في إحدى مقالاته الغزيرة بالمعلومات والسخرية، وأن سمي العصفور الطفولي باسمه الأصلي.

والرواية تكشف بلا رحمة عن المكنون والمخفي أو "السر" المعلن في المجتمع، عن حقيقة وسلوك الناس، عن الازدواجية المرضية التي تفرضها تقاليد وعادات وتربية المجتمع، عن المشاعر التي يخفونها ويخشون الإعلان عنها، عن شتمهم للواط وممارسته على أوسع نطاق، عن رفض السحاق وممارسته على نطاق واسع، عن بؤس وفاقة الفكر والعقل في المجتمع الإسلامي المأزوم دوماً والخالق للبشرية أزمات غير قليلة.

إنها تكشف بإصرار صارخ وموضوعي مطلوب عما كانت تعيشه وتحسه وهي صبية يافعة، كيف كان البعض يتعامل مع براءتها بسبب الكبت الذي كان يعيشه الجار الشاب أثناء مشاهدة التلفزيون والتي تجسد ذلك الكبت الذي يعاني منه الرجل في مجتمع لا يقدس ولا يجد غير منع الاختلاط وحماية العصفور، حسب تعبير بلقيس، إنه الشرف المزيف للعائلة والمجتمع في وقت تدنس الأنظمة العائلة والمجتمع بشتى الموبقات يومياً. إنها اللعنة حقاً، إنه الجذام الذي أصيبت به المجتمعات الإسلامية، ومنها الإسلامية العربية.

والرواية تعبر ببساطة وعفوية منشودة عن العلاقة الملتبسة دوماً، العلاقة بين القاهر والمقهور، بين السلطة والمواطن والمواطنة، بين سلطة تريد له أن يعيش تحت هيمنتها وظلمها وقهرها واستغلالها وفسادها

وإرهابها وقمعها، وبين مواطن يريد ببساطة العيش بكرامة وحرية واستقلالية. والمحصلة لهذه العلاقة هي الانتفاضات والرفض الشعبي والثورات، والتي يمكن أن ترتبط بإعدامات وقتل وسجون وتعذيب الذي يصيب ولا يرحم حتى الأطفال والشيوخ والمرضى، دع عنك الرجال والنساء.

وتقدم الرواية لوحة واقعية عن المهاجرين من بلاد الشرق إلى بلاد الغرب، من بلاد التخلف والحرمان إلى بلدان التقدم والحرية والمشكلات التي يعانون منها في مختلف المجالات، ومنها الجنس والعلاقة بين المرأة والرجل. الواقع الذي أعرفه ان نسبة عالية من العراقيات والعراقيين قد تركوا أو طلقوا زوجاتهم أو أزواجهن، وإن علاقاتهم بالنساء الغربيات محفوفة بالمخاطر. تحدث لي صديق تعرف على امرأة غربية صادقها بعد أن غادر العراق وكان محروماً من النساء سنوات طويلة وربما كل عمره، فما كان منه إلا أن يحبها أو يدخل فيها أكثر من مرة في اليوم الواحد فصبرت عليه ثلاثة شهور صعبة وقاسية حتى أعلنت إنها غير قادرة على العيش مع رجل لا يعرف غير الجنس فتركته، فصادق غيرها وسار على نفس الدرب المعوج فتركته بعد شهر واحد لا غير. إن هذا الصديق ليس الوحيد في هذا الأمر، فالكثير من الرجال الشرقيين، وخاصة المسلمين، يقعون في هذه المزية السيئة بسبب الكبت والحرمان وغياب العلاقة الطبيعية بين المرأة والرجل.

إلّا إن السمة المميزة لهذا الكتاب تبرز في طرح الكاتبة وتبنيها الصادق والدائم للموضوع الأساسي في حياة مجتمعاتنا بالعراق والدول العربية وبالدول ذات الأكثرية المسلمة، وأعني به حقوق المرأة وحريتها ومساواتها التامة بالرجل ونضالها المستديم من أجل هذه الغاية. في أغلب صفحات هذا الكتاب يشعر القارئ أو القارئة بأنهما أمام صورة المرأة المغدورة بحقوقها وحريتها وكرامتها لا بسببها بل بسبب موقف المجتمع والقوانين والأعراف والتقاليد البالية والذكور من المرأة التي لم ينصفها الإسلام ومنحها نصف حق الرجل في الميراث وأطلق عليها ناقصة العقل والدين ...الخ من الترهات التي تتناقض مع دور وقدرات وكفاءات وحقيقة المرأة وتتعارض معها. وفي الكتاب صرخة مدوية ضد هذا الواقع المزري الذي تعيش المرأة تحت وطأته، وهي التي تقدم النموذج المتفتح والمنفتح على الحرية والثقافة والحضارة الحديثة. هذا هو من حيث الأساس جوهر الكتاب ومضمونه.

ويتجلى ذلك في التحليل الواقعي لشخصيات الرواية، سواء لشخصها أو لتقمصها شخصية سومر أو تقمص سومر شخصيتها، والأمر في المحصلة سيان. إذ أن التحليل الاجتماعي والنفسي الذي تقدمه عن امرأة شرقية مغرمة مولهة برجل شرقي متزوج من امرأة غربية غنية، متسلطة بمالها ورصيدها في البنك وحقوقها كزوجة، يجسد من جهة عند سومر القلق والتردد والخوف والغيرة وآلام الحب والسهر والانتظار الذي يقارب

الموت التدريجي، ويجسد من الجهة الأخرى عجز الرجل الشرقي وفقدان حريته إزاء اتخاذ قرار حاسم بين زوجته المعلن عنها وزوجته السرية. إنها الخشية منها ومن غياب النعيم المالي الذي يعيش في بحبوحته، وليذهب الجميع إلى الجحيم. إنه رجل مسكون بشهوته الجنسية، يأتي متى تؤرقه هذه الشهوة، ومتى لا تكفيه أو لا تشبع غريزته المرأة القديمة، وليس للمرأة الثانية سوى فتح ساقيها له ليشبع تلك الغريزة ويغادر المنزل ليعود متى شاء هو وليس متى تشاء هي، إذ ليس لها، أو للمرأة في قاموسه الذكوري من حقوق ومصالح. إن الصراع الداخلي الذي عاشته سومر يدمر وضعها النفسي ويزيدها تعقيداً، كما يجسد أوضاع المرأة الشرقية وحالتها النفسية ليس في حالة واحدة هي الزواج من رجل متزوج، فهذه الحالة نموذج لأوضاع أخرى تعيشها المرأة كفرض الزواج على شابة ما تزال في مرحلة بين الطفولة والصبا من رجل بلغ سن الشيخوخة والكهولة...الخ، أو التزويج گصةبگصة ...الخ.

وأخيراً يقدم الكتاب لوحات جميلة عن حب إنساني عميق، عن تفاعل روحين وجسدين في حركة واحدة تعبر عن ذوبانهما في لحظة هانئة.

أتمنى أن يتسنى للجميع قراءة هذا الكتاب ليجدوا فيه متعة الإسلوب في التعبير عن المأساة والحزن على ما حصل لهما وللشعب بالعراق ويملكوا الثقة في أنفسهم والجرأة في التعبير الحضاري والإنساني عما يشعرون به ويتمنون ممارسته.

2013/10/1 **كاظم حبيب**

قراءة في مسرحية "ثور فالارس" للكاتب والصحفي ماجد الخطيب

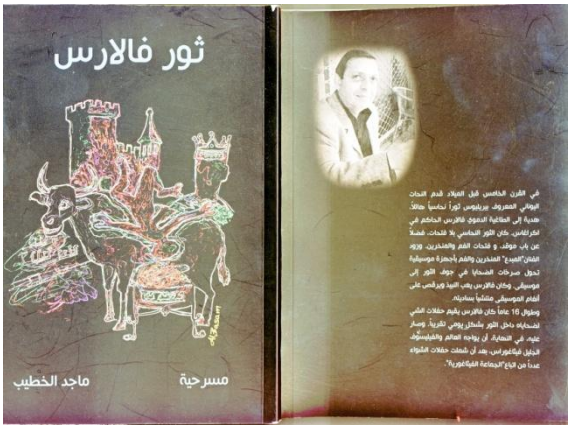

الكتاب: مسرحية ثور فالارس

الكاتب: ماجد الخطيب

الطبعة: الأولى 2013

دار النشر: المطبعة والوراقة الوطنية

مكان النشر: مراكش

عدد الصفحات: 85 صفحة

صدرت في خريف هذا العام مسرحية جديدة للكاتب المسرحي والصحفي ماجد الخطيب، وهي المسرحية السابعة التي تصدر له خلال السنوات القليلة المنصرمة. وفي العديد من مسرحياته، كما في مسرحيته الجديدة يعالج الكاتب موضوع العلاقة بين المثقف والسلطة، وهو الهاجس الذي يهيمن على الغالبية العظمى من مثقفي ومثقفات العراق بسبب طبيعة السلطة على امتداد القرون المنصرمة لا بالعراق حسب، بل وعلى الصعيد العالمي. فهي إشكالية قديمة قدم نشوء السلطة ووجود معارضة فكرية وسياسية لسياسات ومواقف السلطة، إضافة إلى وجود جمهرة من المثقفين الذين كانوا وما زالوا

يطرحون وجهات نظرهم في ما يجري في أوطانهم مما يفتح باباً للصراع مع السلطة التي لا تريد أن تسمع الحقائق ولا تريد أن تسمع صوتاً غير صوتها ولا تريد أن تقرأ غير الذي يمتدح أفعالها. والدول العربية والإسلامية كلها دون استثناء تعاني من ظاهرة العلاقة المتوترة والمتصارعة بين المثقفة والمثقف من جهة, والسلطة السياسية أو الدكتاتورية الحاكمة من جهة أخرى. وكم كانت صائبة الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي حين كتبت في روايتها الأولى "ذاكرة الجسد" جملة معبّرة وصادقة عن واقع حال الأنظمة العربية، وأضيف من جانبي والأنظمة في الدول ذات الأكثرية الإسلامية وغالبية الأنظمة في الدول النامية، ما يلي:

"يقضي الإنسان سنواته الأولى في تعلمه النطق، وتقضي الأنظمة العربية بقية عمره في تعليمه الصمت". وأضيف هنا أيضاً، بل وكثيرا ما تقتله!!

والحكام في هذه الدول لا يريدون التعلم من دروس الماضي ولا من الحِكم التي طرحها الكثير من الشخصيات الواعية وبعض الحكام العقلاء في العالم المتحضر عن دور المعارضة والمثقفين في الحياة العامة وعن أهميتها في إنارة طريق الحكام.

مسرحيات ماجد الخطيب لا تعالج التناقض الرئيسي بين المثقف أو المثقفة والسلطة حسب، بل تطرح بوضوح صراعات أخرى مهمة بين المثقف والمثقف، أو بين الأنا والآخر في واقع العلاقة في ما بين المثقفين أو المثقفات أنفسهم, وكذلك في الصراع الداخلي الذي يخوضه المثقف مع نفسه حين يفرض عليه الواقع اتخاذ موقف معين أو كتابة نص معين. وإذا كان هذا الصراع موجود منذ ألاف السنين، فهو اليوم أكثر بروزاً وأكثر خطورة على الثقافة والمجتمع وعلى حياة المثقفات والمثقفين بالدول العربية وبالعراق ذاته.

إن متابعة الحياة اليومية للفرد والمجتمع من جانب المثقفات والمثقفين المبدعين، وخاصة العضويين منهم الذين يشعرون بالتزام معين إزاء مجتمعاتهم، تفرض عليهم أن يطرحوا معايشتهم لهذا الواقع وما يشعرون بهم وما يحركهم للكتابة وصياغة نص أدبي، سواء أكان النص شعراً أم قصة أم رواية أم مسرحية أم نقداً أدبياً، أم لحناً موسيقياً أم أغنيةً أم لوحةً تشكيلية أم نحتاً. وحين يبدأ المثقفون والمثقفات بالعمل لتجسيد ذلك يجدون أنفسهم أمام تلك المجموعة من الصراعات، سواء أكان الصراع مع السلطة، وهو الأكثر خطورة، أم الصراع مع المثقف الآخر في مواقفه ورؤيته للأمور وعلاقته

بالسلطة، أم مع نفسه في حواراته الذاتية وفي مدى قدرته على تحمل ما يمكن أن ينشأ في أعقاب الانتهاء من العمل ونشره. وغالباً ما يصطدم المثقفين بمجموعة من وعاظ السلاطين التي تحاول التويش الدائم على أعمال العناصر المثقفة في المجتمع بمدح السلطان وأفعاله مهما كانت بائسة ومذلة للفرد والمجتمع، ومهما كانت مستبدة وظالمة.

هذه الموضوعات المتعددة الجوانب والمليئة بالحوارات المتبادلة أو الحوارات مع النفس هي موضوعات ماجد الخطيب، هي شاغله الشاغل. لهذا تراه ينقب في كتب التاريخ ويتعقب كل ما يمس هذه القضايا بصلة، سواء أكان في تاريخ العراق والشعوب العربية أم الشعوب الأفريقية أم في العهود السالفة في الإمبراطوريات القديمة وقبل الميلاد، كما في مسرحيته الجديدة الموسومة "ثور فالارس" الذي يتخذ من حكاية قديمة ليعيد قراءتها في مسرحيته وعبر تصوراته للحوارت الدائرة فيها، إنه يشدها بقوة ووضوح إلى التاريخ العربي والإسلامي القديم والحديث. ومن هنا تبرز أهمية مسرحياته التي تستوجب معرفة بالتاريخ والأحداث لكي يتمكن القارئ أو القارئة شد بعض أحداثها التاريخية بالأحداث الجارية بالدول العربية أو الدول ذات الأكثرية المسلمة أو العراق على مدى القرن المنصرم حتى الوقت الحاضر. لقد كان حضور ما جد الخطيب إلى برلين وقديم محاضرته في نادي الرافدين الثقافي العراقي مساهمة مهمة في توضيح ابعاد المسرحية وإبراز علاقتها بالماضي والحاضر والخط الممتد عبر الزمن في العلاقة المعقدة بين المثقف الواعي والسلطة المستبدة وجملة الصراعات التي تواجه المثقف والتي سعى إلى بلورتها في أكثر من نص مسرحي، سواء أكان من نتاجاته أم من ترجماته لنصوص مهمة أخرى.

تدلل الأحداث التي مرَّ بها العراق منذ عشرات السنين المنصرمة، دع عنك القرون السالفة، وتؤكد وجود طلاق بين الثقافة الإنسانية والسلطة المستبدة، ومن ثم، بين المثقف أو المثقفة والسلطة المستبدة. والسبب لم يكن ولا يمكن أن يكون المثقف أو المثقفة بل السلطة الجائرة في جميع الأحوال، إذ إنها كانت وما تزال تريد أن يكون المثقفة والمثقف خادمين لها ولأهدافها ومصالحها أولاً وأخيراً. وهي لهذا السبب تمارس سياسة "الجزرة والعصا" لإسكات ومن ثم تركيع المثقف والمثقفة لإرادتها!

والسلطة هنا يمكن أن تكون الحزب الحاكم أو النخبة الحاكمة أو الدكتاتور الفرد..الخ. إن هذين الاتجاهين سواء أكانت الجزرة المتمثلة بمغريات السلطة الكثيرة والمتنوعة، أم العصا المتمثلة بمحاربة المثقفة أو المثقفة بالرزق أو بالسجن أو بالتشريد أو حتى بالقتل تحت التعذيب أو الدهس بعربة أو

الإعدام. إن هذين الاتجاهين يمارسان وأد حرية الإنسان المثقف أو المثقفة واستقلاليته الفكرية والسياسية والإبداعية ويحرمان المجتمع والحياة الثقافية من إبداعه ودوره المطلوب للمشاركة في تغيير المجتمع والحياة العامة. وحين يرفض المثقف والمثقفة الانصياع لأوامر السلطان، سيُجبر إما على السكوت أو التحري عن لغة رمزية يستطيع بها التعبير عما يريد قوله، أي بلغة "كليلة ودمنة" أو التفتيش عن طريق للهجرة. وكثيرون هم الذين فقدوا حياتهم لأنهم رفضوا الانصياع ولم يتسن لهم الهروب من النظام وجلاوزته ولم يقبلوا السكوت ولم يجدوا لغة أخرى للتعبير عن واقع الحال او اكتشفت لغتهم الرمزية من مثقفي السلطة ووعاظه.

وخلال فترة حكم البعث بالعراق عاني الشعراء وكتاب الرواية والقصة والمسرح والنقد الأدبي، كما عانى العلماء والمبدعون في الفنون التشكيلية والمسرح والسينما والموسيقى والغناء شتى صنوف العذاب والحرمان والتشرد والموت على أيدي النظام وجلاوزته. وفي هذا الصراع المرير بين المثقف والمثقفة من جهة، والسلطة والدكتاتور من جهة أخرى، تعرفنا على عمق وشدة تلك الصراعات المتعددة وتعرفنا على نماذج من المثقفات والمثقفين الذين اتخذوا مواقف متباينة، عالج ماجد الخطيب البعض الصارخ والمهم من تلك الحالات في مسرحياته "عاشق الظلام" أو في "حفرة السيد" أو في "الوسام" أو في "ريام في بلاد الأحلام" أو في "فئران الاختبار". لقد حاسب ماجد الخطيب الجلاد والضحية في آن، وفي بعضها سلط الضوء بشكل خاص على الجلاد، وفي بعضها الآخر على الضحية، ولكن في جميع تلك المسرحيات حاول أن يبرز عمق المأساة التي يعيشها المثقف أو المثقفة في ظل نظم استبدادية قهارة. ولكنه في غالب الأحيان برز الجانب السلبي بهدف تبشيع الجرائم التي ارتكبتها وترتكبها النظم الاستبدادية ضد الثقافة والمثقف والمثقفة والمجتمع. ولا شك في وجود الكثير والكثير جداً من النماذج الإيجابية، وهي الغالبة، التي يفترض إبرازها أيضاً وبلورة مواقفها في مسرحيات أخرى.

لا شك في أن السلطة حين تحاول جرَّ المثقف أو المثقفة إلى جانبها، فهي تريد في واقع الحال إبعاد المثقف والمثقفة وعزلهما ن الشعب وعن حاجاته وطموحاته وأوجاعه. وهي بهذا تريد أن تخلق فجوة أو جداراً سميكاً وعالياً وعازلاً يفصل المثقف والمثقفة عن المجتمع. وحين يرفض المثقف والمثقفة هذه الحالة سيتفاقم الصراع ويحتدم في غير صالحما على المدى القصير، ولكنهما سيحصدان حب الشعب واحترامه ودفاعه عنهما والتزامه لهما.

إن النص المسرحي (ثور فالارس) الذي أمامنا هو نص درامي يحمل بامتياز عناصر البناء الدرامي الحديثة، وقد بذل ماجد الخطيب في إنجاز هذا النص جهداً كبيراً وعملاً وتحرياً واسعاً، وكان صادقاً في ما حدثننا عن معاناته في كتابة هذا النص في محاضرته ببرلين في شهر أذار 2014.

تتسم أعمال الكاتب المبدع ماجد الخطيب بالجدية والدأب في التحري عما يساعده في تقديم عمل إبداعي يتسم بالجدية والحداثة والمعلومات التي تسهم في تطوير الثقافة العامة من جهة، ولكنها تهدف من جهة أخرى إلى معالجة إشكالية عامة معينة ومن جوانب مختلفة بحيث تمنحنا لوحة بانورامية عن مسرح الأحداث وأجوائه وشخوصه. فالمعرفة الجيدة في أجواء القرن السادس قبل الميلاد والحياة الثقافية حينذاك والاقتراب الشديد من أدوار شخصيات فكرية وعلمية معروفة عالمياً وعلى نطاق واسع وكتب عنها وعن فلسفتها ونشاطها العملي الشيء الكثير هي التي سمحت للصديق الكاتب أن يتناول هذه الفترة وهذا الموضوع الحساس بالكتابة والتحليل وبجرأة كبيرة. وهو اختيار مقصود، إذ إنه يخلق لدى القارئ والقارئة تداعيات عن الفترات السابقة والحالية مما يسهم في رفع الوعي لما يجري في الواقع المعاش عراقياً أو عربياً على سبيل المثال لا الحصر. وعند قراءتي للنص شعرت بالمقاربة بين تاريخ تلك الأحداث ودراميتها والأحداث التي مرَّ بها العراق على مدى أكثر من خمسة عقود حتى الوقت الحاضر. وشكلت هذه المقاربة التاريخية من الناحيتين الفكرية والسياسية والاجتماعية والجانب الدرامي للأحداث أهمية خاصة. إن النص المسرحي الذي أمامنا هو نص درامي يحمل بامتياز عناصر البناء الدرامي الحديثة، وقد بذل في إنجازه النص جهداً كبيراً.

تتسم أعمال الكاتب المبدع ماجد الخطيب بالجدية والدأب في التحري عما يساعده في تقديم عمل إبداعي يتسم بالجدية والحداثة والمعلومات التي تسهم في تطوير الثقافة العامة من جهة، ولكنها تهدف من جهة أخرى إلى معالجة إشكالية عامة معينة ومن جوانب مختلفة بحيث تمنحنا لوحة بانورامية عن مسرح الأحداث وأجوائه وشخوصه. فالمعرفة الجيدة في أجواء القرن السادس قبل الميلاد والحياة الثقافية حينذاك والاقتراب الشديد من أدوار شخصيات فكرية وعلمية معروفة عالمياً وعلى نطاق واسع وكتب عنها وعن فلسفتها ونشاطها العملي الشيء الكثير هي التي سمحت للصديق الكاتب أن يتناول هذه الفترة وهذا الموضوع الحساس بالكتابة والتحليل. **وهو اختيار مقصود، إذ إنها تخلق لدى القارئ والقارئة تداعيات عن الفترات السابقة والحالية مما يسهم في رفع الوعي لما يجري في الواقع المعاش عراقياً أو عربياً على سبيل المثال لا الحصر. وعند قراءتي للنص شعرت بالمقاربة بين تاريخ**

تلك الأحداث ودراميتها والأحداث التي مرَّ بها العراق على مدى أكثر من خمسة عقود حتى الوقت الحاضر. وشكلت هذه المقاربة التاريخية من الناحيتين الفكرية–السياسية والجانب الدرامي للأحداث أهمية خاصة.

أذاً النص المسرحي الذي نحن بصدده هو من جانب نص درامي ويحمل في تكوينه البنيوي الجانب الآخر الجانب الفكري والسياسي العملي. فهو بهذا المعنى نص درامي متميز، ومن جانب آخر نص يعالج مسألة فكرية سياسية كانت وما تزال ذات أهمية فائقة للمبدعين والمجتمع في آن. وأجد في النص ذاته إجابة شافية ووافية إلى حدود بعيدة عن السؤال الكبير الذي كان وما يزال يدور في بال الكاتب ماجد الخطيب، إذ كتب ما يلي:

"أتساءل منذ ثلاثين سنة، وما زلت أتساءل، وأنا على ثقة من أنني سأبقى أردد هذا السؤال حتى مماتي. ما الذي يدفع مبدعاً واعياً برسالته الفنية–الإنسانية إلى تسخير فنه لخدمة طاغية دموي. كيف تسنى للشاعر الفلاني أن يمجد قاتلاً يعاني من "النيكروفيليا"؟ ألم ترتجف يد فنان رقيق مثل بيريليوس وهو ينحت الثور النحاسي الهائل ويهديه إلى فالارس بل كيف تفتق ذهنه عن هذه الوحشية، بمعنى أن يزود الثور بنظام موسيقي يحول صرخات المشوي داخله إلى موسيقى يرقص عليها الملك؟ "النيكروفيليا (Necrophilia) مصطلح يستخدم لوصف احد أنواع الاضطراب والشذوذ الجنسي (Paraphilia) المتمثل في الانجذاب جنسيا نحو جثث الموتى. هذا الانجذاب قد يكون تخيليا فقط أو قد ينطوي على اتصال جسدي حقيقي...". (أياد العطار، "نيكروفيليا .. الجنس مع الموتى (1) موقع كابوس). وبمعنى أخر إنه عشق الموت وشذوذ نكاح الموتى، ك.ح). أشار الأخ ماجد الخطيب إلى وجود دراسة تحليلية قيمة للأستاذ الطيب الذكر غالب هلسا عن عاشق الموت الذي شبهه بصدام حسين.

سأحاول في هذه المقالة أن أتطرق إلى الجانبين الفكري والدرامي المتلازمين والمتكاملين. لا شك في إن الأسئلة التي يطرحها الكاتب مهمة جداً وتستحق المزيد من البحوث في مجال علم النفس الاجتماعي، ولا في أن من مرّ بتجارب حياتية معينة عايش بعض المناضلين الشجعان الذين صمدوا تحت سياط الجلادين ولكنهم في لحظة معينة انهاروا تماماً وراحوا يبدعون في إيذاء رفاقهم الذين ناضلوا معهم. لقد مررت بتجارب من هذا النوع والتقيت بالبعض من هؤلاء ويمكن البحث في الحالة النفسية للشخص، سواء أكان شاعراً أم فناناً تشكيلياً أم مسرحياً، أم إنساناً اعتيادياً. وربما سأكتب عن

بعض التجارب في هذا الصدد في محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة المهمة، وهي لن تكون إجابات نهائية ولا مطلقة بأي حال.

هذا هو النص المسرحي الثاني الذي يقدمه لنا ماجد الخطيب حول هذا الموضوع المهم وهو بعنوان "ثور فالارس"، في حين كان عنوان النص المسرحي الأول "عاشق الظلام"، الذي دار موضوعه حول ذات العلاقة بين السلطة والمثقف، إذ اختار الكاتب شخصية أدبية مميزة في الثقافة العراقية، في الشعر والكتابة الصحفية وله تراث وتاريخ نضالي تقدمي يشار له بالبنان والذي تحول بفعل تلك العلاقة التي فرضها الحاكم الجلاد على المحكوم الضحية، على الشاعر بالهراوة المصحوبة بالسكر، إلى شاعر يمدح الجلاد وأفعاله الدنيئة وحروبه الدامية ويسعى إلى تمجيده وتقديسه!!!

لم تكن هذه الشخصية، الشاعر، هي النموذج الوحيد في هذا السقوط الدرامي، بل كان هناك العديد من الشخصيات الأخرى التي عاشت وضعاً دراميا مماثلاً. اختار الكاتب واحداً من هذه النماذج ليكون عينة كانت الأكثر فداحة لتلك العلاقة بين الجلاد والضحية التي خضعت لإرادة الجلاد وتبعته وسارت في ركابه وروجت لمفاهيمه بعد التخلي، قهراً أو عجزاً أو رغبة أو لأي سبب كان، عن مبادئه ومفاهيمه وعقلانيته السابقة وفلسفته في الحياة والنضال والثقافة ودور كل ذلك في حياته وحياة المجتمع.

لقد تابعت في "عاشق الظلام" حواراً مهماً ومتماسكاً يشد القارئ والقارئة إليه وينقله ليصل به إلى الحدث الدرامي، إلى لحظة تحول هذا الشاعر الرقيق من مواقعه المبدئية والوطنية والتقدمية السابقة إلى سقوطه في مستنقع الانتهازية وخيانة قضية الشعب ودفاعه عن الحرب والقتل والتدمير، دفاعاً عن الدكتاتورية. إنه الحدث الأكثر درامية، أو الخطأ المأساوي الذي كان يعرف الشاعر إنه سيصل الأمر به إلى هذا الدرك إن سار على "درب الصد ما رد" الذي دفعه النظام الدكتاتوري إليه, وهو مشابه للعقدة التي ميّزت أوديب والتي أطلق عليها بـ "عقدة أوديب".

منذ نشوء الدولة ومؤسساتها، وخاصة سلطتها التنفيذية، برزت ظاهرة الصراع بين المثقف والمثقفة من جهة، والحكم من جهة أخرى. وبرز من حيث المبدأ صراع بين تيارين أو اتجاهين متصارعين، يتوزع الاتجاه الأول صوب المحافظة والجمود على ما كان عليه ويبشر بأن "ليس بالإمكان أبدع مما كان"، واتجاه آخر ينزع للتغيير والتقدم ويبشر بالتقدم وتحقيق الأفضل ويرى بأن الجمود والمحافظة لا

يستقيمان مع مفهوم الحياة وحركة الزمن المستدامة. هذا الانقسام ما يزال قائماً وفاعلاً في كل المجتمعات. ولكن الانقسام الأخطر برز وما يزال يفعل في الصراع بين المثقف والسلطة، حين لعبت أو تلعب السلطة دورها في كسب جمهرة من المثقفين، وفي فترة لاحقة حين تكونت جمهرة من المثقفات في الدول النامية، ومنها العراق، إلى جانب الحكم وإبعادها عن المعارضة، في حين ابتعدت جمهرة أخرى عن السلطة المستبدة ولجأت إلى الصمت الفاضل تجنباً للوقع في حبائل النظم لأنها ليست ديمقراطية ولا تعمل لصالح الشعب وغير قادرة على تحمل ظلم النظم وتعذيبه أو قتله، ولكن البعض الآخر حاول أن يمارس العمل على طريقة كليلة ودمنة.

هذا الانقسام الفعلي بين مجموعتين من المثقفين والمثقفات، مجموعة أتباع السلطة والمجموعة المستقلة عن السلطة وفيها المعارض للسلطة. وإذ اشتملت المجموعة الأولى جمهرة من المحافظين وغير المحافظين، اشتملت المجموعة الثانية على محافظين وديمقراطيين وتقدميين ويساريين بألوان شتى. والعامل الحاسم في هذا التقسيم برز ويبرز في الموقف من مسائل مهمة بالنسبة للمثقف والمثقفة وأعني بها:

حرية المثقف واستقلاليته وقدرته على التعبير بما يحس به ويشعر بدون قيود أو شروط تحد من قدرته أو قدرتها على الإبداع والالتزام بالفكر أو الرأي السياسي الذي يتبناه ويتجاوب مع مفاهيمه في الحياة والعمل والإبداع والموقف من مصالح الشعب على وفق اجتهاده الشخصي. هذا الانقسام خطير ومؤلم لكل المثقفين والمثقفات، ولكن الأخطر منه يبرز في محاولة السلطة ونجاحها في تأليب مثقف السلطة ضد بقية المثقفين والعمل على كسبهم عن طريق السكر أو الجزرة التي "يتمتعون بها!" أو بالتهديد والوعيد والإساءة والاتهام أو الشحن غير الأخلاقي لدى السلطة ضدهم. وفي هذا يتحول مثقف السلطة ليس إلى واعظ أجرب لسلطان مستبد حسب، بل وإلى أداة قمع وتخريب وإساءة ضد بقية المثقفين والمثقفات وضد الثقافة بوجه عام. عن هذا الصنف من المثقفين، وليس عن أولئك الذين كفوا عن النضال وسكتوا بعيداً عن أضواء السلطة أو الإساءة للمثقف الآخر والذي حاول ان يختزن في ذاكرته ما يمكن أن يعبر عنه بأساليب وطرق أخرى، كالكتابة على طريقة كليلة ودمنة أو لوحات فنية رمزية ...الخ.

إذا كانت مسرحية "عاشق الظلام" قد تحدثت عن شاعر عراقي كنموذج للبقية المماثلة له بالعراق أو في غيره من الدول، فأن ثور فالارس واقعة تاريخية، وضعها الكاتب ماجد الخطيب في نص مسرحي

درامي، مأخوذ من الميثولوجيا وكتب التاريخ الإغريقية التي تتحدث عن نحات مشهور عاش في القرن السادس قبل الميلاد، إنه النحات المعروف في وطنه بيريليوس الذي أبدع عملاً فنياً كبيراً هو الثور النحاسي، ولكنه ثور جهنمي، دس في العسل السم الزعاف، وضع أداة للقتل الهمجي بيد الحاكم المستبد ضد شعبه وأصبح الضحية الأولى لمنجزه الفني. دعونا نتابع مع الكاتب هذا النص المسرحي.

بعد المقدمة المهمة التي شرح لنا الكاتب كيف توصل إلى كتابة هذه المسرحية، يضعنا عبر مدخل قصير للمسرحية في الأجواء التي كانت سائدة في مملكة "أركاغوس" في اليونان القديم وبحدود النصف الأول من العقد السادس قبل الميلاد بعد أن وقع انقلاب على الملك ثيرون قاده المهندس الذي كلف ببناء معبد للإله أبوللو.

يقدم لنا شبحاً يرافق الكثير من لوحات العمل المسرحي يحمل معه تاريخ وأحداث ومآسي هذه المملكة ويعلن منذ البدء بأن بناء المعبد قد انجز من قبل المهندس المشهور فالارس واستغرق البناء أربعة عشر عاماً بين 570-556 ق.م واستخدم الآلاف من العبيد المسخرين والمراقبين لإنجاز هذا المعبد الذي أقيم بثلاثة أضلاع مع باحة وسطية مثلة لاحتفالات الملك. وبعد الانتهاء من البناء قاد هذا المهندس ألاف العبيد في هجوم انقلابي على القصر وأجهزوا على الملك ومن هم في القصر. ولم ينج من هذه المجزرة سوى شخص واحد هو تيليماخوس من أقرباء الملك. استولى فالارس على العرش وأعلن نفسه ملكاً على أركاغوس وتحول إلى طاغية جبار وظالم مارس القتل والقمع ضد من لا يمتدحه.

نتعرف في هذا المقدمة على أبرز شخصيات المعارضة الجديدة للملك الجديد، إنهم غالاتيا الشابة الجميلة ابنة مهرج الملك، ثم تيليماخوس صاحب الجماعة المعارضة, وباريليوس الشاعر الشاب المتسم بالثورية والمندفع بحماس الذي أعلن بأن فالارس المهندس المشهور والمحب للفن، لكنه لا يقبل في مملكته من لا يرفع راية الولاء له ويكيل المديح له.

تقدم لنا اللوحة الأولى نحاتاً مرموقاً وعاشقاً للفتاة غالاتا ابنة المهرج وهو يعمل في ورشته وأمامه عمل فني ضخم مغطى بستارة لا تكشف عنه. تدخل عليه حبيبته غالاتيا فيدور بينهما حوار أخلاقي مهم. فهو يريد أن يقدم هذا العمل الفني إلى الملك هدية ليتحفه بمبلغ من المال يستطيع معه الزواج من حبيبته وبناء عش الزواج الجميل ويطلب منها أن يتوسط أبوها لدى المقابلة لتنظيم لقاء مع

النحات. لا تعرف غالاتيا طبيعة الهدية ولكنها تستنكر تقديم هدية من فنان كبير إلى ملك ظالم ويمارس القتل يومياً. يدعي الفنان إنه لا يريد رشوة ولكنه يعطيه عملاً فنياً يأخذ عنه مبلغاً من المال. تغادره دون أن تعرف نوع الهدية التي أنجزها الفنان وتوعده بالحديث مع أبيها. يشعر الفنان بالزهو من عمله الفني المتقن ويريد أن يحتفظ بسرية تامة لمنجزه. في هذه اللوحة يشعرنا المؤلف بحبكة واعية بمسألتين:

إن النحات المشهور غير مبال بظلم الملك وطغيانه وقتله للمزيد من أبناء مملكته، وإنه يتطلع بانتهازية خبيثة نحو الحصول على المال للزواج من حبيبته، في حين تتخذ الفتاة موقف المعارض والمناهض للملك ولتقديم هدية إلى جزار وتحذر حبيبها بجملة قاطعة وهي خارجة: حسناً ولكن لا تنحت سيفاً للجلاد يا بيريليوس! يا ويلك إن سلطه على رقبتك.

أما اللوحة الثانية فتضعنا أمام النحات في ورشته حيث ينتبه إلى دخول رجل عجوز، إنه الشبح الذي تقمص هذه المرة

شخصية تاريخية معروفة، إنه شاعر الملاحم العظيمة في القرن السادس قبل الميلاد، إنه ستيسيكورس، والذي لم يتعرف عليه النحات رغم إنه قد نحت له تمثالاً، إذ يثير ظهوره الفزع لدى النحات. يطرح هذا الشبح ما عاناه من طاغية بلاده. ويجري حوار مهم بين الشاعر الشبح والنحات حول العديد من عباقرة اليونان الذين قتلوا بطرق شتى على أيدي الطغاة. ويحذر الشبح بيريليوس من مغبة تقديم النحت الذي أنجزه، الثور النحاسي، إلى الملك، إذ سيصبح أداة للقتل اليومي بيد الملك ضد أبناء شعبه. لقد كشف النقاب عن النحت المنجز وأثار استغراب النحات. ويحاول أن يخفف من طبيعة الهدية، ولكن الشبح يحذره "لكن هذا التمثال ، أيها الفنان الكبير، ليس بومة نحاسية نحتها فنانو أوليمب هدية إلى ألهة الحكمة أثينا... إنه تمثال ضخم نحته فنان بشري جشع ليضعه بين أيدي بلوتو. لا يشعر النحات بالمخاطر فجشعه أعمى بصره وبصيرته. وهذه اللوحة تقدم لنا تلك الحكمة الفيثاغورية التي برهنت على صحتها إن "الحكمة والمال لا يجتمعان". ويرد النحات بقوله إن الفن والحب والمال يجتمعان.

وتضعنا اللوحة الثالثة في قصر الملك فالارس ومعه ميلانخوس, مهرج وضحاك الملك ووالد غالاتيا حيث استطاع إقناع الملك باستقبال النحات بيريليوس. إن التحليل الدقيق لطبيعة وسلوك النحات جعلت

الكاتب يؤكد: ينحني الفنان طويلاً في حضرة الملك. فيرحب به الملك باعتباره واحداً من الفنانين المشهورين في أركاغاس، ويرد عليه الفنان ويطلق عليه احيي جلالة الملك فالارس، ملك اركاغاس، شاعر الملك وملك الشعراء. ثم يبدأ بوضع الهدية بين أيدي الملك. فما هو هذا النحت المتقن الذي وضعه الفنان ليهديه إلى الملك؟ إنه تمثال لثور نحاسي ضخم جداً متقن الصنع وفيه خاصيتان تجسدان وعياً سادياً مرضياً لدى النحات ذاته، إضافة إلى انتهازيته وجشعه ومدحه للملك بالضد من الخصائص التي تميز بها الطاغية.

**** الخاصة الأولى تبرز في إمكانية تقديم القرابين البشرية إلى الآلهة على وفق التقاليد القديمة التي جرى التخلي عنها ويريد النحات إعادتها. حيث يمكن أن يوضع الضحية في جوف الثور وتغلق الفتحة المصممة لهذا الغرض وتوقد نار تحت جوف الثور النحاسي ليشوي الضحية ويموت مشوياً ويتحول إلى رماد.**

**** الخاصية الثانية صنع ألة موسيقية متقنة تسمح بتحويل صراخ وتشنجات الضحية المشوي إلى موسيقى صاخبة تصدر من فم ومناخير الثور النحاسي فيطرب الطاغية لهذا التشنجات الصادرة عن الضحية. إذ يقول: "زودت الفم بآلة موسيقية كي تخرج صرخات الضحية من الفم وكأنها خوار ثور يجامع بعنفوان، وزودت المنخرين بآلتين موسيقيتين صغيرتين تحولان زعيق وعويل المشوي إلى موسيقى جميلة تليق بطقوس تقديم القرابين".**

وإذ يذكر الملك الفنان بأن دلفي لم تعد تأخذ بالتقاليد القديمة ويقدمون الحيوانات قرابين بدلاً من البشر، باعتبار تقديم البشر عمل فينيقي لا إنساني بعد أن التزم بمبادئ فيثاغوراس. ويرد عليه الفنان بضرورة العودة إلى طقوس تقديم القرابين البشرية. وهنا وبهذا الحوار المرعب يضعنا الكاتب ماجد الخطيب على عتبة المأساة الخطأ، فالنحات يحفر قبره بيديه، إذ يطلب الملك منه أن يريه كيف يعمل الثور النحاسي أو السماوي، أن يفتحه، أن يدخل فيه وحين انتهى من رفع الأغطية يدفع الملك به إلى جوف الثور ويغلق الفتحة ويطلب من الحراس بإشعال النيران تحت جوف الثور. إنها اللحظة التي لا بد أن النحات قد تذكر حبيبته وهي تقول له "لا تنتج سيفاً للجلاد يا بيريليوس! يا ويلك إن سلطه على رقبتك" أو تحذير الشبح من مغبة صنعه لهذه الآلة القاتلة وتسليمها بيد جلاد ظالم.

جلس الملك وبيده كأس من الشراب يستمع إلى الموسيقى المنطلقة من فم ومناخير الثور التي حولت عويل وزعيق وتشنجات النحات إلى موسيقى طقوس مناسبة للطغاة. إنها مأساة الخطأ الذي كان يعرف به النحات وكان متوقعاً وهو يضع بيد الجلاد هذا السلاح لا ليقتل النحات به بل ليقتل الآخرين، ولكن الحكمة الشعبية تقول "يا حافر البير لا تغمج مساحيها، خاف الفلك يندار وانت تگع بيها".

وهنا وفي هذه اللوحة يستعرض الكاتب عبر الأشباح أولئك الشعراء الضحايا الذين قتلوا على أيدي الطغاة كالشاعر أنا كريون من تيسوس الذي قدم طعاماً للخنازير الذي يدخل ويحمل رأسه بين يديه، أو الشاعر أيبيكوس من ساموس الذي قتله القراصنة وقطع رأسه الطاغية بوليكراتيس. وشبح ثالث يحمل رأس كاتب قصص الحيوان أوسيبيو من دلفي الذي رماه الكهنة بالبحر. إنهم يتحدثون عن مآسي تلك الشخصيات الفنية والأدبية التي كانت ضحايا الملوك الجلادين.

إن التفكير بإنجاز عمل فني من هذا النوع ويقود إلى هذه الطريقة في القتل هو السادية المرضية القاتلة بعينها، وهي التي جعلت الكاتب ماجد الخطيب يتساءل في مقدمته للمسرحية: كيف يمكن لفنان مرهف أن يفكر بهذه الطريقة ويضع مثل هذا العمل الفني في خدمة القتل اليومي للبشر؟

لقد أصيب هذا النحات العظيم بوباء الانتهازية وعشق فتاة جميلة يريد الوصول إليها، إضافة إلى جشعه وهوسه في

الحصول على المال بغض النظر عن الوسيلة التي يصل بواسطتها إلى غاياته. فيصنع هذا الثور النحاسي الهائل ليهديه إلى ملك ظالم نجح في الوصول إلى السلطة عبر انقلاب على الملك السابق الأكثر عدلاً وأصبح عاشقاً للقتل والهيمنة التامة. صنع الثور من النحاس في العام 556 ق.م. وقتل به في ذات العام. وهكذا كلما مات واحدة من ضحاياه بالشوي واسترخى على موسيقى تشنجات القتلى، استدعى من سجونه ضحية أخرى.

أما اللوحة فتعرض علينا وضع المعارضين للنظام بعد مقتل النحات بآلته الجهنمية، إذ اجتمع أصدقاء النحات غالاتيا وميلانخوس وتيليماخوس وباريليوس في ورشة الفنان المقتول. البنت تندب حظها والأب يحاول تهدئتها. يبحثون عما يمكن فعله. الحزن يسيطر على الجميع والعواطف جياشة والرغبة في الخلاص من الملك القاتل عارمة. وفي هذا يبرز الاختلاف بين الشاعر الشاب بريليوس الذي يريد أن يعلن الثورة دون أن يحسب لميزان القوى حساباً، والسياسي المطالب بالعرش تيليماخوس الذي

يحذر من حركة لم تنضج ظروف إعلانها لأنها ستكون وبالاً على الجميع. غالاتيا وميلانخوس يقفان إلى جانب تيليماخوس، في حين ينفرد باريليوس بالموقف الثوري ولا يهتم لتحذري غالاتيا حين تقول له: كلا يا باريليوس، أنت شاعر ومفكر، ولست مقاتلاً فلا ترتكب خطأ يجعلك طعماً للنيران. فهل يستمع لها الشاعر الشاب المندفع بحماسه الثوري دون تفكير؟ يؤكد بأنه سيتحدى الملك الظالم بقصيدة وليكن ما يكون. ولم ينتبه باريليوس إلى حديث الشبح الذي ولج عليهم وحدثهم عما يفعله الملك بالآلة الجهنمية التي صنعها النحات القتيل ويعلن إن الشعراء يعيشون فترة عذاب شديد خشية أن تشويهم هذه الآلة الجهنمية كما التهمت عشرات المشويين في جوف الثور. فماذا حصل؟ هذا ما تنبؤنا به اللوحة السادسة اللاحقة.

تجسد اللوحة الخامسة السلوك المرضي للطاغية فهو لم يعد قادراً على العيش دون ضحايا يومية حتى أتى الثور النحاسي على من في السجون من معتقلين فقد كانت قبل حصوله على الهدية مكتظة بالسجناء الأبرياء. شهية الملك مفتوحة لمزيد من السجناء لشويهم في محرقته والحراس يخبرونه بعدم وجود سجناء آخرين، كما لم تعد ألاعيب المهرج التي كانت قبل ذاك تسليه أصبحت سخيفة.، فما العمل؟ ينظر إلى الثور النحاس من طرف وإلى المهرج من طرف آخر ويجد بينهما لعبته الجديدة فيطلب من المهرج أن ينظف جوف الثور. يبرز الرعب في عيني المهرج ولا يمكن رد الطلب يبدأ بالتنظف ويعلن انتهاء تنظيف الجوف يطلب منه تنظيف الفم والمنخرين. وحين يدخل إلى الجوف ثانية يتقدم الملك ليغلق الباب. وفي هذه اللحظة المميتة للمهرج يدخل الحراس ليعلنوا عن عثورهم على سجين هزيل كان قابعاً في السجن منذ سنوات. ينتشي الملك المعتوه ثم يسأله عن اسمه ومتى سجن ولماذا سجن. نسى المسكين كل شيء لا يعرف كل ذلك ولا يعرف حتى اسمه ولكنه يشعر ببرد شديد. إنها لحظة مجنونة، لحظة يرتقي بنا النص إلى مستوى جديد من الدراما: الضحية يرتعش من الرد ويطلب الدفء الإنساني، وإذا بالملك الفاجر يدفع به إلى المحرقة ويقول لحراسة: اشعلوا النيران! دفئوه جيداً، لقد أنقذ السجين أمسيتي. وفي اللحظة التي يشكر السجين الملك، يرتفع صوت الخوار والموسيقى من فم ومناخير الثور. لقد أوصلنا الكاتب بنصه إلى دراما إنسانية جديدة، إنها السادية المرضية التي استفحلت عند الطاغية وأصبح لا يطرب ولا يسكر إلا على تلك الموسيقى المنبثقة من شوي الناسي.

يطرح علينا النص في لوحته السادسة الشاعر الشاب باريليوس المنتفض على الطاغية وهو يقرأ قصيدة نارية تكشف عن سر الثور النحاسي ومقتل النحات بيريليوس الذي صنع آلة الموت الجهنمية. وأثناء إلقاء القصيدة يدخل الطاغية محمولاً من حراسه فيتلعثم الشاعر ولكن الملك يطلب منه مواصلة القراءة فيقرأ: أنا الثور النحاسي الجميل، لماذا صنع مني بيريليوس موقداً يشوي في جوفه العبيد؟ وكيف أصبح خالقي أول القرابين؟ ... وهنا يدرك الطاغية ضرورة الخلاص بطريقة الهراوة والجزرة من الشاعر. فيمتدحه ويرمي له بكيس ثقيل من النقود، فيرفعه أمام الجمهور الذي استمع لقصيدته المناهضة للملك ويقرر الأخير منحه قصراً ويوفر له سبل الراحة وينهي ثوريته ومعارضته للنظام دون استخدام فعلي للهراوة، إذ كان التأشير بها كافياً، وهكذا كان!!! ينقلنا الكاتب مباشرة في لوحته السابعة من جديد إلى ورشة النحات القتيل حيث يلتقي هناك المعارضون غالاتيا وأبوها وتيليماخوس وهم في أشد حالات الحزن والقلق على ما صار إليه الشاعر الشاب من جانب، والخشية من اعترافه عليهم لدى الطاغية واحتمال اعتقالهم. وبعد حوار يجسد حالتهم النفسية يقررون في جو كئيب هروب تيليماخوس واللجوء إلى المدينة التي حط فيها فيثاغوراس وجماعته, الذين كانوا قد هربوا قبل ذاك أيضاً من مملكة أخرى ولجأوا إلى مملكة كروتون التي أوت فيثاغوراس وجماعته واعتنق ملكها أراء وفلسفة فيثاغوراس. فهذا الملك لا يسلم اللاجئين لديه ويحميهم. ويمنحنا النص فرصة الاطلاع على السمات العلمية والإنسانية لفيثاغوراس وتعطشه للمعرفة والفلسفة.

واللوحة الثامنة تمنحنا فرصة التمتع بحوار جميل بين فيثاغوراس وتيليماخوس حول الشاعر الشاب الإنساني النزعة باريليوس الذي رفع العلم الأحمر ضد الطاغية ولكنه عجز عن حمله وانهياره أمام الخشية من الموت وقبل بالجزرة! وترد هنا أسماء عدد من المناضلين الكبار الذين قتلوا على أيد الطغاة لنضالهم ضدهم، في حين أن بيريليوس لم ين سياسياً ولكنه سمح لجشعه أن يدفعه لصنع آلة موت التهمته قبل غيره. يطلع تيليماخوس على فلسفة فيثاغوراس علة تقاليدهم وولعهم بالموسيقى وحركة النجوم والكواكب، كما يطمئن إليه ويبحث عن أهمية وطبيعة العلاقة بين الرياضيات أو الأرقام والموسيقى ونسمع هنا الحكمة من فم فيثاغوراس حين يقول:

"الأرقام والموسيقى من صلب طقوسنا، فكل شيء في هذا الكون يتألف من أرقام وحروف موسيقية متناغمة. كل شيء في هذا العالم يُصدِر الموسيقى، وأن لم نسمعها، لاحظ أن الكواكب في حركتها الدائرية تصدر أيضاً نغمات. الموسيقى علاج للغرائز الحيوانية والشهوات، تغسل الأرواح من الشوائب،

وتحافظ على اتزان الناس، وتنظم علاقاتهم ببعضهم. لن يبقى للإنسان روح بلا موسيقى، بل لن يستمر الوجود بدونها", أو لنقل ليس هناك من وجود بدونها. ومع هذا القول قفزت إلى ذهني مواقف شيوخ الدين الذين يحرمون الموسيقى والغناء وكأنها الطاعون، في حين كان البابليون يدرسون الأطفال الموسيقى في المدارس حينذاك، فهي يمكن فهم هذه الردة الفكرية في مجتمعاتنا الإسلامية ومنها المجتمع العراقي في ظل القوى الإسلامية السياسية الطائفية والرجعية التي هي الطاعون بعينه.

اللقطة الجميلة التي يقدمها لنا الكاتب ماجد الخطيب نجدها في الأفراد المرتبطين بفكر وفلسفة فيثاغوراس، إنهم من الرجال والنساء وفي القرن السادس قبل الميلاد وهو يشكلون حلقات دائرية متعاكسة ويساهمون في النقاش. وهم في هذا لا يبتعد عن تراث بابل في العلاقة بين الرجل والمرأة، فماذا حصل لمجتمعاتنا العربية أن تصاب بهذه العار، عار عزل المرأة عن الرجل واعتبارها ناقصة عقل ولها نصف ميراث الرجل وأينما اجتمع امرأة ورجل كان بينهما الشيطان ولِمَ لا يكون ملاك الرحمة أو "الرحمن". إنه بؤس الثقافة المتدهورة التي يعيشها العالم العربي بمجتمعه الإسلامي المتخلف.

في هذا اللقاء الحميمي بين الاثنين يقرر فيثاغوراس أن يتحدى الطاغية، أن يذهب إلى عقر داره ويتحداه هناك وينهي مأساة شعب يعيش تحت ملك مصاب بشتى الأمراض النفسية ومنها النرجسية والسادية المضخمة وشهوة القتل.

ويخبرنا النص في لوحته التاسعة من أن الطاغية كان قد كلف حراسه بالتفتيش عن تيميلياخوس الذي لجأ إلى مملكة كروتون، ويخبروه عن لجوئه إلى فيثاغوراس فيفكر بشن الحرب ولكن حراسه يخبرون بأن قوى أكبر من جيوشه خسرت أمام إيمان وعزم وتصميم جماعة فيثاغوراس وملك كروتون. ويقرر الطاغية اعتقال جماعة فيثاغوراس في مملكته وتسليط آلة الموت النحاسية لقتلهم شر قتلة، يلقون واحداً تلو الآخر في جوف الثور النحاسي لتحيله النار إلى رماد. وهنا يتدخل الشبح ليعلمه عن بعض خصائص فيثاغوراس وإنه من نسل الإله أبوللو وإنه مات مرات وعاد إلى الحياة.

أما اللوحة العاشرة فتدور أحداثها في معبد الفيثاغوريين حيث يلتقي المعلم فيثاغوراس بتيلمياخوس مع وجود مجموعته من الجنسين. ويشير له بأن طاغية أركاغاس طلب من ملك كرتون تسليم اللاجئ ويجابه بالرفض، كما يعلمه بأنه الطاغية إنه سيفرج عن جماعة فيثاغوراس المعتقلين في مقابل تسليم تيلمياخوس. ويطلب الأخير تسليم نفسه. يرفض فيثاغوراس ويعرب بشجاعة عقلية بأنه سيتحدى

الطاغية وسيذهب إلى أركاغاس. يفاجأ جماعة فيثاغورس وتتجلى في توقفهم عن الحركة ثم البدء من جديد بحركة غاضبة ضد الطاغية. وهنا يتوقف الكاتب عند فكرة تؤكدها مسيرة التاريخ إذ تقول على لسان فيثاغوراس: لا يمكن للشر أن ينتصر دائماً على الخير خصوصاً إذا تزاوج الخير بالحكمة. سأهزمه، وليكن أتباعكم على أهبة الاستعداد.

واللوحة الحادية عشرة تنبؤنا عن ولوج الشبح إلى بلاط الطاغية ويراه في حين لا يراه الحراس. ويدور حوار بين الاثنين. يتحدث الشبح عن وصول فيثاغوراس إلى أركاغاس ليتحداه في مناظرة الإجابة عن أسئلة يطرحها الطرفان. وبين الرفض والقبول يؤكد الشبح بأن رفض الطاغية سيعني الجبن أمام شعبه، وإن القبول يمكن أن يقود إلى الهزيمة أيضاً لحكمة فيثاغوراس. ولكن الطاغية يشعر بقوته ويقرر أن يقبل التحدي ويطرح على فيثاغوراس سؤالاً محرجاً يتغلب عليه فيه. هنا يشعر القارئ والقارئة بأن الكاتب يضعنا أمام أكثر من شبح، يحمل معه الشر وآخر يحمل معه الخير، أو إنه شبح واحد يحمل الاثنين في الواحد، كما في الديانات القديمة كالديانة الزرفانية أو الديانة الإيزيدية مثلاً. إنه يحذره من التراجع وإنك ستخسر أكثر إن رفضت النزال. واعلم إنك إن خسرت الرهان فلن يرميك إلا بحجر صغير واحد لا غير. فيقرر النزال واستخف بالعدو.

واللوحة الأخيرة تقدم لنا نزالاً فكرياً بين حكيم وطاغية. إذ تتحكم بالأول إرادة الخير والحكمة وحب البشر، تتحكم بالآخر إرادة الشر والجنون وكره البشر والرغبة في قتلهم. ويضعنا الكاتب في نصه المسرحي من جديد أمام مأساة الخطأ الذي يرتكبه الطاغية وهو مشابه لخطأ أوديب. فالنزال يجري أمام جمهور واسع وكله في حقيقة الأمر كارهاً للملك، في حين يكشف النص عن اعتقاد الطاغية بأن الشعب يحبه. وحين يخسر الملك الرهان ويرفع حجراً صغيراً ليرمي به الملك ترفع ألوف الأيدي أحجاراً صغيرة ترمي بها الملك وتطارده وحاشيته وتقضي عليه. وهنا يعلن موت الطاغية وتسليم تيلمياخوس الحكم.

ولكن هل ينتهي الوضع. كلا، فالكاتب يذكرنا بأن قتل الطغاة بهذه الطريقة ودون وجود وعي لدى الناس ومشاركتهم الفعلية في الخلاص منه لا يقود على استقرار الأوضاع وبناء حياة جديدة. فالتغيير يفترض أن يكون ما في نفس الناس. ولهذا قيل قديماً تغيير ما في النفي أصعب بكثير من القيام بثورة وكذا الاحتفاظ بها.

عند قرائتي لما كتب عن النظام الدكتاتوري البعثي الصدامي البغيض بالعراق وقعت على مادة كتبها صحفيون ألمان ثلاثة التقيت بأحدهم في ندوة في قناة فينكس الألمانية في العام 2004، أي بعد سقوط الدكتاتورية الفاشية على أيدي قوات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإعلان احتلال العراق، وكنت قبل ذاك قد التقيت به بطلب منه لنتحدث عن أوضاع العراق ومشكلاته وما كان يجري في فترة حكم حزب البعث والدكتاتور أحمد حسن البكر ورديفه صدام حسين والعواقب الوخيمة لاحتمال تسلم القوى الإسلامية السياسية الطائفية الحكم بالبلاد.

حين كنت أقرأ مسرحية ثور فالارس في خريف هذا العام (2013) تذكرت تلك الندوة والمقابلة مع الصحفي الألماني كريستوف ماريا فرودر Christoph Maria Fröhder والمقالة التي كتبها وسلمها لي في حينها حول العراق ومن ثم الكتاب الذي أصدره حول حرب بوش بالعراق. وفتشت على المقالة في أوراقي فلم أجدها وقدرت إني فقدتها فكتبت له راجياً إرسال تلك المادة. ولكنه أرسل لي مادة مماثلة كتبها ثلاثة صحفيين ألمان زاروا العراق في فترة مبكرة من سقوط الدكتاتور صدام حسين ونظامه. جاء في هذا المقال ثلاث صفحات عن ماكنة كهربائية عملاقة مهمتها لفرم اللحوم والعظام، وهي الماكنة التي استخدمها النظام العراقي في فرم أجساد الموتى أو رميهم بها وهم أحياء. ولكي لا ألخص هذا الموضوع المهم والذي، كما أعتقد، لم يطلع عليه إلا القلة من الناس، وخاصة ألألمان، قمت بترجمة هذه الصفحات التي أرفقها مع هذا المقال وهي ترجمة كاملة للنص الخاص من مقال الصحفيين الثلاثة المنشور على موقع الإنترنيت موقع وارفقها مع هذه القراءة لمسرحية "ثور فالارس، إذ إن تاريخنا العراقي مليء بمثل هذه الممارسات والتي تقترب من ذلك الثور النحاسي الذ1ي مهمته لا قتل البشر فحسب بل وتعذيبهم. جاء في مقال الصحفيين الثلاثة ما يلي:

" إنه مجرد أنبوب عادي، لكنه يجسد رمز القسوة التي عانى منها العراقيون بسبب الشكوك التي تنشأ عند الدكتاتور حوله. الأنبوب يقود إلى "ماكنة الموت". في واحدة من قاعات معسكر سري تابع لجهاز الأمن. الموقع يستخدم اليوم من قبل القوات الأمريكية. الصحفيون الأجانب ، وخاصة الألمان، منعوا من ولوج هذا الموقع. يصعب فهم هذا الموقف، إذ من مصلحة أمريكا الكشف عن أساليب التعذيب التي كانت أجهزة أمن الدكتاتور تمارسها. تمكن ضابط إيطالي من زيارة الموقع الجهنمي بعد سقوط النظام مباشرة. اسم الضابط الإيطالي هو Colonell Georg Di Pauli, Carabinieri

إليكم أحد الضحايا. حين اختفى حاول ابن أخته قرر أن يبحث عنه بأمل العثور عليه. بعد تحريات فاشلة، توجه إلى أحد زملاء الدراسة الذي يعمل في أجهزة الأمن. صديق الدراسة طلب منه الحفاظ على السرية التامة، إذ وجد إشارة في جهاز الكومبيوتر تؤكد وفاته تحت التعذيب. في عمود خاص وجد إشارة إلى أن جثمان عم صديق الدراسة قد فرم بماكنة فرم الجثث. وبهذا أمكن مسح أي أثر للعم. أبن الأخ لم يستطع استكمال الحديث عن عذابات عمه حتى النهاية وعن صورة الماكنة، لأنها كانت ماكنة لفرم الضحايا.

في الجهة المقابلة لمعسكر الأمن السابق يعيش ضابط طيران سابق. كان على علم بماكنة القتل هذه، حتى إنه كان مرة في الموقع حين انهار النظام وهجم الناس على هذا المكان. هو نفسه حافظ على مجموعة من أجهزة التعذيب لكي لا تسرق أو تدمر، ولكن لا يحتفظ بصورة لهذه الأجهزة. إلا إنه يعرف الضباط الذين كانوا يعملون على هذه الماكنة.

بعد مرور يومين عرض علينا تخطيطاً لأحد هذه المكائن الخاصة بالقتل الذي وضعه أحد الزملاء. وخشية من العقوبة التي يمكن أن تلحق بهم رفضوا الاتصال بنا والحديث معنا. وأخيراً فرض الأمريكان عليهم الصمت المطبق.

هذا هو الجهاز (الماكنة). من كل جهاته تبر سكاكين تدور وتقطع. من أعلى الجهاز كانت ترمى الأجسام في الماكنة وبالسكاكين كانت تقطع أجسام الضحايا. وقد نبه الذي وضع التخطيط إلى دقة عمل ماكنة القتل الصدامية.

الشاهد الأخير تسنى له مشاهدة الماكنة بأم عينيه حين كان معتقلاً عدة مرات. كتقني لم يمكن ملزماً بتصليح الماكنة وهو لا يمتلك صورة لها، ولكن يعرف عن وجود مكائن أخرى مماثلة لها وأنجز تخطيطاً وتخطيطات أخرى للمكائن التي شاهدها. أنه يعيش حتى الآن في كوابيس ... ثم حدثنا بما يلي:

في أحد الأيام احتاجوا إلى أعز صديق لي. لقد قاوم، ولكنهم جلبوه إلى الموقع، ولكنه واصل المقاومة بيأس شديد. استطاع أن يدفع وأثناء المقاومة باثنين من حراسه بحوض الماكنة الكهربائية المتحركة. عندها وجهت إلى صديقي نيران الحرس وقتل في الحال وجرى قذف جثته في الماكنة. هكذا قتل ثلاثة أشخاص أمام عيني. لقد كان مشهداً مريعاً.

القضية تطرح الكثير من الأسئلة. المفروض أن يجري توضيح مسألة ماكنة القتل الصدامية بعد انسحاب القوات الأمريكية. ويفترض أن يجري التيقن من البلد الذي باع هذه المكائن إلى النظام، وهل حقاً إن إحدى الدول الأوروبية هي التي باعتها له وهل إن بعض الأوروبيين التقنيين قد سافر إلى العراق لتصليح العطلات التي كانت تتعرض لها."

هذا هو النص الكامل حول الماكنة الذي نشر في من قبل تليفزيون ألمانيا الأول ARD بتاريخ 2003. علماً بأن الصحفي السيد Christoph Maria Fröhder قد أعطاني في حينها نسخة من تقرير أعده للجهة الإعلامية التي أودته إلى بغداد بعد سقوط الدكتاتورية مباشرة وكان فيه تخطيط لهذه الماكنة الكهربائية العملاقة. ومن المؤسف أني فقدت هذا التقرير فكتبت له وأرسل التقرير ولكن بدون تخطيطات صادر عن التلفزيون المشار إليه في أعلاه، والتقرير محفوظ في أرشيفي ولكن يمكن العثور عليها باللغة الألمانية وعلى الموقع الإلكتروني التالي:

Duell mit Saddam, Buchs Krieg gegen den Irak,ARD 3. März 2004, 23.00 Uhr

Eine Dokumentation von: Jorg Armbruster, Christoph Maria Fröhder, Ulli Neuhoff

لم يكن اختيار هذا الموضوع من الناحيتين الفكرية–السياسية والدرامية عفوياً، كما أشار إلى ذلك الكاتب ماجد الخطيب ذاته في مقدمة الكتاب، بل كان اختياره للموضوع مدروساً وموفقاً ومناسباً لواقع العراق والكثير جداً من الدول النامية، كما إن الطريقة التي عالج بها المشكلة ناجحة تماماً ووصل بها إلى الهدف المنشود بشكل يشكر عليه. أراد الكاتب بهذه المسرحية أن ينبه الكاتب المبدعين على نحو خاص إلى:

1. **الابتعاد عن مراكز السلطة الغاشمة وعدم الوقوع في حبائل حب المال والروح الانتهازية واعتماد غير مبدئي لقاعدة "الغاية تبرر الواسطة" بما لا يستقيم مع الإبداع الفني والالتزام بمبدأ الإخلاص لقضية الشعب ووضع الفن في خدمة التقدم بحيوية ومسؤولية في آن.**

2. وأن يُذكّر الكتاب والكاتبات والناس جميعاً لما حصل في ظل الهيمنة البعثية الصدامية على العراق وشعبه والمصير الذي آل إليه من سقط في أحضان الدكتاتورية والفاشية من كتاب وفنانين تقدميين وبعضهم يساري أو شيوعي أيضاً، كما في مسرحة "عاشق الظلام" على سبيل المثال لا الحصر.
3. والغريب في الأمر أن من تورط بالعمل مع نظام البعث الصدامي كان يعرف جيداً طبيعة هذا النظام والجرائم التي اقترفها بحق الشعب بكل قومياته حتى قبل بدء الحرب العراقية الإيرانية والحروب اللاحقة، فبعضهم مجد الدكتاتورية و"عظمة القائد الضرورة"، وبعضهم الآخر أضاف إليها تمجيد حروب الدكتاتور الداخلية وضد شعبه والخارجية ضد جيرانه والأشقاء العرب وساهم عملياً في الدفع باتجاه وقوع المزيد من ضحايا الحروب والدكتاتورية.
4. وإن المرحلة الراهنة وفي ظل الصراعات الطائفية المقيتة بين الأحزاب والقوى الإسلامية السياسية الحاكمة المتفاقمة يسهل السقوط في حبائلها وحبائل من بيده السلطة والمال والقدرة على الإغواء.
5. ونبه إلى أهمية المعرفة الدقيقة بموازين القوى في التحرك لعملية التغيير التي يفترض أن تستند إلى الغالبية العظمى من المجتمع، إلى إرادة التغيير التي يمكنها أن تحقق المعجزات.
6. وأن الطغاة مهما تجبروا لن يدوم لهم الحكم بأي حال وإن إسقاطهم بالطريقة التي جرت بالعراق دون مساهمة فعلية مباشرة من جانب الشعب وضعف الوعي وسيطرة الفكر الديني المتخلف لا تقود على السلام الاجتماعي ولا إلى الهدوء والاستقرار. فالمشكلة تكمن في ضعف الوعي الاجتماعي والثقافي وضعف شعور الشعب بضرورة التغيير والخلاص من الدكتاتورية البشعة وضعف قدرته على تحقيق ذلك.
7. ويبدو مفيداً الإشارة هنا إلى وجود تباين واضح بين شخصية الشاعر في مسرحية عاشق الظلام وشخصية النحات في مسرحية ثور فالارس، في عاشق الظلام كان الشاعر سياسياً وعضواً في حزب سياسي ومناهضاً للنظام الاستبدادي في شعره ونشاطاه وكامل تاريخه قبل سقوطه السياسي في أحضان الدكتاتورية وتمجيده حروب الدكتاتور، في حين أن الشاعر في ثور فالارس، ورغم صداقته للمعارضين، لم يكن سياسياً، علماً بأن السياسة لا يمكنها أن تفارق أحداً بسبب علاقتها بحياة الإنسان اليومية، كما إن الأول كان قد عاش الصراع الداخلي بعنف شديد، في حين أن الثاني لم يعش هذا الصراع الداخلي بسبب موقفه اللامبالي مما كان يجري في المجتمع وما يمارسه الدكتاتور ضد شعبه، كان المهم عنده أن يصل إلى ما يريد بأقصر الطرق والتي قادته إلى حتفه. كلاهما حالة درامية، تراجيديا، مأساة، وأن اختلفا في المنحى.

8. **لقد منح ماجد الخطيب النص الذي بين أيدي القراء والقارئات حوارات متماسكة ومجسدة للحدث التاريخي المتكرر باستمرار قبل ذاك وبعد ذاك أيضاً ولم ينقطع حتى الآن، العلاقة بين المثقف والسلطة، بين وعي المثقف لذاته ووعيه للمجتمع وما يجري فيه ومسؤوليته إزاء كل ذلك.**
9. **ويضعنا الكاتب وجهاً لوجه أمام مجموعة من حاشية الدكتاتور المطلق ووعاظ السلاطين الذين يبذلون المستحيل للحفاظ على وجود الدكتاتور في السلطة وتمجيده للحفاظ على مصالحهم ومكاسبهم والتي تجلت في سعيهم لإثارة الدكتاتور ضد فيثاغورس الذي احتضن المعارضين ليشن الحرب ضده وضد المدينة التي احتضنت المعارضين الهاربين من ظلم وقتل الدكتاتور فالارس لهم. وهو يذكرننا بما كان يجري بالعراق في فترة صدام حسين أو من هم موجودون الآن في فترة نظام المحاصصة الطائفية، سواء من يعيش منهم في داخل البلاد أم خارجها.**

لقد استخدم ماجد الخطيب الحدث التاريخي لبلد غير العراق، لبلد إغريقي، البلد الذي انطلقت منه كلمات الحرية والديمقراطية وتكرست مبادئ الفلسفة، ليجسد لنا ما حصل ويحصل بالعراق أيضاً, عراق الحضارة القديمة، عراق الانقطاع المتكرر عنها، ولكنه في الوقت نفسه عراق الاستبداد والقسوة والسادية التي تميز بها الحكام عموماً والتي ما زال الحكام العراقيون يتسمون بها حتى الآن!!!

2013/10/10 **كاظم حبيب**

دراسة معمقة في حياة وأعمال ونقاد هاينريش هاينه للكاتب ماجد الخطيب

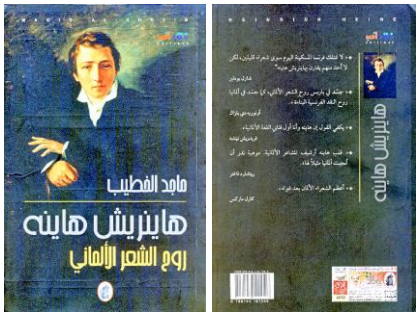

اسم الكتاب: هاينريش هاينه روح الشعر الألماني

المؤلف: ماجد الخطيب

إصدار: المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت

الطبعة الأولى 2012

عدد الصفحات: 406 صفحة

هدية جميلة وممتعة تلك التي تسلمتها من الصديق الكاتب والروائي والصحفي المميز ماجد الخطيب، كتاب جديد صدر له تحت عنوان " هاينريشهاينه روح الشعر الألماني". لقد تمتعت كثيراً بقراءة هذا الكتاب من حيث المضمون وكذلك اللغة السلسة التي كتب بها والترجمة الممتازة لشعر هاينريش هاينه غير السهل على الترجمة إلى العربية حقاً. وكانت المروءة والصداقة المتينة التي جمعت بين الكاتب والشاعر الفقيد مهدي محمد علي، أن يهدي ماجد الخطيب هذا الكتاب إلى ابن البصرة الفيحاء والشاعر المبدع الذي غاب عنا جميعاً بوقت مبكر، مات في الغربة اللعينة كالكثير من مثقفي ومثقفات شعبنا الجريح، إضافة إلى الكثير من المواطنات والمواطنين العراقيين.

تضمن هذا الكتاب تسعة فصول بضمنها المقدمة ومأساة المنصور وقصائد أخرى مترجمة.

تضمن الفصل الأول المقدمة التي كرست لمتابعة رؤية جورج لوكاش لهاينريش هاينة، وكانت بعنوان "هاينريش هاينة بعيني جورج لوكاتش" أو [الشاعر بين"حمار بلعام" و"ثور فالارس"]. وبحث الفصل الثاني في الإشكاليات التي رافقت حياة هاينريش هاينه مما دفع الكاتب إلى اختيار عنوانين لموضوعين في هذا الفصل هما " قلما فهمتموني ..."،و"ها قد جاء الموت .. الذي طالما خفق له قلبي". وتضمن الفصل الثالث بحثاً عن هاينه باعتباره "الشاعر المجدد"، في حين بحث الفصل الرابع في العلاقة بين الشاعرين الألمانيين العملاقين "هاينه وغوتيه" وآراء كل منهما إزاء الآخر أو "صراع المواطن والنبيل في الثورة الفرنسية". وركز الفصل الخامس عن العلاقة المتميزة التي ربطت بين "هاينه والشرق". وانتقل في الصف الفصل السادس لمعالجة العلاقة بين هاينريش هاينة والفاتيكان وموقفه من الدين عموماً. أما الفصل السابع فقد توقف كثيراً عند الطبيعة التي ميزت الشاعر ووضع له العنوان التالي " الشاعر بين"انثى الشؤم"و"الأنثى الهشة". وتابع الكاتب في الفصل الثامن " نظرية المؤامرة في موت هاينة". بالإضافة إلى ذلك تضمن الكتاب "مأساة المنصور" ومجموعة من أشعاره المتميزة إضافة على نبذة مختصرة عن حياة الشاعر وفهرست لمؤلفاته ونبذة قصيرة عن المؤلف ماجد الخطيب ومؤلفاته وترجماته. من مطالعة هذا الفهرست لمواد الكتاب يستطيع القراء والقارئات تقدير الجهد المبذول في إنجازه وفي التطرق إلى مختلف جوانب حياة ونشاط وشعر وعلاقات الشاعر بالمجتمع والقوى الفكرية والسياسية حينذاك والمكانة التي كان يحتلها في ألمانيا أو في الدولة التي انتقل للعيش فيها فرنسا ومن ثم مات ودفن فيها.

حين بدأت بقراءة هذا الكتاب لم أتوقف عن القراءة حتى انتهت من الفصل الثامن، ثم توقفت عند مأساة المنصور، إذ إنها تراجيديا متميزة ورائعة تستوجب القراءة المتمعنة للتعرف على صراعات تلك الفترة في أسبانيا وموقف الشاعر من أحداثها ومن القوى المتصارعة فيها. شعرت وأنا أقرأ الكتاب بمتعة كبيرة فالكاتب والصحفي والروائي استخدم لغة أدبية رفيعة وأسلوب بحثي متماسك وقدرة صحفية على تطويع اللغة لصالح تسهيل القراءة وتكثيف المادة وبرؤية تقدمية وبحث ديمقراطي ناضجين.

استخدم ماجد الخطيب في إنجاز كتابه عن هاينريش هاينه خمسة أصوات في هذا الكتاب ومتطلعاً لصوت سادس هو صوت القارئات والقراء ليكون كل منهم رأيه الخاص في شعر وحياة هاينريش هاينه وفي مواقف نقاده وفي الكتاب الذي أنجزه الخطيب. اعتمد الكاتب هنا صوت هاينريش هاينة حين كان يتحدث عن نفسه أو عن غيره وعن مراراته في الحياة وعن رغبته في الموت أو عن أفكاره وعن علاقته المرهقة بزوجته

وعلاقاته الأخرى وتطلعاته وقلقه الشديد على ألمانيا وعن موقفه من يهوديته أو من الأديان كافة. ثم وضعنا الكاتب في مواجهة صوت النقاد الكارهين لهاينريش هاينة والحاقدين عليه، سواء أكان ذلك الكره بسبب ثوريته وتقدميته وكرهه للحرب والعنف وصداقته مع اليساريين في تلك المرحلة من تاريخ ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، أم كان بسبب رفضه للفكر المحافظ والرجعي وإدانته للرأسمالية والاستغلال، أم بسبب ولادته في عائلة يهودية فقيرة، أم بسبب فقره وشطف عيشه، حيث قال عنه غوتيه "لو أن هاينة توقف عن التصرف كـ "ابن شوارع" لكان أكبر شاعر عرفته"! (ص 108). بعدها قدم لنا الكاتب صوت النقاد الذين عشقوا شعر هاينريش هاينة وتوافقوا مع مواقفه الثورية وشاعريته الكبيرة فوصفه بعضهم بأنه "يقف بين شاعري ألمانيا الكبيرين غوته وشيلر"، وهو موقع عظيم وصائب لشاعر كبير مثل هاينه. ثم كان الصوت الرابع الغاضب لطاغية الإمبراطورية الروسية، الأمير والكونت كليمنس فينزل ميترنيش (15مايو 1773 – 11 يونيو1859)، مستشار الدولة البروسية حينذاك، المعبر عن أكثر القوى المحافظة رجعية والممثل الشرعي لها وفي فترة قفزة التطور الصناعي في ألمانيا وأوروبا عموماً، الذي طارد الشاعر الكبير هاينريشهاينه بسبب مواقفه الثابتة والجريئة من الظلم والطغيان وانتقاده للمستبدين حتى يشك في كون الطاغية قد أرسل جواسيسه لاغتيال الشاعر بدس الرصاص في الشراب الذي يتناوله الشاعر والذي كشف عن وجود مادة الرصاص بنسبة عالية حين تم فحص شعرة من رأس الشاعر. ولم يقتصر الفحص المختبري على جهة واحدة بل أكدته جهات أخرى مستقلة أجرت الفحص ايضاً. وأخيراً كان الصوت الخامس، صوت الكاتب ماجد الخطيب، الذي تابع بدأب وعناية كبيرة كتابات النقاد والكثير من الدراسات والأبحاث التي صدرت عن هاينريش هاينه وحياته وشعره ساعياً لا إلى استعراضها فحسب، بل وإلى إبداء رأيه الخاص بشأنها وبالشاعر وشعره. كما أعطى فسحة مناسبة للقراء ليدلوا بدلوهم ويكونوا رأيهم المستقل بهذا الشاعر العظيم الذي توفي بعد أن أقعده المرض عن عمر ناهز التاسعة والخمسين.

إن تنوع وتعدد فصول الكتاب توضح إلى إن الكاتب ماجد الخطيب قد تتبع بجهد كبير حياة هاينريش هاينة منذ الولادة مروراً بمرحلة الشباب والدراسة والحياة الزوجية وثم الشيخوخة المبكرة والمرض الذي ألم به طوال سنوات من جهة، والأعمال الشعرية والنثرية من جهة أخرى ووضع يده على الملامح الأساسية لشخصية وشعر هاينريش هاينة ودوره في العصر الذي ولد فيه وموقفه المبدئي من اتجاهات التطور في ذلك العصر.

لقد كان الشاعر صارماً في نقده للرجعية والارستقراطية الألمانية والأوروبية وهلي التي جلست عليه الكثير من المشكلات بما فيها ترك المانيا والهجرة إلى فرنسا والتي تجلت بوضوح في سلسلة المقالات التي كان يكتبها من باريس ويرسلها إلى الجريدة الألمانية "الگماينه تسايتونگ" للنشر والتي وجدت رواجاً واسعاً وتأييداً من جانب المجتمع الألماني، إذ كان توجه النقد الصارم والكشف عن المشكلات التي يعاني منها المجتمع الألماني حينذاك وعن الحراك الثورى في تلك الفترة من حياة الشعب الألماني. (ص 204).

لم يكن هانيريش هاينة مراقباً لما يجري في ألمانيا من تناقضات فحسب، بل كان ساعياً إلى بلورة الأجواء التي كانت تنشأ فيها تلك التناقضات من جهة وإلى تبيان العوامل الكامنة وراء ذلك وإلى نقدها أيضاً، كما عبر عن ذلك بطريقة ما لوكاش. (ص 15/14) ويمكن أن نقرأ ذلك في الأبيات التالية: (ص 15).

تغفو الغابة، والنهر ينام باطمئنان،

مغرق بضوء القمر الناعم؛

يعلو فجأة أزيز. هل كانت رصاصة؟

ربما أنه صديق أُعِدم؟

لقد وقف الشاعر بكل ثقله الفني إلى جانب قوى اليسار والتقدم ولكنه لم ينتم إلى حزب سياسي معين. كان صديقاً لكارل ماركس وزوجته ولعدد كبير من اليساريين الألمان والفرنسيين.

كان هاينريش هاينة ساخراً معبراً بعمق ومسؤولية عن الأوضاع البائسة التي يعيش تحت وطأتها الشعب الألماني والشعوب الأوروبية والتي تجلت في قصيدته عن "الملوك الثلاثة المقدسون" والتي كان يقصد فيها مستشار ألمانيا وإمبراطور النمسا وقيصر روسيا (ص 208-211).

ويبدو إن الشاعر قد عانى الأمرين من زوجته، هذه المرأة الفرنسية الشابة اللعوب والمزاجية وذات طموح كبير للصعود إلى مصاف الارستقراطية الفرنسية، وهي بالضد من طبيعة ومزاج وحياة هاينريش هاينه. وقد لعبت زوجته دوراً كبيراً في عزلته الشديدة عن أقرب أصدقائه بسبب كرهها لهم وسعيها لإهانتهم لكي ينقطعوا عنه. وفي هذا الصدد كتب ماجد الخطيب عن موقف ماركس من وفاة صديقه هاينريشهاينه ما يلي: " زعق كارل ماركس، حينما بلغه نبأ وفاة صديقه الشاعر هاينريش هاينه، " قتلته هذه المرأة"، وكان يعني ماتيلده زوجة هاينه" (ص 198). وفي قصيدة له يعبر هاينريش هاينه عن حياته الزوجية وعذاباته الشخصية تحت عنوان العالم السفلي نقتطف منها ما يلي :

فقط لو أنني عازباً بقيت!

يطلق بلوتو ألف حسرة–

الآن، في عذاباتي الزوجية،

لا أجد الجحيم، فيما مضى

، دون زوجة، جحيماً.

فقط لو أنني عازباً بقيت!

مذْ حظيت ببروسربينا

أتمنى لو يضمنى القبر يومياً!

حين تلعن وتزمجر، لا أكاد أسمع

حتى نباح كلبي سيريبروس

.... (ص 74–75)

لقد حاولت بهذه المقالة القصيرة أن أجلب انتباه قارئات وقراء العربية إلى هذا الكتاب المهم الذي يقدم لنا واحداً من ثلاثة أعظم شعراء ألمانيا في القرن التاسع عشر وما بعده.

قراءة في رواية صيدُ البطِّ البرّي للروائي محمود سعيد

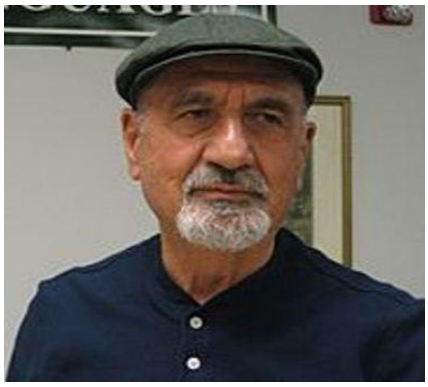

عنوان الكتاب: صيد البط البري

المؤلف: محمود سعيد

دار النشر: دار ضفاف للنشر– الشارقة – بغداد

سنة النشر" طبعة أولى 2013

ما أن تقرأ عنوان هذه الرواية للكاتب والروائي المبدع الأستاذ محمود سعيد حتى يخيّل لك أنك ستقوم برحلة مع مجموعة من الأصدقاء لصيد البط البري في إحدى الغابات أو المناطق التي تعيش فيها هذه الطيور الجميلة. ولكن ما أن تبدأ بقراءتها حتى تفاجأ بمسألة أخرى بعيدة كل البعد عن رحلة ممتعة لصيد البط البري، بل يضع الكاتب القارئ والقارئة أمام فاجعة كبرى، أمام مأساة إنسانية مريعة، أمام عملية صيد وقتل مباشر وخارج القانون للبشر العراقي، لأبناء وبنات الحضارة البابلية.

وحين تبدأ بقراءة هذه الرواية الإنسانية القيمة "صيدُ البطِّ البرّي" تجد نفسك غير قادر على تركها، فتواصل القراءة حتى تنتهي منها وأنت مفجوع بأحداثها المريعة وعواقبها المريرة وعمق تعلق الكاتب بحب الإنسان وحياته وكرامته. ستجد نفسك بشكل عفوي أمام استنتاج أساسي لا مفر منه: كانت الحروب في الماضي وما تزال حتى الآن وستبقى أفعالاً غير إنسانية مدمرة للحياة البشرية ومخربة للحضارة الإنسانية، كما أنها

تتسبب في العيش بكوابيس مرهقة لا حصر لها للشعوب، وإن الإنسان الذي عاش أحداثها يبقى يعاني طوال عمره من كوابيس منهكة للصحة والنفس. وتجارب الشعوب والأفراد تؤكد بأن كوابيس الحروب مريعة، متفاعلة، متداخلة ومنغصة لعيش الإنسان، ولن تفارقه رغم معالجات الطب النفسي. كما يتأكد لك بأن حطب الحروب أو وقودها هم الناس الأبرياء، وليس الحكام الأغبياء والأوباش الذين يزجون شعوبهم بتلك الحروب أو يشعلونها لتحقيق أهداف غير إنسانية. ولا شك في أن حروب العراق كلها تدخل في هذا السياق، سواء كانت تلك التي أشعلها النظام ذاته في الداخل والخارج، أم تلك التي أشعلتها الولايات المتحدة ومن تحالف معها لـ"تحرير الكويت" في العام 1991 أو لإسقاط الدكتاتورية في العام 2003. والحروب بالمحصلة النهائية لا تحل أية مشكلة قائمة حين يعتقد مشعلوها بقدرة الحرب على حلها، بل العكس هو الصحيح، إذ تزيدها تعقيداً وتضيف إليها مشكلات جديدة، كما تخلق جروحاً عميقة تترك ندبها العميقة طويلاً في العلاقات الإنسانية بين الشعوب.

رواية "صيد البط البري" تعتبر واحدة من أروع روايات محمود سعيد التي يعالج فيها بعض أبرز العواقب الوخيمة والمفجعة لحرب الخليج الثانية (1991) وما نشأ عنها وارتبط بها فيما بعد في حرب الخليج الثالثة (2003) ضد العراق. إنه تسجيل أمين وذكي ومؤثر لعواقب حربين ما كانتا ينبغي أن تحصلا، وما كان للشعب العراقي أن يعاني منهما، إضافة لما حصل بينهما، وما يعاني منه منذ سقوط الدكتاتورية حتى الآن. إن ما نقرأه في الرواية هو البعض البارز من عواقب تينك الحربين.

تقدم لنا هذه الرواية إنساناً عراقياً طبيعياً تخرج من كلية اللغات وجُند بالرغم منه، وكبقية العراقيين، في القوات المسلحة العراقية التي اجتاحت واحتلت الكويت في العام 1990 بعد أن كان العراق قد خرج لتوه مثخن الجراح من حرب مجنونة ضد إيران دامت قرابة ثماني سنوات. وجد المواطن المجند منصف نفسه في الكويت ضائعاً بعد غزو جنوني. تعرَّف على التذمر الذي شمل كل مواطني الكويت والعاملين فيه من العراقيين والعرب وغير العرب. شاهد بأم عينية كيف كان يمارس السلب والنهب في الكويت. ولكن كان مفجوعاً بما كان يحصل والعواقب المحتملة. لم يطل فيه المقام حتى وجد نفسه مع مئات ألوف العراقيين الجنود والضباط وغيرهم في عملية هروب جماعية من الكويت صوب العراق.

وجد منصف نفسه في وسط ألاف الجنود والضباط الهاربين من الجحيم المرتقب. كان تهديد القائد العسكري الأمريكي صارخاً: سنصطاد العراقيين كما نصطاد البط، هكذا نقل راديو مونت كارلو تصريح هذا القائد. وهكذا كان على الطريق الدولي الصحراوي الطويل باتجاه الأراضي العراقية. كانت أصوات وبيانات الدعوة إلى الهروب تسمع وتقرأ في كل مكان تذيعها وتوزعها القوات الأمريكية.

ابتعد منصف بمعطفه العسكري وبسطاله الثقيل عن الطريق العام وسار بالاتجاه الصحيح وهو يغوص ويتعثر في رمال الصحراء. هده التعب وأنهكه الجوع ومع ذلك واصل السير. ربض في حفرة بعيداً عن الطريق الدولي. غفا قليلاً. استيقظ على اهتزاز الأرض كزلزال شديد. "رفع رأسه، ارتقى تلة وحدق بالشارع، استخدم ناظوراً عثر عليه في الطريق بعد أن تخلص منه صاحبه. "رأى لهباً يمتد عشرات الكيلومترات على طول الطريق الدولي. يعلو، يحرق الظلام. انفجارات جبارة، شظايا تتناثر على بعد مئات الأمتار، سقط بعضها مدوياً على بعد مئتي متر منه، بالرغم من بعده أحس بالخوف. ماذا يعصمه من شظيّة ضالّة!". (ص 10) هكذا يصف لنا محمود سعيد حالة الجندي منصف الهارب من الكويت. رأى منصف "أسراباً هائلة من الطائرات ترمي حممها. قذيفة تقسم شاحنة عسكريّة قسمين، يتطاير العشرات من فوق السّيّارة، ينقذفون إلى الأعلى، تلتهمهم النّيران، يحرّكون أيديهم وأرجلهم كأنهم يسقطون من علٍ. طفل يلتهب، يرتفع نحو ثلاثة أمتار، ثم يسقط، سيّارات مدنيّة تغرقها النّيران، تنفجر، يتطاير زجاجها، أبوابها، ما فيها، من فيها. مئات آلاف النّاس يحترقون على طول الطّريق، ينقذفون في الهواء كأنهم تماثيل خشب. كاد يتقيّأ.. ظلت الطائرات تلقي بالقنابل ، بالمتفجرات، بالوقود حتى بداية ضوء الفجر .. عندئذ بدأت الطائرات السمتية بقنص من بقي حياً: جنود، مدنيون، نساء، أطفال، كما يقنص الصياد ضحاياه." (ص (10أليس هذا جحيماً فعلياً نفذته القوات الأمريكية ضد العراقيين والعراقيات، أطفالاً ونساء وشيوخاً عجزة.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: إذا كان الضباط والجنود يهربون بأعداد غفيرة من الكويت باتجاه العراق، عشرات الألوف منهم سيراً على الأقدام وبعضهم في عربات، الكثير منهم ترك سلاحه ولم يعد قادراً على القتال ولا يرغب به أصلاً، فلماذا استخدمت دول التحالف القذائف المحتوية على اليورانيوم المنضَّب في عدوانها على العراق في العام 1991؟ لماذا استخدمت هذه القذائف ضد أهداف مدنية وضد البشر الهارب من الكويت والذي لم يعد في أتون المعركة؟ ألم يكن هذا بمثابة انتقام وحشي من العراقيين والعراقيات لأنهم، كما قال قائد العمليات العسكرية في العراق حينذاك شفارتس كوبف، انتخبوا صدام حسين مدى الحياة؟ وهل حقاً انتخب سكان العراق هذا الدكتاتور الأرعن أم إن قمع النظام وإرهاب الدولة هو الذي فرض عليهم صدام حسين؟ إن ما حصل على الطريق الدولي كان مجزرة بشرية مرعبة، مجزرة نفذتها الولايات المتحدة مع سبق إصرار وتصميم! لنقرأ معاً وصفاً لأرض معركة تدور من طرف الولايات المتحدة ضد عزل هاربين من الجحيم، كما كتبه لنا محمود سعيد:

"غادر مخبأه، اقترب من الشّارع، كاد يتقيّأ ثانية بالرّغم من جوعه، ماتزال الدماء تسيل من بعض الجثث، لكنّ بعضها بات أسود، السّيّارات، الجثث، عشرات آلاف العائلات متفحّمة في سيّاراتها، خارج السّيّارات. رجال، أطفال، نساء، جنود عرفهم من أحذيتهم الكبيرة المميّزة، لم يبق منهم سوى أجساد متفحمّة قرب حدائد سلاح كانوا يحملونه. الوجوه تماثيل من الفحم. عظام سود. لم يدرِ لماذا كانت عيون بعضهم بارزة ومتفحّمة، توقّف. ما هذا؟ لا، لن يصدّقني أحدٌ لو رويت له ما أشاهد الآن. رجل وراء مقود السّيّارة، كلّه

من الفحم، يلتفت إلى اليسار، الشّبّاك حديد فقط، ليس هناك زجاج، كلّ من في السّيّارة متفحّم، هيكل امرأة في المقعد الأماميّ مع السّائق، ثلاثة أطفال في الخلف، لماذا كلّهم منحنون نحو الأسفل؟ مقاعد السّيّارة محترقة. حديد أسود. نوابض سود، أجساد بشريّة سود، السّائق وحده تمثال فحم منتصب ينظر إلى اليسار؟ أفاجأه اللهب فأحرقه وجمّده كنصب منحوت؟ يا لعذابه! لماذا ينظر إليه؟ الكرتان السّوداوان اللتان كانتا محجريه بارزتان، خارجتان من الجمجمة، تلمعان في ضوء الشّمس، من يصدّق؟ عينان متفحّمتان لامعتان في جُمجمة متفحّمة! في حافة الطّريق الدّولي المبلّط وعلى بعد متر واحد، اثنان تغطّي الرّمال رأسيهما، أيديهما وحدها تتمرّد على الرمال، مرتفعة متفحّمة مع أصابعها، هل نبشت القنبلة الرّمال ودفنتهما؟ سيارة يبدو سائقها كاملاً، كلّه من الفحم حتى شعره، يغطي نافوخه، كباروكة صغيرة، عيناه مفتوحتان، فمه مفتوح على أسنان كاملة قاومت اللهب، لم يحترق شيء منها، كفاه وحدهما على "دشبول" السّيّارة مستريحتان متفحمتان، حتّى ملابسه كما هي لكنّها من الفحم. جنديّ بملابسه، قتله اللّهب وطلاه بالسّخام. عينان مفتوحتان. فم مفتوح. شاربه كما هو، شعر رأسه باقٍ كاملاً لكن كل ذلك من فحم. سبعة جنود ببطانياتهم وملابسهم، أحدهم قرب الآخر، ثلاثة جنود مدفع مضادّ للجوّ متكومين على بعضهم متفحّمين، لماذا معظم المتفحّمين بلا رؤوس؟ مات سائقو السّيّارات العسكريّة متفحّمون في مكانهم، عشرات آلاف الضّحايا من فحم، منبثّون على الطّريق المبلّط الدّولي وجناحيه من الرّمال الشّاسعة كأن الصّحراء أنبتتهم، وزّرعتهم بعبثية، ومن دون نظام في أرض تمتد عشرات الكيلومترات." (ص 11/10) وحين وصل إلى بغداد بعد عذاب مرير وجد بيت والديه فارغاً. أخبرته أخته والبكاء يشل نطقها، إنهما قتلا في "مخبأ العامرية مع جمهرة كبيرة من البشر البريء الذي "راح يبغي نجوة من هلاك فهلك! مصائب متتالية شملت ملايين البشر بالعراق.

يا لبشاعة جرائم الحرب المرتكبة، جرائم إبادة جماعية وضد الإنسانية، يا لفظاعة الهدف الذي سمح بقتل عشرات ألوف البشر في يوم واحد لا غير... هل يمكن لإنسان يرى كل ذلك أن لا يصاب بعلل نفسية، أو أن يبقى سالماً معافى، أو أن لا يصاب بكوابيس تفسد عليه حياته وتقوض كيانه؟ وهل من المستغرب أن يتكرر العيش مع هذه الكوابيس في الليل والنهار، وبالتالي أن يسرح وهو يقود عربته بسرعة فائقة فتصطدم بعمود كهربائي محاولاً في اللحظة الأخيرة تجنب إصابة امرأة وطفليها بموت محقق؟ إن الاختصاصيين يطلقون على حالة منصف بـ "صدمة ما بعد الحرب"، وهي لعمرى أقسى الصدمات المنغصة لعيش الإنسان الذي يرى كلَّ تلك المآسي ويبقى على قيد الحياة!

إن منصفا ليس إلّا نموذجاً لعشرات الآلاف من العراقيين الذين يعيشون كوابيسهم اليومية في أعقاب حروب متتالية وحصار وموت جماعي خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين وما بعدهما.

لم تكن القوات الأمريكية وحدها شرسة وقاسية مع الشعب العراقي ومع المجندين على نحو خاص، بل كان النظام العراقي شديد الشراسة مع الشعب العراقي وشديد القسوة قبل الحروب وأثناءها وما بعدها. فالجندي

أو الضابط الذي ينجو من الموت أثناء الحرب ويتراجع ويعجز عن حمل سلاحه بسبب الجوع والإنهاك وفي حالة هروب جماعي من قوات العدو التي تطارده، يجبر عملياً على ترك سلاحه، ولكنه يحاسب ويحكم عليه بالموت. هذا ما تشير إليه الرواية في الحوار التالي بين مجموعة من الجنود وضابط عراقي، بعضهم يريد الذهاب إلى الولايات المتحدة:

"توقّع كمعظم النّاس، العاديّين، المثقّفين سقوط الحكومة بين لحظة وأخرى .إن تغّيرت الحكومة فلم الذهاب؟ ردّد غير واحد ذلك. لكنّ الجميع فوجئوا باتّفاق خيمة سفوان مع الأمريكان. هتف أحدهم بألم: "سيبقى الوضع، لن يتغيّر." "سيعود كلّ شيء إلى ما كان عليه" "التّغيير حلم، بعيد المنال "أحسّ بخسارة مضاعفة. حتّى وفاة والدّيه لم تدخل البؤس إلى قلبه، أصابته بحزن عميق فقط. لكنّ بقاء الوضع خلخل كيانه. هتف أحدهم بلوعة: "بعد كلّ التّضحيات، والموت، والحرق والدّمار سيبقى السّيف مصلّتاً على الرّقاب ."اجتثّ خبر الخيمة ما تبقى من فرح، سعادة، أمل في الحياة. أحسّ أنّ الشّؤم ساد في جوّ المقهى ثقيلاً، قاتلاً. لكنّ أحدهم نظر بغتة إلى الصّورة المعلقة على الحائط، هتف بسخرية: أهلاً! أهلاً بالنّشمي! ضحك غير واحد .علّق أحدهم: أسد عليّ وفي الحروب نعامة.

– منصف؟

التّفت إلى الدّاخل، شخّص المتكلّم، عميد تقاعد قبل الحرب ببضعة أشهر. رآه بين حين وحين من قبل في غير مناسبة، أوّل مرّة يتكلّم معه، كيف عرف اسمه؟ في الوقت نفسه دخل المقهى كهل حنطيّ اللون، متوسط القامة، لم يتجاوز الخمسين. شعر وجهه لم يحلق لبضعة أيام، سروال كحلي وسترة جلد، ملامحه حزينة، وقف قرب مسطبته. أجاب منصف: "نعم". جاء صوت العميد قويّاً مباشراً من زاوية المقهى. هتف: "أنت مازلت جنديّاً. أين سلاحك؟". ارتجّ على منصف :لا أدري تركته في قلعة صالح. لماذا؟

ستُستدعى وتُسأل عنه، ستُحاسب أنت وغيرك.

ارتفع غير صوت في المقهى: أبني جنديّ. أخي جنديّ، أولاد أخي جنود، ألآلـ..

قاطع العميد: كلّهم سيُسألون عن السّلاح، القانون نفسه موجود قبل الحرب وبعدها، مادام النّظام باقياً سيحاسبون، سيُعاقبون، سيكون مصيرهم الإعدام أو السّجن، قانوناً هم متخاذلون، يعني جبناء، يعني إعدام أو سجن إن رأف بهم القاضي، أعدم عزّة الدّوري أكثر من ألف منسحب من المحمرّة." (ص 14(منصف، الذي هاجر إلى أمريكا بواسطة مكتب الهجرة التابع للجيش الأمريكي، يعيش في الولايات المتحدة حياة معقدة، يعيش الماضي بكل حذافيره ومآسيه يومياً، وحين يجد الفرحة في الجنس أو اللقاء بأصدقاء له ولو لساعات، تعود إليه الكوابيس، وكأنها تنتقم من سعادته القصيرة، فيصرخ إلى الحد الذي يرعب النساء

اللواتي يمارس الجنس معهن. يهربن مرتاعات من صراخه ولا يعدن له، رجل يعيش الرعب الوحشي. واحدة فقط عشقته ووافقت على العيش معه، إنها حليمة، ولكنها لعوب!

رواية صيد بط بري لا تقدم لنا طريق الآلام والحزن والأسى في حرب "تحرير الكويت" حسب، بل وتجعلنا نقف غاضبين أمام مأساة "ملجأ العامرية" الذي قصف بقنبلتين "وزن الواحدة ألفا رطل، اخترقتا سقفاً بسمك يزيد عن مترين" حيث قتل فيه 400 إنسان معظمهم من النساء والأطفال والمسنين، من بينهم والد ووالدة منصف"، إضافة إلى ما أعقب حرب الخليج الثالثة من جرائم بشعة ارتكبتها القوات الأمريكية ورجال الأمن الأمريكيون في سجن "أبو غريب". هكذا كانت الولايات المتحدة في قنابلها النووية على هيروشيما ونغازاكي وفي حربها ضد الفيتنام ويوغسلافيا، وكذلك بالعراق.

لقد دوختنا الإدارة الأمريكية بدعايتها الباهتة عن حقوق الإنسان والقيم الحضارية الحديثة، وإذا بها ترتكب أبشع الجرائم بحق السجناء، بغض النظر عن الجرائم التي ارتكبها هؤلاء السجناء، فهم أمانة في عهدة القوات الأمريكية ويفترض أن يحاسبوا أمام القانون، وإذا بهم يسامون سوء العذاب من تعذيب نفسي وجسدي يفوق ويتماثل مع ما كان يرتكبه صدام حسين. وقد تعلمت أجهزة الأمن العراقية الجديدة و"المؤمنة بالله والرسل والمعصومين من أهل البيت والآخرة!" من تلك الأجهزة الأمريكية وأجهزة الدكتاتور صدام حسين الكثير من أساليب التعذيب الوحشية التي تمارس ضد المعتقلين والسجناء في الوقت الحاضر.

والكاتب لا يقدم لنا صورة مفصلة وأمينة عن عواقب الحروب ومآسيها الفردية والخاصة، بل ينقل لنا لوحات عميقة المعاني والأبعاد عن نماذج من العراقيين والعراقيات الذين يعيشون الغربة والصراع الداخلي من جهة، والاختلاف ما بين ثقافتين وانعكاسات ذلك على تصرفاتهم الشخصية، رغم وجود قيم عامة وشاملة .فحليمة المرأة العراقية المتزوجة ثماني مرات هي عاشقة مولهة بمنصف وتشتعل فيها نيران بابا گرگر في داخلها (آبار النفط السطحية فى كركوك). والحوار التالي بين حليمة ومنصف يعبر عن التحولات التي تطرأ على الإنسان حين ينتقل من ثقافة ليعيش في أجواء ثقافة أخرى أكثر تحرراً وامتلاك الفرد لحريته، مع بقاء الخشية التي تحيطه بسب المحيط العراقي القريب منه:

"قهقهتْ ساخرة: "شرب الخمر و "باب گرگر " "أشارت إلى وسطها العاري" وتديّن؟ أنت منافق." ظلّ يحدّق فيها! تطالبها عيناه بالتّوضيح. مدّت ذراعها، حددت نحو خمسة وعشرين سنتمتراً من ساعدها، قالتْ: "أضحّي بهذا الطّول." نظر إليها شاكّاً، مدّ ذراعه، وضع أصبعه على منتصف ساعده: "بهذا الطّول؟ "هزّت رأسها، وهي تخرج ذؤابة لسانها متلمّظة: "نعم". انفجر ضاحكا: "منذ متى وأنت تعاشرينه؟". ردّت جادّة: لم أعاشره قطّ. تزوّجنا. طلّقته بعد ثلاث سنوات زواج، ثمّ تزوّجت المكسيكيّ خمس

سنوات، عندما سمع أن المكسيكيّ طلّقني، جاء مستعطفاً، لم أدخله بيتي. ظلّ يتوسّل، حتّى أقنعني بالزّواج مرّة أخرى. لم أعاشر أحداً من دون زواج سواك.

وقف خلفها، أخذ يفرك كتفيها العاريتين: "لماذا طلّقته؟". أمسكت يمينه، قبلتها: ضرب ابنتي، طردته، ثم طلّقته، لكنّا ظللنا أصدقاء". لم يقتنع، سأل ضاحكاً: "والمكسيكيّ؟". أجابت حالاً: "ظنّ أنّني أخونه." وضع خديها بين كفيه: "أفعلتِ؟". ارتجت، تحرك ثدياها: "بالطّبع لا، الخيانة زنى، حرام ."ابتسم: "لكنّا كنا نلتقي". انفجر ضاحكاً، حدّقت به مستغربة: "عندما يسافر فقط."

-أليست هذه خيانة؟

-أنت وحدك.

ابتسم وهو يهزّ رأسه: "الزّنى معي إخلاص، ليس خيانة؟". أغمضت عينيها: "إنّه موضوع آخر". جلس، أخذ ينقر على المنضدة، ويشرب الشّاي: ما هو؟

-يخونني مع أخريات.

-أأنت متأكّدة؟

-نعم.

-لماذا لا تصارحينه.

-لا أملك الدّليل." (ص 57)

وحين التقى في بيت صديقه بكر بفتاة من شيكاغو أثناء احتفال بعيد ميلاد صديقة لها، راحت إليزابيث تغازله منذ النظرة الأولى وتعبر عن حبها له بعفوية رائعة وعشق معلن، وهي الوحيدة التي تولع بها حقاً وربما رغب بالزواج منها، لولا الخشية من كوابيسه وصراخه الذي لم ينفعه الطبيب النفساني كثيراً. ثم التقى بتلك العاملة المكسيكية التي تتجنبه أثناء عملها ورفضت العلاقة به، ولكن حين تجنبها لاحقته والتقت به ومارست الحب معه، ولكنها لم تحتمل صراخه أثناء النوم حتى أجبرته على مغادرة دارها ولم تعد إليه، إنها الكوابيس المرعبة التي يعيشها باستمرار.

تقدم الرواية لنا جوانب أخرى من الحياة في الولايات المتحدة، عن الحب والحركة وحياة الناس. تقدم لنا لوحات منوعة عن تضامن الملايين مع الشعب العراقي ضد الحكومة الأمريكية وقراراتها بالحرب والتجويع وعن تخلف العراقيين والعرب عن المشاركة فيها.

تبدأ الرواية بالربط المحكم والسلس بين الكوابيس والارتطام بالعمود الكهربائي ومديرة الشركة التي يعمل فيها. بسر المرأة الصارمة التي أطلقوا عليها مسز تاتشر"، المديرة التي زادها صرامة وجهامة تلك

اللصقتان اللتان وضعتهما على خديها فزادها قبحاً، رغم رشاقتها وقدها الجميل وشعرها الأشقر .وكان الجميع يعتقد بأنها أمريكية أو من أمريكا الجنوبية. وفاتحته بالحادث الذي ارتكبه وهو غاطس في أحد كوابيسه. ساعدته لينجو من العقوبة ودفعته للاستقالة من العمل لتشغله عندها ولو لفترة. التزم تعليمها الضرب على الحاسوب الإلكتروني مقابل أجرٍ مغرٍ. وفي بيتها فوجئ بأنها عربية وتريد تعلم الضرب على الحاسوب بالعربية واسمها سناء وإنها جميلة جداً. اكتشف أنها حين دعته إلى عشاء في مطعم فاخر فلم يتعرف عليها لولا صوتها. وكانت قد رفعت اللاصقين عن خديها الجميلين. أدرك سبب جمال ابنتها فجر التي رأى صورتها في بيتها. وتساءل مع نفسه، لماذا كانت تمارس لعبة اللاصق على الخدين ولا تكشف عن هويتها العربية وتمارس القسوة والصرامة رغم رقتها وعذوبة صوتها؟ هل كانت خشية من ملاحقة ومضايقة العرب لها أو غيرهم لجمالها، أو التخلص من محاولات التقرب لها للحصول على مكاسب في العمل أو الجنس؟ لا أحد يدري.

والرواية تنتهي بمفاجأة أكبر من البداية، بدراما فعلية، بمأساة شخصية لسناء، لكنها كانت قد حسبت لها وتوقعت ذلك حين طلبت منه أن يكون عونها حين تحتاج إليه. وافق. اكتشف إنها حين استقالت من عملها في الشركة لم تعمل في الخليج كما أخبرته، بل نجحت في اختبار العمل مع القوات الأمريكية بالعراق، وإن تعلمها العمل على الكومبيوتر والكتابة على الحاسوب بالعربية لم يكن إلا بهدف العمل بالعراق. وكان يعتقد أنَّ عملها في الخليج سيجلب لها المال الكثير، وإذا بها تعمل مع الأعداء الذين رفض هو العمل معهم حين خير بين البطالة والتسكع والعمل مع القوات الأمريكية كمترجم وبراتب كبير جداً لا يحلم به. كانت المفاجأة حين اتصلت ابنتها به راجية منه مساعدتها، وهو الذي وعد أمّها بمساعدتها عند الحاجة. وحين التقت به أخبرته بالمفاجأة الكبيرة، أمها سجينة في سان دييغو بعد أن صدر الحكم عليها من محكمة عسكرية بسبب أسرار سربتها من العراق. وإنها الآن بحاجة إلى مساعدته. وعرف منها إنها ملاحقة وتحتاج إلى مساعدته، وأن هناك من اتصل بها يريد رؤيتها سراً وفي وقت محدد. إنها مفاجأة كبيرة ومليئة بالأسرار والأخطار. رافق البنت إلى محامي متطوع للدفاع عن الناس في مثل هذه الحالات. الأم متهمة بتسريب معلومات عن سجن أبو غريب وسجنت لهذا السبب. رجل مجهول اتصل بالابنة وطلب حضورها في موعد ومكان معينين ليسلمها شيئاً. نظم منصف توزيعاً للأدوار، صديقه بكر في مكان والصديق الآخر الأيمن في مكان آخر يراقبان الطرق، هو وإليزابيث وفجر وقفوا في المكان المحدد. "كانت الدقائق الأخيرة بطيئة مشحونة بالقلق والترقب" توقفت فجأة، ودون أن يشعرا بذلك، دراجة بخارية يقودها ملثم سلم فجراً كيساً كبيراً وأسرع بدراجته بعيداً عنهم لا يلوى على شيء. حين فتحوا الكيس وجدوا أنه مليء بالأشرطة التي هربتها أمها نحو الخارج وهي كلها تدور عن سجن "ابو غريب" وربما عن قضايا أخرى غير أبو غريب ضمن الأفعال غير الشرعية التي ارتكبتها القوات الأمريكية بالعراق. بهذا تنتهي الرواية تاركةً للمستقبل كشف ما في هذه الأشرطة من

أسرار حين يكون الوقت مناسباً، واتخذ المحامي الخطوات الأولية للقاء بين الابنة والأم في سجنها والدفاع عن الأم في محكمة التمييز والقلق يؤرقهم، بين الأمل والواقع المرّ.

لهذه الرواية نكهة خاصة. فهي تطرح موقفاً واضحاً من أكثر من حرب واعتداء، من احتلال وتعذيب وموت بالجملة، من شعب ما يزال يعيش عواقب تلك الحروب والسياسات. فالرواية تتسم بالحبكة المتماسكة والسلاسة في تصوير الأحداث ولا تخلو من نكتة ومداعبة أو ضحك حتى على النفس. كما أنها من الروايات الهادفة التي تدفع بالقارئ أو القارئة نحو إعمال العقل والتفكير بالأحداث برؤية تستند إلى القيم والمبادئ العامة والشاملة. إذ إنها تطرح الكثير من التساؤلات عبر السرد أو الوصف أو تسجيل المواقف. وللكاتب على امتداد الرواية تشعر بالجهد الذي بذله لكتابتها ولتحديد موقفه الثابت والواضح من تلك الأحداث والذي يتجلى في الموقف الصارم والحازم لمنصف الذي يدين الحرب والمآسي والآلام التي تحملها الشعب العراقي في الطريق الدولي بين الكويت والعراق وعذابات وآلام سجناء أبو غريب وضحايا ملجأ العامرية والعمل مع القوات الأمريكية بالعراق أو حتى بأمريكا. وفيه إدانة واضحة وصريحة لكل من عمل ويعمل مع القوات الأمريكية. ولكنه في الوقت ذاته يقف مفكراً بجدية حين يكتشف القرار الذي اتخذته سناء، ذات الهوية العربية الفلسطينية، في العمل مع القوات الأمريكية، بهدف فضح سياساتهم وأفعالهم بالعراق. لا شك، إن الرواية تطرح الصراع الفكري الذي يعاني منه المغترب، الصراع بين القيم والمعايير التي اكتسبها من ثقافته الشرقية الإسلامية والعربية وبين الثقافة الغربية الأمريكية بقيمها ومعاييرها الحديثة، وما يصاب به المغتربون من توترات بينهما ومن ضياع في بعض الأحيان بين "مدينتي لا ونعم "حسب وصف الشاعر الروسي أفتوشنكو. ورغم التحرر الذي يبدو عليه منصف، بطل الرواية، فإنه يبقى خاضعاً لأخلاقيات شرقية يحاول فرضها على الآخرين، كما في قضية زواج ابنة حليمة من أمريكي مسيحي وهي مسلمة، والعكس صحيح أيضاً حين يحاول الأمريكي "الحضاري" فرض مسيحيته على البنت للزواج في الكنيسة. ولكن الصراع الداخلي يبدو أكثر شدة حين يخضع لرقابة الدين والحرية الفردية، بين القلب المتعطش للحب وبين الدين الذي يفرض عليه موقفاً معيناً، فهل يجوز لنا أن نضع الدين رقيباً على قلوب وعقول الناس؟ هذا السؤال يفرض نفسه حين نقرأ الحوارات بين حليمة ومنصف. إذ يضع الكاتب بطل الرواية أمام امتحان عسير، بين الوظيفة التي يفترض الذهاب للمقابلة من جهة والسفر إلى حبيبته الجديدة إليزابيث بشيكاغو أو إلى حليمة بسان دييغو وبين المشاركة في مظاهرة واشنطن ضد الحرب. فيقرر ودون أدنى تردد المشاركة في المظاهرة الاحتجاجية . ويضعنا القارئ أمام حالة أخرى تستحق المقارنة. في المظاهرات التي شارك فيها أكثر من مليوني إنسان في مختلف المدن الأمريكية عرض بواشنطن حماراً يحمل اسم بوش. وليس هناك من حاسب الفاعلين. لو حصل هذا بالعراق ووضع اسم نوري المالكي أو قبل ذاك صدام حسين أو أي مسؤول أو "زعيم!" عراقي أو عربي أو مسلم آخر على حمار مماثل، فماذا كان سيحصل للفاعل أو الفاعلين؟ كلنا يدرك عواقب ذلك!!

إن الرواية باختصار جديرة بالقراءة والتفكير بما وقع للعراق خلال العقود الأخيرة وما يعاني منه اليوم. إنها شهادة مهمة لتلك الأحداث ولو لجزء مهم منها.

لقد تمتعت بقراءة هذه الرواية ولم يكن الكتابة عنها سهلاً، وتمتعت بالكتابة عنها وتعلمت منها، وسيطرا عليَّ الحزن والكآبة، ولو لفترة، لأن الرواية تتسم بانتقالات بينية، تمنح فرصة التغيير بين الحزن والفرح، بين الجنس والكوابيس، تلك اللفتات الجميلة والحوارات المنعشة واللقاءات مع الطالبات والطلبة ومع حليمة وإليزابيث وسناء في بيت بكر والأيمن.

تشرين الثاني/ نوفمبر 2013

قراءة في راوية "متاهة إبليس" للروائي العراقي برهان شاوي

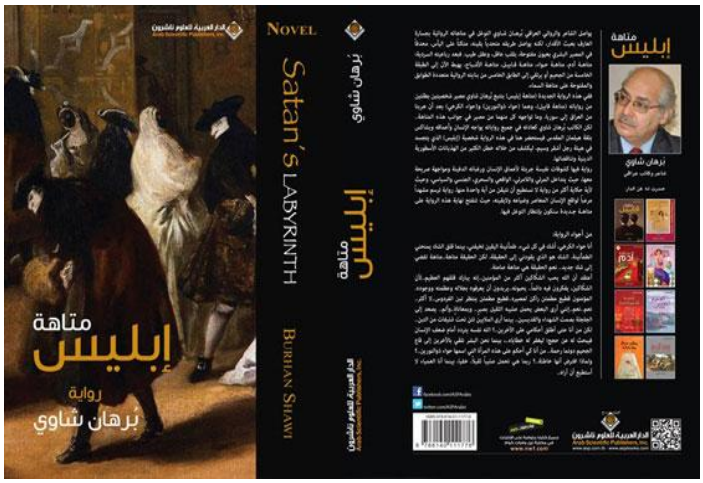

الكتاب: رواية تحت عنون "متاهة إبليس"

المؤلف: د. برهان شاوي

دار النشر: الدار العربية للعلوم ناشرون-بيروت

سنة النشر: 2014

حين انتهيت من قراءة رواية "متاهة إبليس" للكاتب والشاعر والروائي المبدع برهان شاوي أدركت المخاطر المحتملة التي يمكن أن تواجه هذه الرواية في الدول العربية حيث يقرر موظفو الرقابة على الكتب منعها من دخول أسواق الكتب في هذه البلدان وتحريم قراءتها وتداولها، كما حصل لها أخيراً بالأردن، أو كما حصل لروايات أخرى للكاتب نفسه في بعض دول الخليج. وهنا تذكرت معاناة الكاتب والروائي المصري المميز علاء الأسواني في نشر روايته الموسومة "أوراق عصام عبد العاطي" مع "لجنة القراءة في هيئة الكتاب، وهي لجنة رقابية تساعد في نشر الكتب أو توقف نشرها على وفق ما يرتئيه الموظف المسؤول. وبسبب هذه المعاناة حذر الكاتب قراء رواياته من ثلاث مسائل جوهرية غالباً ما تخلط فيها لجان الرقابة الحكومية على الكتب أو بعض القراء أيضاً. فعلاء الأسواني، الذي اصدر سلسلة روايات رائعة مثل "عمارة يعقوبيان" و "شيكاجو" و "نادي السيارات" و"نيران صديقة" وغيرها من القصص القصيرة والكتب الثرية، حيث تسنى لي قراءة رواياته الممتعة، يؤكد للقارئ ضرورة الابتعاد عن الخلط أو عدم التمييز بين الأفكار والرؤى التي ترد في رواياته على لسان شخصياته وبين أفكاره

وأرائه الشخصية، فهي ليست واحدة بالضرورة، إذ هو يعيد كتابة ما تنطق أو ما تفكر به شخصيات رواياته أولاً. كما يفترض في القراء أن يميزوا بين الواقع، أو الحقائق الواقعية النسبية، وبين الخيال، إذ بدون خيال خصب وحيوي متدفق تفقد الرواية الكثير من جماليتها ومتعتها، فالواقع والخيال في الرواية صنوان لا ينفصلان، ويفترض في القارئ أن يميز بينهما بحسه الثقافي وخبرته الحياتية ثانياً. وأخيراً يرجو الروائي علاء الأسواني من القراء أن يبتعدوا عن تعميم شخصيات رواياته وكأنها تعبر عن مجموع الشعب المصري. ولكن مثل هذه الشخصيات التي ترسمها ريشة الروائي موجودة في واقع الحياة اليومية، فهو لا يختلقها، ويمكن أن يساهم خياله في رسمها، ولكن في مجملها موجودة في المجتمع المصري. ويفترض في القراء أن يناقشوا الأفكار والآراء الواردة على لسان شخصيات رواياته ويقرروا مع أنفسهم القبول بها أو رفضها أو توجيه النقد لها أو رفض بعضها وقبول البعض الآخر. إنها قضية القارئ والقارئة لا غير.

كانت معاناة علاء الأسواني غير قليلة في نشر رواية "أوراق عصام عبد العاطي" أو "عمارة يعقوبيان". فقد ورد على لسان بطل رواية "أوراق عصام عبد العاطي" تسفيهاً لقول مصطفى كامل " لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً"، إذ اعتبر الرقيب إن النقد الموجه لهذه العبارة إساءة كبيرة للشخصية السياسية الوطنية المصرية وتجاوز على الشعب المصري وتراثه الحضاري وتاريخه!!

واستناداً إلى هذه وغيرها من المطبات يبدو ضرورياً التنبيه إلى أن رواية "متاهة إبليس" تتضمن العناصر الثلاثة التي حذر منها الروائي علاء الأسواني بعدم السقوط في فخ الخلط بين آراء الكاتب وشخصيات رواياته، وبين الواقع والخيال أو الرغبة الجامحة لدى رقباء الكتب وبعض القراء في التعميم.

والأسئلة التي تتبادر إلى الذهن هي: لماذا تُفرض الرقابة على الكتب، وأين تكمن المشكلة، وما الهدف منها؟ يبدو لي إن المشكلة تكمن في خمس نقاط جوهرية تعاني منها مجتمعاتنا ودولنا الشرق أوسطية، هي:

1. **غياب الحياة الدستورية والحريات الديمقراطية والتجاوز الفظ على حقوق الإنسان وحقه في اختيار ما ينبغي أن يقرأه الفرد وما يجب عليه الابتعاد عنه.**
2. **اعتبار القارئ في هذه الدول لا يملك حساً نقدياً وقدرة على التمييز بين الصالح والطالح، بين النافع والضار، بين الجميل والقبيح في ما يقرأ، وبالتالي فإن الرقيب يريد أن يفرض عليه سلوكاً ووجهة وأخلاقيات معينة فيها الإجحاف الشديد والضرر البالغ بحقوق القراء في هذه الدول.**

3. **الخشية من أن تحمل هذه الروايات أو الكتب أفكاراً جديدة تسمح بتفتح عقول وقلوب الناس وتكشف لهم واقع الحياة البائسة والفاقة الفكرية التي يعيشون تحت وطأتها أو الظلم الذي يتعرضون له أو التمييز والتهميش وما إلى ذلك، وبالتالي يدركون واقع التجاوز على حقوقهم، حقوق الإنسان.**
4. **وأن الموظفين الذين يمارسون دور الرقيب على الكتب يعانون من فاقة فكرية واجتماعية ومن مستوى ثقافي لا يؤهلهم احترام إرادة القراء أو احترام الكتاب والكتب بما يساعدهم على تجنب فرض الرقابة على الكتب، وهم أبناء مخلصون للحكم الاستبدادي ورغباته في قهر إرادة وحق الشعوب في الحرية وفي اختيار ما يقرأون.**
5. **وفي هذا تعبير صارخ عن رغبة الحكام في الاستمرار في حكم البلاد وتجنيب المجتمع أي نوع من الإثارة ضد حكمهم القائم.**

وعن مثل هذه المجتمعات والنظم الحاكمة السائدة فيها وما ينجم عنها من أوضاع اجتماعية وثقافية وسياسية تحدثنا رواية "متاهة إبليس" للروائي برهان شاوي حيث تجري أحداثها فيها. كما إن رواية المشرحة للكاتب نفسه تحدثنا عما يجري في مدينة بغداد المستباحة بالكامل من قوى الإرهاب والميليشيات الطائفية المسلحة، أو "رواية متاهة قابيل" و"متاهة حواء" على سبيل المثال لا الحصر، إضافة إلى مجمل الأوضاع الشاذة والاستثنائية التي يعيش تحت وطأتها العراق التي جعلت الكاتب العراقي اللامع والمبدع أحمد سعداوي أن يكتب للقراء بخياله الخصب من واقع الحياة رواية "فرانكشتاين في بغداد" التي حازت على الجائزة العالمية للرواية الغربية "البوكر" لعام 2014. لقد تمتعت كثيراً بقراءة رواية أحمد سعداوي والتي حازت على تقدير الكثير من القراء والنقاد في آن واحد، رغم المرارات التي حملتها للكاتب نفسه وما تحمله معها للقراء أيضاً.

لقد تمتعت بقراءة رواية "متاهة إبليس" لقدرة الكاتب على رسم شخصياته وبث الروح فيها ومتابعة حركتها وفعلها، وعلى دمج الواقع بالخيال وترك القارئ، لعمق الكوارث وسعتها وشموليتها بالعراق، يحتار في التمييز بين الواقع والخيال، إذ ما يجري على أرض العراق حقاً ينتمي إلى صنف الخيال المريض. وقد وددت بهذا المقال أن أجلب انتباه القراء إلى هذه الرواية، لأنها تضع القراء أمام حقائق الأوضاع المتشابكة بحيوية فائقة وخيال خصب للكاتب بما يسهم في تعبئة النص بالمزيد من المضامين الصارخة وتوفر للقارئ متعة القراءة.

الرواية تدور في أماكن عدة، تبدأ ببغداد حيث الشخصيات الرئيسية للرواية، لينتقل بنا الروائي معهم إلى دمشق، ثم إلى إيطاليا ليستقر فيها قليلاً، ثم يغادرها إلى باريس دون أن يتوقف فيها، ولكنه يمر على دول عديدة ليلتقط منها بعض شخصيات الرواية. الفترة الزمنية إلى حد ما محدودة، ولكنها

مفتوحة بسعة رحبة على الماضي والحاضر وعلى المستقبل أيضاً. فالأحداث التي ترويها الرواية هي نتاج العلاقات السياسية والاجتماعية في هذه البلدان، وبالتالي فتكرارها ممكن وإن كان بصيغ أخرى مقاربة لها أو مختلفة عنها نسبياً. أي إن الأساس المادي لحصول هذه الأحداث هو الذي يسمح بتكرارها ما دام الأساس مستمراً في وجوده.

رواية "متاهة إبليس" تقدم لنا مجموعة من الشخصيات الواقعية الموجودة في حياتنا العراقية اليومية المعاصرة، فهذه الشخصيات عراقية عاشت طيلة أربعة عقود تحت وطأت الاستبداد القومي والبعثي الشوفيني وعانت مع بقية المجتمع من أساليب النظام الفاشية في الحكم، عرفت الحروب والدمار والخراب والحصار الاقتصادي، وعاشت الإرهاب الحكومي والتهجير القسري والتعريب والقتل الجماعي ومجازر الأنفال، عاشت القتل اليومي على أيدي جلاوزة الحكم وعرفت الفساد المالي والإداري. ولكنها عرفت أيضاً، ومعها المجتمع بأسره، بعد سقوط تلك الدكتاتورية، النظام الطائفي المحاصصي واستبداد الحاكم بأمره والإرهاب الدموي والفساد السائد على أوسع نطاق. ومثل هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية تنتج شخصيات من هذا النوع، شخصيات هزيلة ومهزوزة وانتهازية ونذلة، تعيش الصدمات وتساهم فيها للآخرين.

وأبرز الشخصيات التي تروي الرواية حكايتها يلتقي القراء بشخصيتين نسويتين هما حواء الكرخي وحواء ذي النورين. كلتاهما هاربتان من بغداد تلتقيان في حافلة تنقلهما إلى الشام. إحداهما تحمل مالاً كثيراً والأخرى تحمل طفلاً رضيعاً ليس طفلها. امرأتان تختلفان في العوامل التي دفعتهما للهروب من بغداد، ولكنهما مطاردتان من مسؤولين في النظام الجديد أو من مليشياتهم المسلحة أو الأجهزة الأمنية. حواء الكرخي تحمل طفل صديقتها التي قتلت في انفجار مقصود لسيارة كانت تقلهما وآخرين معهم انتقاماً منها. وحواء ذي النورين تعرضت للاغتصاب الجنسي بأمل إنقاذ أبنها المعتقل، وحين يطلع الابن على فيديو الاغتصاب وأسبابه ينتحر في مرحاض السجن. الأم المنتحرة متزوجة من مسؤول كبير وكادر في الأحزاب الإسلامية السياسية الحاكمة، زوج ظالم وشرس ومرتشٍ في آن واحد ولديه جلاوزته. تأخذ من أموال زوجها ما استطاعت وتهرب بها إلى الشام. شخصيتان نسائيتان مختلفتان في المشكلة وفي الموقف والسلوك والمستوى الثقافي وفي الانتماء أو الموقف السياسي تلتقيان في الحافلة المغادرة إلى دمشق، الشك يسود بينهما بسبب انعدام الثقة بين الناس ودور المخبرين السريين وأجهزة الأمن والخشية من الاعتقال. ومع ذلك ينشأ نوع من التضامن العفوي بين المرأتين والاستعداد للمساعدة. فمعاناة المرأة عموماً ومعاناة كل منهما بالعراق جعلتهما غير بعيدتين عن بعضهما. وبعد وصولهما الشام افترق دربهما. حواء الكرخي يساعدها مختار العراقيين الديمقراطي بالشام، والأخرى تساعدها إيفا سميث اللبنانية القادمة من باريس لتساعد صديقتها السورية، حواء

الدمشقية، التي تواجه ورطة اجتماعية. ورغم أنهما بعيدتان عن بغداد فإنهما كانتا تشعران بجواسيس وعيون النظام العراقي تطاردهما.

حواء الكرخي، المرأة الديمقراطية الواعية والمثقفة، تقتل في وضح النهار وفي أحد شوارع دمشق وهي في طريقها إلى الطفل الرضيع في الشقة التي استأجرتها دون أن يتسنى لها توفير الحماية للرضيع. تقتل وتدفن ويسدل الستار على القتلة، تماماً كما يجري ببغداد وتسجل الدعوى، إن سجلت أصلاً، ضد قاتل مجهول!

وحواء ذي النورين تتعرف على مدير الفندق أدم الشامي، المنتمي إلى حزب البعث الحاكم بسوري، وهو جاسوس وقواد للمسؤولين الكبار في المباحث والجيش والشرطة وفي الجهاز المدني. شخصية معدومة الأخلاق والضمير، كما إن عائلته تمارس القوادة للمسؤولين أيضاً. وهنا يشعر الإنسان بالعلاقة التي تشد النظامين في كل من سوريا والعراق، سواء أثناء وجود البعث بالعراق أم بوجود النظام المحاصصي الطائفي وممارسات جمهرة من الحكام والمسؤولين. يوفر أدم الشامي جوازاً مزوراً لحواء ذي النورين في مقابل مبلغ كبير من المال واغتصابها في شقته في الفندق. بعدها تغادر بالجواز إلى إيطاليا وتهرب من مطارديها الذين وصلوا إلى الشام بأمر من زوجها، أحد كبار المسؤولين ببغداد.

الريشة التي رسمت هاتين الشخصيتين النسويتين ذات حرفية عالية، ذات ماهرة فنية وخيال خصب، دقيقة وحساسة وواعية لما يجري في أعماق النفس البشرية وما تعاني منه المرأة في المجتمعات الذكورية. وحين يتحدث أدم الشامي عن نفسه وعن آماله وطموحاته وعن مشاريعه يلتقي بإبليسه مباشرة، يتحاور معه، يحاول أن يهرب منه أو أن يتقمصه بالكامل، أو ينفي علاقته به, إنه إبليس أو أدم الشامي ذاته، فالشر ينطلق منه ليلقى على عاتق إبليس الذي هو وليس غيره. النسوة يعشن الخشية من أدم الشامي، ويرون إبليس بعينه يلاحقهم في كل مكان، إنه جليسهم في مقهى الفندق أو في شوارع دمشق أو في دكاكين وأزقة إيطاليا، إنه هم لاغير!!

إن الرواية تضعنا وجهاً لوجه مع المتاهات التي تواجه حواء ذي النورين وحواء الدمشقية، وقبل ذاك واجهت حواء الكرخي. هذه المتاهات ليست سوى الرثاثة الكاملة التي يعيش فيها المجتمع بالعراق وبسوريا وببقية الدول الشرق أوسطية، إنها الرثاثة في الفكر والسياسية والحياة الاجتماعية والثقافة والبيئة، إنها الثقافة الخائبة الناتجة من الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي تعيش فيه هذه المجتمعات ونظمها السياسية ودولها، إنها الرثاثة التي تخلق الإنسان الرث في متاهاته. بعد ذلك ينقلنا الروائي المبدع برهان شاوي إلى محيط آخر، إلى المجتمع الإيطالي والحضارة الإيطالية، مع حواء ذي

النورين ومع الرسام العراقي المغترب أدم بوناروتي، يطاردها إبليسها الداخلي ويقض مضاجعها ويعمق الشبقية المرضية فيها، فتشتهي الرسام وتشتهي إبليسها في آن. والرسام العراقي الذي يعيش على رسم الكاريكاتير والأشخاص يعاني من علل عديدة ويعب الخمرة كما يشرب غيره الماء فيعجز عن ممارسة الجنس ويحس وكأنه مقطوع الذكر ويخيب أمل وشبقية حواء ذي النورين!

يتنقل الروائي بالقارئ وعلى لسان الرسام العراقي بين قمم الحضارة الغربية، بين مبدعي الفن التشكيلي والموسيقيين الكبار وفن العمارة والحياة العامة، ويضعنا أمام إيطاليا كمتحف للفن الإنساني العالمي من جهة وأمام الفجوة الفاصلة بين حضارتين، حضار الشرق المتخلف وحضارة الغرب المتقدم. وبدون أن يشير إلى ذلك يدرك القارئ عمق هذه الفجوة الحضارية الراهنة وسعتها بين الشرق والغرب, والذي يتجلى بصورة صادمة في تباين الأفكار والمنطق والسلوكيات والممارسات اليومية والأجواء النفسية وسبل التعامل والعلاقات بين الناس. وفي عرضه السردي الممتع والنقاشات الفكرية والاجتماعية بين شخصيات الرواية أو مع أنفسهم أو مع أباليسهم، يضعنا الكاتب أمام مستويين من الوعي العام لدى الإنسان الشرقي المرتبط مباشرة بواقع المستوى الواطئ جداً للقوى المنتجة المادية والبشرية، ولدى الإنسان في الحضارة الغربية التي قطعت شوطاً بعيداً في تطور القوى المنتجة وفي الوعي الاجتماعي العام.

فهنا نلتقي بالحضارة الشرقية التي تعاني من التخلف والانقطاع عن مسيرة الحضارة البشرية وما قدمته هذه المنطقة في العهود الغابرة من منجزات حضارية رفيعة المستوى ومتقدمة، ولكنها عرفت الانقطاع ولم تعرف التنوير منذ قرون وحتى الآن، وهناك نلتقي بحضارة غربية متقدمة تخلصت من الانقطاع الحضاري الذي عاشته في القرون الوسطى وعرفت التنوير منذ أكثر من أربعة قرون ومعها عرفت التحول من الإقطاعية إلى الرأسمالية ومن الفلاحة إلى الصناعة المتقدمة والزراعة الحديثة. وحين يحدثنا عن سلوكيات غريبة في المجتمع الغربي نجدها تنطلق من شخصيات قادمة من الشرق المتخلف من أفريقيا أو آسيا، إنها محنة التطور والوعي الفردي والجمعي للمجتمع.

الحوارات والنقاشات التي تدور بين شخصيات الرواية من عراقيين وغيرهم متنوعة وعديدة والآراء حولها متباينة. إنها حوارات المجتمع ذاته .. حول الدين والدنيا، عن شيوخ الدين المعممين وسلوكيات الحكام منهم .. عن المال العام والجنس، حول البؤس والفاقة والخراب الاجتماعي، حول الفساد ونهب المليارات من الدولارات.. عن الفراغ القاتل للشباب عن المنافسة والاغتيالات وعن عبء كل ذلك على الإنسان الفرد والمجتمع. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل ما تتحدث به شخصيات الرواية يجسد

الواقع القائم أم أنهم يعبرون بذلك عما يدور في نفوسهم، سواء أكانت مريضة أم سالمة؟ إنها في الواقع تجسد آراء وأفكار وسلوكيات شريحة واسعة من المجتمع .. عما يدور في خلد أفرادها، عما يسعون إليه وما يؤرقهم أو يضعهم أمام مشاكل عسيرة الحل. إن مثل هذه الرواية حين تمنع في بلد ما، يعني أن هذا المجتمع يعاني حقاً من علل كثيرة ويخشى المسؤولون عنها كشفها للناس، رغم أنها مكشوفة حقاً للجميع.

الرواية تبحث في مستويات عدة وأصوات عديدة وهي بهذا تضعنا أمام شخصيات باهتة مريضة، رغم عمق معلومات بعضهم الثقافية: كما في حالة الرسام العراقي أدم بوناروتي أو أدم البغدادي (أدم أبو التنك)، الأديب العراقي الذي كان شيوعياً درس في بلغاريا، ولكنه لم يعد كذلك وفقد القيم والمعايير التي تربى عليها وتحّول إلى شخص بخيل ونهم، نسي كل المبادئ التي تعلمها وفقد كرامته أمام بخله وشهية الأكل المجاني. وهو الذي خان صديقه الرسام بممارسة الجنس مع زوجته الإيطالية حين سكن في شقة زوجته بإيطاليا. من هنا يمكن أن نلاحظ بأن الكاتب قد وضعنا أمام شخصيات رثة نشأت في رحم هذا المجتمع الرث والدولة الرثة والنظام السياسي الرث.

إن ما قدمته الرواية يشكل رؤية بانورامية لما يجري اليوم بالعراق دون أن يعمم القضية على البشر العراقي كله، ولكن هذه النماذج موجودة وتمثل جزءاً من الفئة الرثة الواسعة التي نشأت في ظل الدكتاتورية والحروب والظلم والظلام. إنها رواية تستحق القراءة.

برلين في 2014/12/24

أخي كاظم

انجازاتك كناقد ادبي حصيف تكاد تبلغ مستواك كاقتصادي وكمفكر ماركسي في آن. مقالك عن "متاهة إبليس" أعجبني أيما إعجاب وشدني إلى قراءته بأغلظ الحبال. ورغم انك لم تنس حتى في هذا المقال الجميل نظرياتك التاريخية القائلة بأن تاريخ الإنسان هو تأريخ العلاقات بين المُستغِل والمُستغَل – فتسليط أضوائك على التمييز بين صوت الكاتب وأصوات شخوصه الروائية لهو خير دليل على واعيتك الأدبية النصية. ودمت لنا صديقا صدوقا وكاتبا ألمعيا.

ساسون سوميخ

حوارات فكرية وسياسية ممتعة مع الصديق البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ

ساسون سوميخ وكاظم حبيب ببرلين 2014

سمعت عن البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ كثيرا ولم التق به، قرأت له بعض ما كتبه عن بعض روايات نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للآداب، وعن أدب يوسف إدريس، وهما من اكبر كتاب الرواية والقصة القصيرة في العالم العربي على التوالي. أعجبت بطريقة تحليله للغة هذين الكاتبين وأسلوب كتابته السهل والواضح والممتلئ وإبرازه جماليات الكلمات والجمل وقوة التعبير لديهما، إضافة إلى استخدامهما للغة المحكية المعبرة عن الواقع المعاش حيثما تطلب الأمر ذلك، وهو الذي يميل إليه البروفيسور ساسون سوميخ كثيرا ويمارسه في كتاباته أيضا. تعرفت بلندن على الصديق إميل كوهين، وهو عراقي المولد ويقطن لندن منذ هجرته من العراق وحصلت منه على بعض كتابات البروفيسور ساسون سوميخ ثم عنوانه حيث أرسلت له أسئلة الاستطلاع الخاصة بيهود العراق ورجوته الإجابة عنها إن وجد وقتا لذلك بهدف نشرها في كتابي الذي ينتظر الصدور في ربيع هذا العام 2015 والموسوم "يهود العراق والمواطنة المنتزعة". أجاب مشكورا ولكن باقتضاب شديد لم يفِ بالغرض من توجيه الأسئلة،

ولكنه تفضل وأهدى لي الجزء الأول من كتابه الموسوم "بغداد أمس". قرأت الكتاب وأعجبت به أيما إعجاب، إذ انه تناول به ذكرياته، بين ولادته في العام 1933 ومغادرته العراق في العام 1951، إذ كان عمره حين ذاك سبعة عشر عاما، وهي فترة معقدة ومتشابكة من تاريخ العراق السياسي، في وقت لم يكن الشاب ساسون سياسيا ولكن كانت ميوله العامة إنسانية ذات وجهة يسارية والتي حافظ عليها حتى يومنا هذا، وهو ما قربني إليه أكثر. وبعد قراءتي الكتاب قررت الكتابة عنه، فكان ثاني مقال اكتبه عن بروفيسور عراقي المولد يهودي الديانة ويعيش في إسرائيل. إذ كان الأول هو البروفيسور شموئيل موريه عن كتابه الموسوم "بغداد حبيبتي" الصادر في العام 2012 في إسرائيل ووصلنا منه مباشرة كهدية قيمة بعد أن كان قد نشر في موقع إيلاف في حلقات بلغت أكثر من خمسين حلقة. لقد نشرت المقال الذي كتبته عن البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ أيضاً. وقد لقي المقالان صدى إحسان عام، وبشكل خاص من الزميلين موريه وسوميخ. من هنا بدأت صداقة جديدة بين البروفيسور ساسون وبيني دون أن نلتقي ولم يعرف احدنا الآخر من قبل. فكانت بيننا مخاطبات ومكالمات عبر الهاتف ثم لقاء ببرلين مع عائلته في أب/أغسطس من العام 2014. وصل إلى برلين مع زوجته تيري وابنتيه وأحفاده. كان اللقاء حميما حقاً معه ومع زوجته وبقية أفراد العائلة. عاد جو الصداقة العراقي بيننا وكأننا قد تعرفنا على بعضنا قبل ستة عقود. كانت زوجته الأمريكية المولد رائعة وحميمة ورحيمة على زوجها تخشى عليه من الهواء الذي يمسُّ وجنتيه. وحين خضنا الحوارات الجميلة وبحضور الأخ قوجمان تأسفنا معا بأننا لم نلتق ولم نتعارف على بعضنا قبل هذا الوقت بسنوات. حين استمعت إلى أحاديثه خلال ثلاثة أيام تسنى لنا فيها اللقاء سوية، عادت إلى ذاكرتي جميع أحداث ووقائع كتابه الموسوم "بغداد أمس" وما فيه من ذكريات حية كتبت بأسلوب جميل أخاذ ومليء بالحب لبغداد والحنين إليها وإلى الأصدقاء والكتاب والشعراء العراقيين، عن لقاءاته بالشعراء والكتاب وعن أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم وتعززت لديه لغة الأم، اللغة العربية. أعاد الحديث عن الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري ولقائه وعن أساتذته حسين مروة ومحمد شرارة وحسن الصوري وعن شعراء شباب. تحدثنا عن ذكريات غير مشتركة ولكنها متقاربة لأنها حصلت في ذات الأجواء البغدادية أو العراقية عموما. تحدثنا عن السياسة أيام زمان وعن اليهود بالعراق ودورهم الثقافي والإعلامي أو الصحفي وعن الرواد منهم و نشاطهم السياسي الذي لم يتعرف عليه إلا فيما بعد، إذ لم تكن لديه اهتمامات سياسية حينذاك. ثم تطرقنا إلى مجزرة الفرهود ضد اليهود التي وقعت في يومي الأول والثاني من يونيو/حزيران 1941 بعد انهيار حكومة رشيد عالي الگيلاني الانقلابية التي قادها قوميون يمينيون تأثروا بشكل صارخ بالفكر النازي الألماني خلال الفترة بين 1935-1945 وما بعدها. ثم الحديث عن وثبة كانون والقوى المناهضة للصهيونية ضمن يهود العراق الذين شكلوا عصبة مكافحة الصهيونية وبدعم مباشر من قيادة الحزب الشيوعي العراقي والرفيق فهد حينذاك، وكيف حوربت هذه العصبة من قبل حكام العهد الملكي وبشكل خاص من نوري السعيد، الذي أيدها ابتداءً ثم انقلب عليها حين تم طبخ مؤامرة ترحيل

اليهود بأي ثمن إلى إسرائيل بين بريطانيا وإسرائيل والنخبة الحاكمة العراقية. وجرنا الحديث عن الحرب والسلام بين إسرائيل والدول العربية ولكن وبشكل خاص مع الشعب الفلسطيني، وعن دور القوى اليمينية المتطرفة والمتعصبة دينياً والرافضة للسلام من الطرفين والعواقب الوخيمة لمثل هذا النهج. فهذه القوى في الطرف الإسرائيلي تسعى إلى التهام المزيد من أراضي الشعب الفلسطيني قبل العام 1967، وتلك القوى اليمينية والدينية لحماس والجهاد الإسلامي وغيرها من قوى الإسلام السياسي المتطرفة في غزة التي تريد رمي الدولة الإسرائيلية والشعب اليهودي بالبحر!! إن هذه السياسة مهلكة للطرفين ولن توفر السلام ولا بد من وجود دولة فلسطين بجوار دولة إسرائيل والتخلي عن الأراضي المحتلة من جانب إسرائيل وعقد صلح دائم وعادل برعاية الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، إذ بغير ذلك لن يكون هناك سلم ويبقى الموت يطارد الجميع في فلسطين وفي إسرائيل. لقد كانت وجهات نظرنا متفقة في هذا الصدد، فحل الدولتين والاعتراف المتبادل وتحقيق التنسيق والتعاون وربما التكامل فيما بعد هو الطريق الصحيح والوحيد لإرساء السلم الدائم والعادل بين شعب إسرائيل والشعب الفلسطيني والدول العربية. لقد كانت الحوارات غنية وواضحة وصريحة وكنا نقف معا على أرضية فكرية ديمقراطية وتقدمية أو يسارية ندرك معاً مأساة الصراع والحرب وعواقبها عل الشعوب وليس على الحكام وعلى مستوى حياة الشعوب. وكان موقفنا رافضاً لما حصل في غزة من جانب حكومة بنيامين نتنياهو وكذلك موقف حماس وبقية قوى الإسلام السياسي المتطرفة في غزة ولا بد من إجراء تحقيق لإدانة جرائم الحرب التي ارتكبت على وفق قرار مجلس الأمن الدولي والذي رفضته إسرائيل حتى الآن ووافقت عليه الحكومة الفلسطينية. حين عاد البروفيسور سوميخ إلى إسرائيل أرسل لي الجزء الثاني الموسوم "ما بعد بغداد" الذي يبحث في الفترة الواقعة بين وصوله إسرائيل والعام 2010. وهو كتاب يدخل في باب الذكريات والإخوانيات. وقد كتب كسابقه بأسلوب سلسل وجميل يجسد قدرته الفائقة في اللغة العربية وإمساكه لزمامها وبراعته في استخدامها. أودعته بقراءة الكتاب، وهي ما تزال مسودة غير مدققة مترجمة عن العبرية. وحين بدأت في قراءة الكتاب لم اتركه حتى انتهيت منه دفعة واحدة ودون أن اشعر بالوقت الذي مرّ سريعا. لم تكن حياة العائلات العراقية اليهودية آلتي عادت إلى إسرائيل سهلة ميسرة، بل تميزت بالكثير من التعقيدات، وخاصة لتلك العائلات الكادحة وتلك آلتي كتب على ملفاتها بأنها شيوعية أو أشخاص كتب عل ملفاتهم ذلك. وتبين لهم الفرق في الاستقبال والعيش بين من يأتي من أوروبا ومن يأتي من الشرق، وخاصة الشرق العربي الذين كانوا يرشون بمادة الـ" ددت DDT" حال نزولهم من الطائرة ثم توقف هذا الأجراء الوحشي فيما بعد، كما يشير إلى ذلك ساسون سوميخ في هذا الجزء من الكتاب. لقد تحدث على مدى ٢١ فصلا عن بدء حياته الجديدة بإسرائيل وعدم معرفته اللغة وغياب عائلته التي وصلت إلى إسرائيل بعد عدة شهور من وصوله وصعوبة العيش البدائي مع البق الملعون الذي يشبه بق البصرة بالمقارنة مع ما كان عيش عائلته ببغداد والكثير من العائلات الغنية والمتوسطة، في حين كانت حياة العائلات الفقيرة لا تختلف عن حياة الغالبية العظمى

من الشعب العراقي حينذاك. هذا الكتاب غني بما ورد فيه من تجارب العيش مع الطلبة والأساتذة الذين درس معهم أو الذين درسوه أو فيما بعد قيامه بتدريس مجموعة منهم أصبحت فيما بعد من خيرة الباحثين وأساتذة الجامعات أو خبراء في تخصصهم. سأفرد مقالا خاصاً عن هذا الكتاب الصغير الذي لم يصدر بعد بترجمته العربية من العبرية أو الانجليزية لأهميته للباحثين في مجال الجد والمثابرة على البحث والأمانة العلمية والدأب والتواضع في العلاقات واحترام الرأي والرأي الأخر وخاصة بين الطلبة والأساتذة. 2014/12/8

الجزء الثاني

قراء في كتب تبحث في الاستبداد والعنف والتعذيب والسجون بالعراق

قراءة في كتاب تاريخ العنف الدموي في العراق" للكاتب باقر ياسين

الأساس المادي للقسوة والتعذيب والتمييز في المجتمع

"

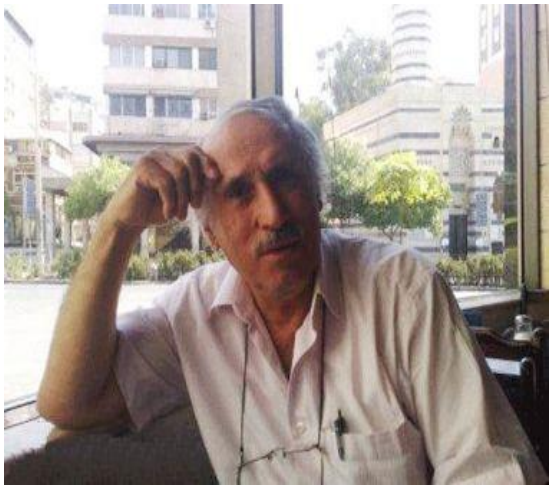

اسم الكاتب: باقر ياسين

اسم الكتاب: تاريخ العنف الدموي في العراق [الوقائع – الدوافع – الحلول]

دار النشر: دار الكنوز الأدبية – بيروت

سنة النشر: 1999

عدد الصفحات: 435 صفحة

أصدر بعض الكتاب العراقيين وفي فترات مختلفة عدداً من الكتب المهمة والقيمة التي تبحث في موضوع القسوة والتعذيب والعنف والاستبداد في العراق أو في المجتمع الإسلامي عموماً والعراق خصوصاً. وإذا كان بعضهم استعرض بشكل موسع ومتعدد الجوانب مختلف أنواع القسوة والتعذيب والاستبداد ومعاناة الإنسان، وبذل جهداً كبيراً في جمع وتصنيف وتدقيق الكثير من المعلومات المتناثرة في عدد كبير من الكتب خلال القرون المنصرمة، كما في الكتاب الطليعي المتميز الذي

أصدره الباحث الأستاذ الراحل السيد عبود الشالجي الموسوم "موسوعة العذاب" بأجزائه السبعة[40]، فأن كتاباً آخرين سعوا ضمن محاولة جادة إلى استعرض (أو) وتحليل العوامل الكامنة وراء بروز ظاهرة القسوة والتعذيب والاغتيال في الإسلام، كما في أبحاث الكاتب الراحل الأستاذ هادي العلوي[41]، أو كتاب السيد باقر ياسين الموسوم "تاريخ العنف الدموي في العراق"[42]، أو "ثقافة العنف في العراق" للكاتب سلام عبود[43]، أو كراس "تشريح الاستبداد: النظام العراقي نموذجاً" للكاتب إسماعيل شاكر الرفاعي[44]، أو في كتابي السيد كنعان مكية الموسومين "الصمت والقسوة" و"جمهورية الرعب"، إضافة إلى أبحاث الأستاذ الدكتور علي الوردي الخاصة بالمجتمع العراقي، ومنها دراسته لـ "شخصية الفرد العراقي"، وكتاب "وعاظ السلاطين"، والمجلدات الستة مع الملحق الغزير بالمعلومات والتحليلات والموسوم "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث". كما صدرت مجموعة أخرى من الكتب المهمة الأخرى التي سجلت ممارسات الإرهاب والقمع في العراق قبل وبعد ثورة تموز عام 1958 التي في مقدورها إنارة الطريق للبحث في هذا الموضوع المهم. ولا شك في أن سقوط النظام الاستبدادي سيوفر إمكانية كبيرة لدراسة تفصيلية عن حالات

---

40 الشالجي, عبود. موسوعة العذاب. مؤلف في سبعة أجزاء. الدار العربية للموسوعات. بيروت. لندن. بدون تاريخ.

41 العلوي, هادي. فصول من تاريخ الإسلام السياسي. دفاتر النهج. مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي. نيقوسيا. قبرص. 1995.

42 ياسين, باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق. دار الكنوز الأدبية. بيروت. ط 1. 1999.
تشكل دراسة السيد باقر ياسين محاولة جادة للبحث في اصل العنف الدموي في العراق, وهي تثير الكثير من الأسئلة التي يفترض فينا التحري عن إجابات لها. ولدي ثلاث ملاحظات أساسية حول الكتاب, والتي سأتناول بعضها في متن البحث مباشرة, وهي: 1) إن البحث تاريخي ومعاصر في آن واحد, فهو إلى جانب بحثه في تاريخ العنف, يتحرى عن الوقائع والدوافع والحلول أيضاً, كما جاء في عنوان الكتاب. ومع أن الكتاب مكون من 435 صفحة, فأن ما منح للفترة الواقعة بين 1958-1968 لا يزيد عن عشر صفحات فقط لا تتضمن التجربة التي سعى الباحث إلى تجسيدها في دراسته لتاريخ العنف في العراق, كما لم يتطرق إلى جوهر الإشكالية في هذا الصدد؛ 2) تجنب الباحث, علماً بأن البحث قد أنجز في عام 1999 أن يدرس الفترة التي أعقبت انقلاب 1968 حتى الوقت الحاضر, وهي من أكثر فترات العراق ظلامية وظلماً وعدوانية بحق الشعب العراقي؛ 3) ويدا لي أن الباحث حاول أن يعزو تلك الظواهر إلى طبيعة الشعب العراقي, وهي إشكالية سنحاول معالجتها في متن البحث مباشرة. ويمكن أن يكون النقص في معالجة الفترة 1958 وما بعدها ناشئ عن جانب منهجي, أي أن البحث يعالج تاريخ العنف في العراق, ولا يبحث في الحاضر. وإذا كان الأمر هكذا, فمن المفيد أن يواصل هذا البحث ويعالج الفترة التي أعقبت ثورة تموز عام 1958 مروراً بانقلاب شباط عام 1963 وتشرين الثاني عام 1963 وانقلاب عام 1968 حتى الوقت الحاضر. خاصة وأن الكاتب على علم بخبايا الفترة الواقعة بين 158-1968 بشكل خاص وما بعدها بشكل عام (ك. حبيب)

43 عبود, سلام. ثقافة العنف في العراق. منشورات الجمل. كولون. ألمانيا. 2002.

44 الرفاعي, إسماعيل شاكر. تشريح الاستبداد: النظام العراقي نموذجاً. دار الكنوز الأدبية. بيروت. 1999.

وأساليب القسوة التي مورست في العقود الأخيرة في العراق من الناحيتين النظرية والعملية. ويفترض هنا أن نستعين، لفهم الحالة، بدراسة أوضاع الجلادين قبل تحولهم إلى جلادين وبعد سقوط النظام والتحولات الجارية في سلوكهم، ثم أوضاع الضحايا قبل وأثناء وبعد التعرض للقسوة بمختلف أشكالها وسبل تعامل المجتمع معهم وسير حياتهم والأحلام أو الكوابيس التي يتعرضون لها، ومدى فهمهم للعوامل الكامنة وراء تعرضهم لضروب من ممارسات القسوة في ظل دولة استبدادية مطلقة.

يعتبر كتاب السيد باقر ياسين محاولة جادة وجهداً طيباً لاستعراض واقع القسوة وعمليات التعذيب على امتداد فترة زمنية طويلة من تاريخ العراق من جهة، ودراسة العوامل الكامنة وراء بروز هذه الظاهرة في العراق من جهة أخرى، كما أجرى مقارنة للتناقض القائم أو للمفارقة الفعلية بين شدة وسعة وعمق وشراسة العنف وديمومته في العراق من جانب، والحضارة الشامخة التي بناها شعب العراق على مر العصور، وخاصة في العصر البابلي، من جانب آخر، فكتب يقول: "إننا لا نريد ولا نرضى الإساءة لبلادنا العريقة – وادي الرافدين الخالد – لكننا نسعى بالتأكيد للتفتيش عن مجموع الدوافع الغريبة التي تقف وراء الأنماط من السلوك المتصف بالعنف الفائق والقسوة البالغة والتطرف والشدة والقهر والميل شبه الدائم نحو سفك الدماء والأعمال اللاإنسانية والنزوع العدواني في فرض الموت القسري على الإنسان في هذه البلاد منذ أكثر من خمسة آلاف سنة والذي ما زالت فصوله المخزية تدور دون توقف حتى يومنا هذا..."[45]. ثم يواصل قوله مؤكداً ما يلي: "إننا لا نريد أن نبرهن هنا على وجود العنف الدموي والقسوة في حياة العراق ومسيرته التاريخية فحسب، بل نريد البرهنة إضافة إلى ذلك على وجود التطرف والمبالغة في تنفيذ العنف والقسوة والدموية، وسنحاول أن نثبت ذلك بالشواهد والوقائع والأحداث المستمدة من التاريخ العراقي لتسليط الضوء على هذا الموضوع وتشخيص بعض الجوانب المتميزة في طبيعة السلوك الاجتماعي لسكان هذه البلاد /الحكام والرعية/ ورصد مظاهر العنف والدموية كنزعة سيكولوجية ثابتة في حياة المجتمع العراقي"[46]. ثم أورد الكاتب سلسلة مرعبة من أحداث العنف والقسوة التي عاشها العراق على امتداد أكثر من خمسة ألاف سنة، إلى جانب العلوم والتقنيات التي اكتشفها أو اخترعها وساهم بها العراق في بناء حضارة الإنسان. ويورد كثرة من الشواهد على ذلك. ثم يكتب محللا ظاهرة العنف والقسوة على النحو الآتي: "إن التحليل المنطقي لهذه الظاهرة والأكثر انطباقاً على الواقع هو ما ينسجم مع منهج بحثنا ووجهة نظرنا عن شيوع العنف الدموي في

---

[45] ياسين, باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق–الوقائع – الدوافع – الحلول.دار الكنوز الأدبية. بيروت ط 1. 1999. ص 17/16.

[46] نفس المصدر السابق. ص 19.

العراق والتصاقه بتاريخ هذه البلاد على نحو استثنائي غير طبيعي، وإن مناخ العنف السائد في العراق باعتباره الميزة المستديمة لطبائع الأقوام والقبائل والناس إضافة إلى شيوع السلوك المتسم بالقسوة والشراسة والنفور والطباع الحادة وسيادة الأعراف البدوية والتقاليد القبلية الصارمة ذات النزوع الدائم للتمرد والثأر والعنف والتحدي الدموي والذاتية وقوة الشكيمة والعناد لدى سكان البلاد ربما كانت هي العوامل والأسباب التي دفعت خالد[47] لتلك التصرفات الدموية الشرسة والتشدد البالغ في العنف والإجراءات المتصفة بالقسوة والصرامة مع أهل العراق كي يستطيع فرض سيطرته على الموقف"[48]. ثم يقارن بين ما جرى في العراق وما جرى في بلاد الشام فيقول: "بينما كان غياب تلك العوامل والأسباب وانتفاء وجودها في الشام ربما هو السبب الذي أضفى على شخصية خالد الصارمة تلك الأبعاد الإنسانية من الليونة والمرونة والتسامح والصبغة السلمية التفاوضية التي اتسم بها سلوكه ومواقفه وتصرفاته خلال تنفيذ مهماته العسكرية في بلاد الشام"[49]. ثم يواصل قوله مستنتجاً ما يلي: "أما إذا لم تكن تلك الأسباب هي الباعث لهذه الظاهرة فإن التفسير الوحيد لذلك التباين في حجم المعارك واتساعها ودمويتها بين العراق والشام هو أن يكون العنف الدموي القدر الإلزامي الذي يتوجب أن يلازم بلاد الرافدين وسكانها في كل الحقب والعصور"[50]. وفي فقرة "تطبع المجتمع العراقي بالجدية والتذمر والحزن الدائم" يخلص باقر ياسين إلى القول: "كان من نتائج وانعكاسات تطبيق منهج العنف الدموي لفترات زمنية طويلة في تاريخ العراق، شيوع وانتشار بعض الطباع والعادات والسجايا الأخلاقية والسلوكية التي أصبحت، بمرور الزمن، جزءاً من معالم وسمات المجتمع العراقي بعد أن طبعت بطابعها سلوك الفرد العراقي وحددت بدرجة كبيرة تصرفاته وميوله الشخصية بصورة عامة"[51]. والطباع هنا لا تعني التقاليد والعادات، إذ أنه يشير إلى العادات بعد الطباع مباشرة. فهل يعني في ذلك أنها غريزة من غرائز الإنسان أي أنها جزء من البنية البيولوجية للإنسان العراقي؟ وهل العنف هو حقاً من طبيعة الإنسان عموماً والعراقي خصوصاً، أم أن العنف والقسوة من جهة، والسلم والرحمة أو

---

47 المقصود هنا القائد العسكري العربي خالد بن الوليد.

48 ياسين, باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق–الوقائع – الدوافع – الحلول.دار الكنوز الأدبية. بيروت ط 1. 1999. ص 94. يقصد هنا خالد بن الوليد عند فتحه العراق والجازر التي ارتكبت بحق الأسرى من العراقيين والفرس في دفاعهم عن وطنهم ضد الفاتحين الجدد, لأنهم دافعوا عن وطنهم بحرارة ولم يستسلموا بسهولة. سنبحث في هذه النقطة لاحقا.

49 نفس المصدر السابق. ص 94.

50 نفس المصدر السابق. ص 95/94.

51 نفس المصدر السابق. ص 411.

الرأفة من جهة أخرى، هما من السلوكيات المكتسبة عند الإنسان؟ ومما رفع من درجة الشك في هذا التصور محاولة السيد باقر ياسين اعتبار تلك النزعة وكأنها سيكولوجية ثابتة وموروثة وغير متغيرة في حياة المجتمع العراقي. وفي مكان آخر من الكتاب يقول السيد باقر ياسين ما يلي في معرض مناقشته لفكرة التبدل السريع في السلوكية والمزاج لدى الناس في العراق: "لقد أورد الباحث ستيفن لونگريگ أن سبب هذا التغيير الحاد والسريع في موقف الأهالي في بغداد من قاسم باشا هو "العنف الخالي من الحكمة الذي أبداه قاسم .. وسوء سلوك أحلافه الشمريين العقيل"[52]. غير أن ذلك السبب لا يبدو كافياً لإحداث مثل هذا التبدل الحاسم والمصيري في موقف الناس في بغداد بعد بضعة أيام من استقبالهم لقاسم باشا .. ذلك الاستقبال البهيج الحافل بمظاهر الفرح والتأييد والإجلال. إن السبب الذي يورده الباحث لونگريگ لا يمكنه أن ينفي شكوك الباحث المتتبع أو يبعد تفكيره عن الأسباب والمعاني المتعلقة بالجانب السلوكي والنفسي (السيكولوجي) للفرد العراقي ونزوعه الفطري في هذا المسلك خصوصاً إذا وضع في الاعتبار الأرضية التاريخية الغنية بالشواهد والأمثلة والدلائل والأحداث المماثلة التي يحفل بها التاريخ العراقي منذ قرون عديدة"[53]. إن مجرى البحث والمقطع الأخير بشكل خاص حيث يشير إلى الجانب الفطري في السلوك العراقي يؤكد للمتتبع مسألتين في آن، فهي مرة ظاهرة ملازمة لا باعتبارها مكتسبة بل فطرية، ومرة أخرى باعتبارها ظاهرة مكتسبة عبر السلوكية العامة للحكام والمجتمع العراقي في آن. وفي موقع آخر من الكتاب يذكر الكاتب في الفقرة الأولى من الفصل الأول وتحت عنوان: بلاد الرافدين: تاريخ عريق يبدأ بالعنف التصادمي، يقول الباحث ما يلي: "ليس غريباً أن يبدو التاريخ العراقي أمامنا غارقاً بأحداث العنف الدموي عندما نكتشف أن بدايات هذا التاريخ تتحدث للبشرية منذ بدء الخليقة عن قصص الصراع المتواصل القائم على العنف التصادمي بين الإرادات المتناقضة للآلهة المتعددة الأسماء التي عبدتها وخضعت لها الأقوام والحضارات التي قامت في وادي الرافدين منذ الألف الرابع قبل الميلاد، تلك القصص التي أبدعتها وصاغتها التجربة الأولى للعقل البشري والمتمثلة بالأساطير الملحمية لشعوب سومر وبابل وآشور"[54]. ولكن علينا ألّا ننسى بأن تاريخ العراق أو أن وجود الإنسان في العراق قد سبق هذا

---

[52] لاحظ هنا أن الكاتب لونكريك يطرح فكرة مفادها أن العنف يمكن أن يكون حكيماً وعنفاً آخر يمكن أن يكون غير حكيم, وهو تعبير عن التفكير الذي يؤيد العنف على أن يستخدم بحكمة, وهي فكرة مرفوضة من جانبي فإن العنف بكل أشكاله مرفوض ويقود إلى اضطهاد وعنف مضاد في حالات غير قليلة. خط التشديد مني. ك. حبيب.

[53] ياسين, باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق–الوقائع – الدوافع – الحلول.دار الكنوز الأدبية. بيروت ط 1. 1999. ص 242.

[54] نفس المصدر السابق. ص 29.

التاريخ بآلاف كثيرة أخرى من السنين، إذ لم يكن الوضع فيه على شاكلة العهد السومري أو حتى على شاكلة سكان تل العبيد قبل ذاك. إذ أن هاتين الحضارتين متقدمتان كثيراً بالقياس إلى حضارات أخرى في العراق سبقت حضارة تل العبيد وحضارة سومر. فالتنقيبات في المناطق المجاورة أو تلك التي أجريت في كردستان وشمال العراق عموماً تؤكد وجود الإنسان منذ ألاف السنين كما تشير إلى حياة وعلاقات تختلف عن حياة وعلاقات العهد السومري، وبالتالي فأن تاريخ سكان وادي الرافدين هو أقدم بكثير من العهد السومري، أي أنه لم يبدأ بالعنف الذي تميزت به عهود سومر وبابل وآشور، وهي تعبر عن حضارة جديدة تحققت في الثورة الثانية عملياً، أي حضارة دويلات المدن التي تختلف إلى حدود كبيرة عن حضارة عهد الصيد وجمع الثمار وحضارة الرعي والزراعة. إذ أن الحضارة الأولى وجزءاً مهماً من الحضارة الثانية، رغم تشابك الأخيرة مع حضارة دويلات المدن والدولة المركزية فيما بعد، تميزتا بعلاقات وسلوكية وسمات اجتماعية تختلف عن العلاقات والسلوكية الاجتماعية التي تشكلت في المدن ودويلات المدن في الحضارة السومرية والبابلية والآشورية والكلدانية، باعتبارها حضارة ارتبطت بوجود دولة وتقسيم عمل اجتماعي وتملك خاص وفائض إنتاج وتنامي دور الدين والحياة المؤسسية للمجتمع والتي اعتمدت على وضع وتنفيذ القوانين والشرائع المختلفة.

والآن، كيف نفهم مضمون مثل هذه الموضوعات والآراء وبعض الأحكام التي تتضمنها إزاء الفرد في العراق، وبالتالي إزاء المجتمع أو الشعب في العراق؟ وما مقدار الحقيقة التي تحملها هذه الآراء والأحكام؟ وكيف يفترض أن نتعامل مع الحكم الرئيسي الشائع والقائل: الفرد العراقي عنيف ومتطرف بالطبع، أو أنه يحمل جرثومة العنف منذ الولادة؟ وما هي العوامل التي تسببت في انتشار مثل هذه المقولات؟ وكيف يمكن تجاوز هذا الأحكام؟ أو كيف يمكن التعامل معها؟ وكيف يمكن الخلاص منها؟

من أجل أن تكون الإجابة واضحة وموضوعية لا بد لنا من متابعة بعض النتائج الأساسية التي توصلت إليها الدراسات التي أنجزت في مجال الأنثربولوجيا حول الكثير من الجماعات البشرية التي تسمى بدائية لمعرفة مدى وجود جملة من ظواهر العنف والقسوة والعدوانية في السلوك الإنساني عند تلك الجماعات، وتلك الدراسات الاجتماعية التي استفادت منها لطرح استنتاجها بهذا الصدد.

كانت هناك مجموعة من الباحثين تؤكد في دراساتها "أن الإنسان ورث من أسلافه الحيوانات التي تطور عنها تلك الظواهر الغريزية، وهي بالتالي تشكل جزء من طبيعة الإنسان تبدأ بولادته وترافقه طيلة حياته، أو أن القسوة والهدم هما جزء من طبيعة كثرة من البشر والتي لا يمكن تغييرها. فقد كتب الباحث وشبورن Washburn بهذا الصدد يقول: يمتلك الإنسان نفسية أكلي اللحوم. وإذ

يكون من السهل تعليم الإنسان على القتل، فإن من الصعب تطوير تلك العادات التي تتجنب القتل لديه. كثرة من البشر تجد لذة في رؤية إنسان يتعذب، أو أنها تفرح عند قتل الحيوانات. فالتأديب والتعذيب على رؤوس الأشهاد يمارس بشكل اعتيادي في الكثير من الثقافات"[55]. ويرى وشبورن أن القتل والقسوة هما مظهران مرتبطان بنفسية أو ناشئان عن نفسية الصياد. إذ أنه يكتب قائلاً: "يشعر الإنسان بالفرح عندما يصطاد حيوانات أخرى. وإذا لم تجر عملية تربية متأنية لتخليصه من هذه الغريزة الطبيعية عند الإنسان، سيجد الإنسان سعادة في الصيد والقتل. في مجتمعات بمثل هذه الثقافات يجعل المرء من التعذيب والمعاناة عرضاً عاماً للمتعة الشعبية"[56]. ويرجع هذا الأمر إلى ثلاثة عوامل هي: الصيد بمثابة رياضة عند الصياد (القتل بمثابة رياضة صيد)، وسرعة تعلم وممارسة الأطفال لألعاب الحرب، والموقف من الغريب عن هذه الجماعة البشرية أو تلك[57]. ولا تصمد العوامل التي يعرضها وشبورن لتأكيد موضوعته عن السعادة في القتل عند الصياد في تلك الحقب التي كان الإنسان البدائي يعتمدها في التخلص من الحيوانات التي تؤذي مزروعاته أو للحصول على غذائه اليومي أما النقاش العلمي. فالطفل مثلاً يمكن أن يتعلم كل شيء بسهولة كبيرة، ويجد لذة في التعلم وحب الاستطلاع، رغم احتمال بروز اختلافات بين رغبات هذا الطفل أو ذاك إزاء مختلف الألعاب. إذ أن تعليم ألعاب الحرب للأطفال يمكن أن تقابلها تعليم مسائل أخرى ذات وجهة رياضية وسلمية وتكون محبوبة ومقبولة عند الأطفال أيضاً. ولم يكن موقف الإنسان البدائي بالضرورة عدوانياً إزاء الغريب من الناس، إذ أن جماعات بشرية عاشت جنباً إلى جنب وبسلام، رغم تباينهما من حيث المجموعة البشرية التي يعودون لها، وهو ما أمكن التدليل عليه عند الإنسان البدائي. ولكن هناك البعض الذي لا يرتاح للغريب، وهي إشكالية مرتبطة بتجربة الإنسان ذاته وفق الظروف والشروط الملموسة التي كان يعيش في ظلها.

وتوجد في الوقت نفسه مجموعة من الآراء الأخرى التي ترى بأن تلك الظواهر ناتجة عن الشروط التي يعيش فيها الإنسان والظروف الملموسة التي يمر بها والتي تساهم في تكوين سلوكه وعاداته وتقاليده أو مجمل شخصيته. وهي التي دلل عليها أريش فروم مستنداً في ذلك إلى عدد من البحوث والباحثين في القضايا الأنثربولوجية، مثل لوغلين Laughlin، .W. S ومومفورد

---

55 Washburn, S. L. & Avis, V. Evolution in Human Behavior and Evolution. In: From, Erich. Aggressionstheorie. Dritte Teil. Die verschiedenen Arten der Aggression und Destruktivitaet und ihre jeweiligen Voraussetyungen. Band VII. Deutsche Taschenbuch Verlag. Muenchen. 1. Auflage. 1989. S. 116.

56 نفس المصدر السابق. ص 116.

57 نفس المصدر السابق. ص 116-120.

Mumford،.L . فالدراسات الأنثربولوجية تؤكد موضوعة أساسية سجلها لنا أريك فروم Erich Fromm في كتابه المعروف عن نظرية العدوانية، حين كتب يقول:

"لا يمكن شرح روح الهدم والقسوة عند الإنسان على أنها من مخلفات ميراثه الحيواني أو من غريزة الهدم، بل ينبغي إرجاعها إلى تلك العوامل التي يتميز بها الإنسان عن سلفه الحيوان"[58]. ثم يواصل قوله "إن المشكلة تكمن في أن التحري يفترض أن يتجه نحو: إلى أي مدى وإلى أي درجة تكون مسؤولية الشروط الملموسة التي يعيش فيها الإنسان عن نوعية وشدة رغبة الإنسان واندفاعه إلى القتل والتعذيب"[59].

إن استخلاص هذه الموضوعة الأساسية جاءت بعد دراسات واسعة أجريت على عدد كبير من الجماعات البشرية (30 جماعة) التي دعيت بالبدائية والتي تشبه في أسلوب حياتها ومعيشتها وظروف نشاطها الإنساني حياة الإنسان الأول الذي كان يعيش على الصيد وجمع الثمار وفي مرحلة التحول النسبي صوب الزراعة والرعي. وخلص البحث بتلك الموضوعة التي أشرنا إليها في أعلاه.

ولكنه لاحظ أيضاً بأن تغيرات طرأت على سلوكية القبائل عندما بدأت تتحول من حياة الريف إلى حياة المدن ودخول عوامل جديدة على حياة وعلاقات الناس في ما بينهم. وكان هذا التحول بمثابة ثورة في المجتمع الإنساني، والذي يمكن للقارئ أن يتابع ذلك في العديد من المجتمعات، ومنها المجتمعات البابلية حيث اتخذت العلاقات بين الناس صيغاً جديدة ونظمت بقواعد وأعراف وقوانين ملزمة وعقوبات رادعة. ولكن هذا التحول كان بدوره بطيئاً والتغير الذي حصل في القوانين ومدى قسوتها وشدتها يشير إلى ذلك بوضوح بالارتباط مع اكتشافات الإنسان الجديدة، ومنها تعرفه على إمكانية استغلال الإنسان للإنسان اقتصادياً، أي من خلال استخدام الإنسان كأداة اقتصادية، حيث يمكن تحويل أسرى الحرب أو العبيد إلى مثل هذه الأدوات[60].

لقد عاشت المجتمعات البشرية حقباً طويلة كان الصراع فيها يدور بين الإنسان والطبيعة في محاولة منه إلى تجنب المخاطر المرتبطة بعواقب فعل قوانين الطبيعة الموضوعية دون وعي منه

---

58 Fromm, Erich. Gesamtausgabe. Aggressionstheorie. Dritte Teil. Die verschiedenen Arten der Aggression und Destruktivitaet und ihre jeweiligen Voraussetyungen. Band VII. Deutsche Taschenbuch Verlag. Muenchen. 1. Auflage. 1989. S. 166.

59 نفس المصدر السابق. ص 166.

60 نفس المصدر السابق. ص 145.

بها من جهة، والاستفادة مما في الطبيعة من موارد لصالحه من جهة ثانية. وكان في هذا الصراع نوع من التناغم والانسجام بين الإنسان والطبيعة أيضاً، ولم يكن تخريب الطبيعة من قبل الإنسان كما هو عليه الآن. وكان هذا الصراع هو الدافع أيضاً لتطور حياة الإنسان. إلا أن هذا التطور كان بطيئاً وأستغرق عشرات آلاف السنين، وهي حالة مرتبطة بالقدرات الفكرية والعملية للإنسان حينذاك. وكان الصراع يدور أحياناً كثيرة بين الإنسان والحيوان لا بهدف القسوة والعنف، بل لحاجة الإنسان للغذاء أو لتجنب الموت على أيدي الحيوانات المفترسة، والعكس صحيح أيضاً بالنسبة للحيوانات المفترسة إزاء افتراسها للإنسان أو للحيوانات الأخرى. هكذا كانت حياة الإنسان في فترة الصيد وجمع الثمار أو القوت. وعند الحديث عن المجتمعات البدائية وضعف أو غياب القسوة والعنف عنها، لا يعني هذا بالضرورة عدم وجود مشكلات معينة في تلك المجتمعات وفي ما بين البشر، إذ بدون بروز تلك المشكلات يصعب تطوير الحياة وإغناؤها، فالحياة هي التي تدفع بالمشكلات إلى الظهور وتطالب الإنسان بحلها، بما فيها تلك المشكلات في ما بين الناس إزاء الطبيعة وسبل التعامل معها أو مع موارد ومنتجات الطبيعة، والإنسان أحدها طبعاً. فوحدة وصراع الأضداد يعتبر أحد القوانين الموضوعية الأساسية التي تساهم في دفع عملية التطور في المجتمع البشري إلى أمام. ولم يكن هذا القانون الموضوعي غائباً عن الفعل في المجتمعات البدائية، ولكن ليس بالضرورة كان معروفاً لتلك المجتمعات، إذ أنه يفعل دون وعي منا به وبعيداً عن إرادة الإنسان ورغباته أيضاً، ولكنه يصطدم بنتائج أو عواقب فعله. وهكذا يسري ذلك على بقية قوانين الطبيعة وقوانين التطور الاجتماعي التي تفعل في المجتمع، مثل قانون تحول التغيرات والتراكمات الكمية إلى كيفية جديدة. أو قانون سلب السلب ...، إضافة إلى القوانين الاقتصادية الموضوعية الأساسية الفاعلة في كل المجتمعات وأن كانت بمستويات وتأثيرات ونتائج مختلفة.

أما الأستاذ الدكتور الراحل علي الوردي فقد ربط في مقدمة مجموعة دراساته ومؤلفاته الاجتماعية القيمة والأصيلة حول المجتمع العراقي والفرد العراقي بين سلوك الفرد والمجتمع وبين العلاقات الاجتماعية القائمة في هذا المجتمع أو ذاك. فالسلوك والعادات والتقاليد، بما فيها القسوة والعنف أو ازدواج الشخصية، عند الإنسان هي حصيلة تفاعل الماضي بالحاضر. يقول على الوردي ما يلي:

عند دراستي للمجتمع العراقي – وهو الموضوع الذي أولعت به زمناً غير قصير – أدركت أني لا أستطيع أن أفهم المجتمع في وضعه الراهن ما لم افهم الأحداث التي مرت به في عهوده الماضية، فكل حدث من تلك الأحداث لا بد أن يكون له شيء من التأثير قليلاً أو كثيراً في سلوك

الناس حالياً وفي تفكيرهم"[61]. ثم يواصل قوله: "من الممكن تشبيه المجتمع في هذا الشأن بشخصية الإنسان البالغ إذ هي في حاضرها تتأثر بما حدث لها في ماضيها، وهذا التأثير قد يكون لا شعورياً إنما هو موجود على أي حال وهو قد يظهر بمظهر العقدة النفسية التي تدفع الإنسان نحو بعض الأفعال "السخيفة" إذ هو يفعلها مرغماً بتأثير حافز لا إرادي يسيطر عليه. أكاد أعتقد أن المجتمع لا يختلف عن الفرد في هذا، فكثيراً ما تخلق الأحداث الماضية في المجتمع عقدة كالعقدة النفسية حيث نرى الناس يندفعون ببعض العادات والأفكار الموروثة اندفاعاً لا شعورياً، وقد يؤدي ذلك بهم إلى المهالك بينما هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً". وهو بذلك يتجنب احتمالات التأويل بشأن أصل السلوكيات المختلفة ويؤكد علاقة الترابط بين المظاهر السلبية في سلوك الفرد بالواقع الاجتماعي القائم وبالموروث الاجتماعي المتراكم في المجتمع. وفي الوقت نفسه يؤكد على أن غياب الديمقراطية عن المجتمع واستمرار الحاكم في حكمه دون مراقبة أو مؤسسات ضابطة لسلوكه تقود إلى الاستبداد حيث كتب، في الفصل الرابع "عيب المدينة الفاضلة" من كتابه الموسوم "مهزلة العقل البشري" رأياً تعميمياً لا يقتصر على العراقيين بل يشمل جميع البشر، يقول: " كل إنسان ميال إلى الاستبداد والظلم حين يترك على دست الحكم منفرداً يحكم كما يشاء"[62]. ويستند في ذلك إلى قول للإمام علي بن أبي طالب حين قال: "من ملك استأثر"[63]. وهو استنتاج صحيح يستند إلى وقائع تاريخية مرت بها جميع الشعوب وما تزال تمر بها حتى الوقت الحاضر، سواء أكان ذلك في البلدان الاشتراكية قبل انهيارها، أم الدول الرأسمالية المتقدمة، ومنها ألمانيا في فترة حكم المستشار الألماني الدكتور هلموت كول، وكذلك البلدان النامية بشكل عام.

ويكتب العالم الراحل الدكتور علي الوردي، نافياً الادعاءات القائلة بوراثة جينات الجريمة أو القسوة والعنف عند البشر أو ما شاكل ذلك في مكان آخر، ما يلي: "وجد بعض الباحثين أن المجرمين في بعض البلاد تكثر فيهم دمامة الوجه أو العاهة، فاستنتجوا من ذلك أن ألمعية الدميم يميل بطبعه إلى الإجرام لأنه، على زعمهم، يمثل نكسة بايولوجية نحو الطبيعة الحيوانية الأولى. أن هذا الاستنتاج مغلوط من أساسه. فليس هناك مجرم حدث فيه الميل إلى الإجرام طبيعة. الإجرام اكتسابي في أغلب الأحيان، وسببه اجتماعي. إن الدميم ليس مجرماً بالطبيعة كما يقول بعض المترفين، إنما هو قد وصفه المجتمع منذ طفولته بالإجرام من أجل دمامته المكروهة، فنشأ

---

61 الوردي, علي د. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. بغداد. 1974. الجزء الأول. ص 3.

62 الوردي, علي د. مهزلة العقل البشري. الطبعة الثانية. دار كوفان. لندن 1994. ص 71.

63 نفس المصدر السابق. ص 71. نقلاً عن: عباس محمود العقاد. عبقرية الإمام علي. ص 191.

مجرماً، أي أن المجتمع كره هذا الطفل الدميم وحكم عليه بالسجن لأقل سبب وعامله بخشونة وظلمه وأذاه فأصبح مضطراً على الجريمة سائراً في سبيلها أراد ذلك أم كره"[64].

وفي مكان آخر من محاضرته التي ألقاها في عام 1951 يقول الدكتور علي الوردي حول شخصية الفرد العراقي ما يلي: "لقد لاحظت بعد دراسة طويلة بأن شخصية الفرد العراقي فيها شيء من الازدواج وأني وأن كنت غير واثق ، كما قلت آنفاً، من نتيجة هذه الدراسة ولكني أجد كثيراً من القرائن تؤيدني فيما أذهب إليه"[65]. ويعزو هذه الظاهرة في النفس العراقية إلى ازدواجية القيم في المجتمع العراقي فيقول: "أعود فأقول أن هذه ظاهرة (أي ازدواج شخصية الفرد العراقي. ك. حبيب) موجودة في كل نفس بشرية، ولكنها في النفس العراقية أقوى وأوضح لأن قيم البداوة والزراعة قد ازدوجتا في العراق منذ أقدم العصور ولا تزال تصطرع في أنفسنا حتى اليوم"[66]. ويرى الدكتور الوردي في نظامي القيم (البداوة والزراعة) ما يلي: "نظام يؤمن بالقوة والبسالة وتسود فيها قيم الإباء والشجاعة والكبرياء وما إلى ذلك من صفات المحارب الفاتح؛ وبجانبه نظام آخر يؤمن بالكدح والصبر ويمارس أداء الضريبة والخضوع والتباكي. إن هذا الصراع الحضاري، أو ما يسمى في علم الانثربولوجي: (Clash of Cultures)، قد أثر في شخصية الفرد العراقي تأثيراً بليغاً. فالفرد العراقي أصبح مضطراً أن يقتبس نوعين من القيم الاجتماعية، أو يقلد طبقتين من الناس: طبقة البدوي الغالب وطبقة الفلاح المغلوب، فهو تارة يؤمن بالغلبة ويتباهى بها أو يحاول أن يظهر قوته على غيره، وهو تارة أخرى يئن من سوء حظه ويشتكي من ظلم الناس له"[67]. ويواصل قوله ويورد أمثلة من حياة العراقي اليومية ومن تصرفاته وأغانيه فيقول: "ففي بعض الأحيان تراه يفتل شاربيه ويرفع عقيرته قائلاً (أنا أبو جاسم، والمصطفى لأسقط سبع دول). وتراه في أحيان أخرى يغني مكتئباً: (شيفيد السعي لو نام البخت والحظ ... أنا من أقول آه واتذكر أيامي ... ظلاّم ما عندكم رحم، ياللي ظلمتوني ... وين المروة، گلبي تچوه..."[68].

وكما نرى فإن الرأي الذي يطرحه الدكتور الوردي يختلف من حيث المبدأ عن الرأي الذي يقدمه السيد باقر ياسين، فإذا كان الأول يرى الأمر مرتبطاً بالمجتمع والعلاقات السائدة فيه، أي أنها حالة مكتسبة، يرى الثاني أنها من الطبيعة التي جبل عليها العراق، أو بتعبير أكثر صرامة أنها

---

64 الوردي, علي حسين د. شخصية الفرد العراقي. منشورات دار ليلى – لندن. 2001. ص 35/34.

65 الوردي, علي د. مصدر سابق. ص 46

66 نفس المصدر السابق. ص 52.

67 نفس المصدر السابق. ص 51/50.

68 نفس المصدر السابق. ص 51.

جزء من الغرائز الموجودة في الإنسان العراقي التي لا يستطيع الإنسان التدخل فيها والتأثير عليها، فهي والحالة هذه حتمية، كما أنه يضيف إلى ذلك ويشير إلى وجود عادات وتقاليد أخرى مكتسبة. وإذا كان الأول مصيباً في رأيه فأن الثاني، وكما أرى مخطئاً في ما توصل إليه بشأن الطباع الموروثة، رغم أنه لا يطرح المسألة بهذه الصراحة التي حاولت إبرازها في ضوء مجمل الكتاب بهدف إزالة الالتباس إن وجد. وينبغي أن لا يفوتنا القول بأن الدكتور الوردي استدرك في قوله مشيراً إلى غالبية حالات الجريمة مكتسبة من المجتمع الذي يعيش فيه الفرد. وسبب هذه الاستدراك هو وجود بعض الحالات المرضية النفسية أو الاختلالات العصبية التي تقود إلى ارتكاب هذه الجريمة أو تلك. وهو استدراك صحيح.

ويبدو لي مفيداً تسجيل جملة من الحقائق التي لم تغب عن بال الدكتور الوردي عندما كتب محاضرته أو أبحاثه اللاحقة بشأن الفرد والمجتمع العراقي، ولا عن بال السيد باقر ياسين عندما كتب عن تاريخ العنف الدموي في العراق، ومنها:

- **ليست ظاهرة العنف والقسوة حكراً على، أو حصراً بالفرد أو المجتمع العراقي، بل هي كانت وما تزال موجودة في كل المجتمعات دون استثناء، وبشكل خاص منذ أن برزت في هذه المجتمعات الملكية الخاصة وعمليات تقسيم العمل الاجتماعي ونمو الإنتاج وتطور فكر الإنسان وخلقه واختراعه واستخدامه للأديان المختلفة واستعمال دماغه أكثر فأكثر في ما يدور حوله وما يواجهه من أحداث وظواهر.**

- **ولم يتم انتقال الجماعات البشرية من موقع إلى أخر في العهود السالفة، إلا بسبب شحة الأمطار أو المياه في المنطقة التي هم فيها وصعوبة الحصول على المواد الغذائية التي هم بحاجة ماسة لها. وتبدو الحالة أكثر ملموسة عند هجرة هذه الجماعة أو تلك من موقع إلى أخر حيث يتوفر فيه الماء ويزداد الكلأ فتصطدم بالجماعات القاطنة فيها وتحاول إزاحتها أو التقاسم معها، في حين تحاول الأخرى الدفاع عن مواقعها وعن الغذاء المتوفر فيها. وهنا يفترض أن ندرس هجرة سكان البادية في منطقة الشرق الأوسط إلى وادي الرافدين والصراعات التي نشبت حولها ودويلات المدن التي أقيمت فيها، ومن ثم الدول المركزية التي نشأت على أنقاضها. وهناك أمثلة كثيرة في مناطق أخرى سنأتي عليها في مجرى البحث. وبدأ الربط يحصل في تفكير وممارسة الإنسان بين الحرب وإمكانية الحصول على الأسرى وبالتالي إمكانية استغلالهم في النشاط الاقتصادي للحصول على محاصيل أكبر، أو الحصول على أرض جديدة ومواقع أفضل للزراعة والرعي وما إلى ذلك. أن هذه الشروط الجديدة هي التي بدأت تلعب دورها في تغيير تصرف الإنسان وفي إيجاد علاقات قسرية تفرض على الإنسان التصرف بشكل معين، وإلا فسيتعرض لعقوبة معينة. وفي هذا بدأت مظاهر القسوة والهدم والتخريب تظهر في ممارسات**

إنسان المدينة وحضارة المدينة. لقد تنامي تفكير الإنسان وتطور استخدامه لدماغه، وتطورت معه أساليب وأدوات القسر والسلطة ليتكون منها نظاما خاصا للتعامل بين السلطة والفرد في المجتمع، وهي التي لم تعرفها المجتمعات السابقة، كما لم تكن بحاجة لها وكانت تعيش على ما هو متاح حيث توزع وتستخدم ما هو متوفر من قبل هذه الجماعة البشرية أم تلك. ولعب الدين دوراً متميزاً في تنمية هذه الظاهرة بما فيها ظاهرة السلطة والقسوة والتي برزت في تقليد الضحايا (القرابين) التي يراد تقديمها إلى الآلهة. ففي الوقت الذي كانت في البداية عبارة عن تقديم نباتات أو أشياء لا تؤذي أحداً، أصبحت في فترة لاحقة تقديم الحيوانات، ثم الأبناء والبنات أو النساء أيضاً. كتب السيد محمود القمني بهذا الصدد يقول:

"وقد اتخذ أغلب الباحثين من مسألة القربان أحد موقفين:

– موقف يرى أن القربان في بداية أمره اقتصر على ثمار النبات، ثم رأى الإنسان – زيادة في تملق آلهته – أن يذبح لها ماشيته، بحسبان أن اللحم أعلى من النبات رتبة، ولما لم يكن متيسراً له أن يحمل قربانه ليذبحه عند عروش الآلهة، فقد عمد إلى ذبحه ثم حرقه لتتصاعد مادته دخاناً، تشمه الآلهة فتهدأ نفوسها. وزيادة في المغالاة، وإثباتاً لخلوص ضميره لآلهته تحول نحو الدماء البشرية، فأسال بعض دمائه –بجروح مقصودة– على مذابح الآلهة، تقرباً وفداء لنفسه ولأولاده وممتلكاته، ثم تحول الأمر إلى ما يشبه النذور فكان يذبح واحداً من أبنائه لآلهته، إن هي استجابت لرجائه في أمر يرجوه، أو دفعاً لشر محتمل الحدوث.

– وموقف آخر يرى عكس ذلك تماماً، مسايرة لسنة تطور العقل البشري الارتقائية، إذ يذهب إلى أن البداية كانت بالضحايا البشرية، عندما كان الإنسان لا يزال يصارع بدائيته الوحشية، وبالتدريج الارتقائي في تطور العقل تحول نحو الحيوان يستبدله بالإنسان، ليقدمه مذبوحاً أو محروقاً فداء لنفسه أو للقبيلة أو الوطن، وأحياناً اكتفى بتقديم النبات في حال احتياجه للحيوان"[69].

وتؤكد الغالبية العظمى من الباحثين إلى أن الحالة الأولى هي التي عرفتها المجتمعات بشكل عام، رغم أن الإنسان في المحصلة النهائية استقر على الحيوانات وأحياناً دفع النقود للفقراء أو مسائل عينية أو غذائية ...الخ، ولكنها لم تعد تقدم الإنسان قرابين أو نذوراً للآلهة أو لله الواحد. ومن يتابع العهد القديم أو الإنجيل أو القرآن سيجد فيه الكثير من الحكايات والأساطير حول الآباء الذين كانوا يقدمون الأولاد والبنات قرابين لآلهتهم أو لإلههم الواحد.

---

[69] القمني, سيد محمود. الأسطورة والتراث. سينا للنشر. القاهرة. ط 2. 1993. ص 77.

وفي الحضارة البابلية كان الدين يركز على الصلاة وتقديم القربان باعتبارهما التعبير عن الخوف من الآلهة من جهة، والحب للمعبود من جهة أخرى. وعبر عن ذلك في النص التالي:

قدم الخضوع كل يوم لألهك:

التضحيات والصلوات والبخور الواجب

ليكن قلبك نقياً أمام ربك !

إن هذا هو ما يرضي المعبود

إن أنت قدمت التوسل والدعاء والصلاة والسجود في كل صباح

فإنه يمنحك كل الكنوز

وسوف تزدهر أيامك بفضل إلهك

وعقلك راعٍ

الخوف يولد الرفق أو العاطفة

والتضحية تطيل العمر

والصلاة تخلص من الإثم"[70].

وكانت الدعوة غالباً ما تكون بتقديم الحمل كقربان للمعبود، إذ ورد في نص بابلي ما يلي:

"الحمل فداء للبشر

لقد قدم حملاً بدلاً عن حياته

لقد قدم رأس الحمل بدلاً من رأس الإنسان

لقد قدم عنق الحمل بدلاً من عنق الإنسان

لقد قدم صدر الحمل بدلاً من صدر الإنسان"[71].

وهذا النص يشير بشكل غير مباشر إلى الفترات التي سبقت ذلك كانت هناك قرابين أخرى غير الحيوانات، أي الإنسان ذاته. ولم يكن الحمل وحده هو القربان الذي يمكن تقديمه، بل كانت هناك

---

[70] ديلا بورت ل. بلاد ما بين النهرين. ترجمة محرم كمال. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الألف كتاب الثاني. 283. ط 2. القاهرة 1997. ص 163.

[71] نفس المصدر السابق. ص 164.

حيوانات أخرى، ومنها الخنزير للتكفير عن أخطاء المريض مثلاً، كما كان النبيذ يقدم أو النعاج والأطعمة ومنها اللبن والخبز ...72.

• إن جميع هذه التغيرات التي ارتبطت بشكل واضح بتطور الملكية الفردية وتقسيم العمل الاجتماعي وزيادة الإنتاج وحصول فائض فيه، ثم بروز التمايز في ما بين البشر، بين المالكين لوسائل الإنتاج وبين غير المالكين لها تجد تعبيرها في الأدب والتراث الثقافي البابلي بشكل ممتع وهو الذي يعطي القارئ صورة حية عن هذا التطور والتحول عند الإنسان في التفكير والتشريع والممارسة.

• إن العنف والقسوة ينموان وتتسع قاعدتهما ويزداد عدد المشاركين في ممارستهما حيثما تتوفر في المجتمعات شروط أو مستلزمات ذلك. أي عند نشوء وتطور الملكية الفردية وتقسيم العمل الاجتماعي وزيادة الإنتاج وبروز إمكانية التبادل على أساس المنفعة لفائض متاح في الإنتاج، وعند استخدام الحرب كوسيلة اقتصادية للحصول على أسرى حرب وعبيد يراد استخدامهم في النشاط الاقتصادي لتنمية الثروة، برزت معها الحاجة إلى الزعامة وفرض السيطرة واستخدام السلطة التي ارتبطت بدورها تدريجاً بوجود المظالم والجور والاضطهاد ضد هذا المجتمع أو ذاك. وفي ظل مثل هذه المجتمعات تنمو أيضاً ظواهر ممارسات القسوة والرغبة في السيطرة والهدم أو التخريب التي عرفها المجتمع البابلي مع تكون دويلات المدن ومن ثم تنامي ذلك وتفاقم مع تكون الدولة المركزية. وأصبح القائد يفتخر ويعتز بكونه مارس القسوة والعنف والتخريب ضد المدن الأخرى ويتحدث عن الدماء التي سالت. ويمكن هنا العودة إلى كتابات الملوك الآشوريين أو حتى قبل ذاك بكثير.

• إن بروز القسوة والهدم، أي بروز ظاهرة السادية في سلوك الفرد أو المجتمع تقترن ببروز ظاهرة أخرى في المجتمع هي ازدواج الشخصية، باعتبارها أداة للتخلص من القسوة والتعذيب المحتملين. فاستخدام السلطة أو الحاكم لأساليب من هذا النوع تخيف المجتمع وتدفع به للتحري عن أساليب أخرى غير تلك التي مارسها قبل ذاك بسبب عدم حاجته إليها لحمايته من غضب الحاكم. فممارسات الاستبداد والقسوة والتخريب والسادية وفرض إجراءات محددة على المجتمع تخلق عند الفرد والمجتمع ظواهر أخرى مثل الخوف والخشية من العقاب، وبالتالي التحري عن أساليب لتفاديها، ومنها ظاهرة ازدواج شخصية الفرد، أي فرد، وبغض النظر عن مكان وزمان وجوده، فالرغبة في تحقيق شيء ما أو الوصول إليه من جهة، والخوف من الظلم والجور والاضطهاد من جهة أخرى تدفع بالإنسان إلى التقية أو إبداء موقفين متباينين إزاء مسألة واحدة

---

72 نفس المصدر السابق. ص 164.

بهدف الحصول على الشيء بعيداً عن احتمال التعرض إلى العقوبة والاضطهاد المحتملين، ولكنها يمكن أن تخلق ظاهرة مواجهة العنف بالعنف والقسوة بالقسوة والهدم بالهدم أيضاً. وهو ما حصل في المجتمع البابلي العراقي القديم أو المجتمعات المشابهة والمماثلة لمرحلة التطور والمتوفرة فيها ذات الشروط تقريباً؛

- **إن خوف الإنسان من ظاهرة معينة أو من فرد آخر أو جماعة معينة أو من استغلال واستعباد يمكن أن يتعرض له، يدفع به إلى محاولة القيام بعمل ما لاستباق الحدث أو مواجهته بدلاً من الخنوع أو الخضوع له. وهذا يعني في حالات معينة ممارسة القسوة خشية التعرض لها. كتب الشاعر المصري نجيب سرور في فترة الخمسينات قصيدة جاء فيها ما يلي:**

"سأقتلك، سأقتلك، وقبل أن تقتلني سأقتلك ... وقبل أن تغوص في دمي أغوص في دمك".

إنها لوحة سادية تعبر عن محاولة قتل لتجنب القتل المحتمل. كانت القصيدة في معرض الحديث عن الاستعمار والاستعباد والاستغلال، إذ يريد بها مقاومة الاحتلال والاستعمار قبل أن يتعرض لهما. وهي تأكيد على القيام بفعل يجسد القسوة بعينها تجنباً للوقوع تحت وطأة القسوة.

- **وفي فترات تحول المجتمعات البشرية من علاقات إنتاجية إلى أخرى، أي الثورات أو فترات الحروب والفوضى أو وقوع المجاعات، يزداد بروز تلك المظاهر السلبية عند الفرد أو الجماعة، ولكنها تختف في فترات الاستقرار والسلام والرفاهية. كانت الخشية من المجاعات التي تعرض لها الإنسان في فترات مختلفة قد حولت الفرد والمجتمع عموماً إلى سلوكية الخشية من الإفراط في الصرف أو السعي إلى التخزين والاكتناز خشية الوقوع بمحنة جديدة. وأصبحت بمرور الأيام تقليداً يعبر عن بخل لمواجهة شحة محتملة.**

- **وعلى امتداد تاريخ البشرية، وبالرغم من بعض الجوانب الإيجابية في خلق الإنسان الحاكم على نحو خاص للأديان ونشر الإيديولوجية الدينية وغير الدينية لأسباب كثيرة لسنا بصدد البحث بها، فأنها لعبت دوراً بارزاً في تنشيط مختلف الظواهر، إذ أنها كانت المعبر عن واقع معين من جهة، ومحفز على خوض غمار نشر تلك الأديان والإيديولوجية بين الجماعات التي ساهمت بدورها في تشديد الصراع بين الثقافات، وبضمنها الأديان كجزء من البناء الفوقي، من جهة أخرى.**

- **وفيما بعد لعبت الإيديولوجية العنصرية المستندة إلى أرضية دينية "سماوية" أو تفسير ديني – وأقدمها العهد القديم– دورها البارز في تنشيط عمليات التمييز بين البشر وتشديد الصراع والعنف على ذلك الأساس. فكما هو معروف توجد نظريات غير قليلة تؤكد بأن الشعوب تنقسم إلى ثلاث جماعات عرقية أساسية تتمايز في ما بينها في الخصائص والسلوك والدور في المجتمع البشري،**

ونعني بها: الشعوب الحامية، أي شعوب القارة الأفريقية، والشعوب السامية، أي شعوب القارة الآسيوية، والشعوب الآرية، أي الغالبية العظمى من الشعوب الأوروبية مع بعض شعوب الشرق الأوسط باعتبارهم من أصل آري أو آري–هندي. وأن الشعوب الآرية تقف على رأس سلم التطور البشري، تليها الشعوب السامية ومن ثم الشعوب الحامية، التي تقف في أسفل سلم التطور. وأن هذا الاختلاف ناجم عن التباين في الجينات التي لا يمكن تغييرها، وستبقى تميز تلك الشعوب التي ولدت عليها ولا خلاص لها منها. ومثل هذه النظريات في التقسيم العنصري ما تزال قائمة ويؤمن بها كثرة من الناس في أوروبا وأمريكا وفي غيرها من مناطق العالم، رغم كونها مبتذلة وجرى تفنيدها في القرنين الأخيرين. وهي التي نادى بها الحزب النازي وعلى رأسه هتلر وفلاسفته العنصريون في ألمانيا وساهمت في التسبب بنشوب الحرب العالمية الثانية. وهي التي تتحكم بتصرفات غير قليلة على مدى القرنين الأخيرين، وخاصة سلوك الجنس الأبيض في مقابل الأجناس الأخرى من البشرية الواحدة. وهي اليوم تتجلى بصيغة ما في ممارسة السياسة الأمريكية إزاء العالم. وكتاب صدام الحضارات للدكتور صاموئيل هنتنكتون يعرض هذه الذهنية الجديدة القديمة بشكل صارخ وفاضح[73]، يلتزم بها في السياسة الدولية الراهنة المحافظون واللبراليون الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية والذين يتركز وجودهم بشكل خاص في الحزب الجمهوري وحول الرئيس جورج دبليو بوش، أي في الإدارة الأمريكية وفي وزارة الدفاع ومجلس الأمن القومي والمعاهد العلمية المرتبطة بهاتين المؤسستين.

بعد مرور ما يزيد عن أربعة عقود على نهاية الحرب العالمية الثانية، وبعد أن ألحقت نتائج الدراسات العلمية الهزيمة بالنظريات العنصرية والتمييز العنصري، نشر الأستاذ جورج هانسن في عام 1988 مقالة حول "مساهمة التربية في تجنب العداء للأجانب" يفضح فيها بعض جوانب النشر والمواقف العنصرية في ألمانيا حيث يورد مقطعا مهما من مقالة نشرتها جريدة Frankfurter Allgemeine Zeitung بتاريخ 6 شباط/فبراير 1988، وهي للكاتب الألماني كلاوس ناتورب جاء فيها ما يلي:

"إن أصحاب الجرائم في منطقة الروهر بألمانيا كانوا في الغالب أشخاصاً من فصيلة الدم B.

إن أغلبية البولونيين هم من مجموعة الدم B، أما الألمان فهم من فصيلة الدم A.

إن المهاجرين الناطقين باللغة البولونية في منطقة الروهر هم، كما يبدو بشكل واضح، لم يندمجوا حتى الآن بالمجتمع بشكل صحيح.

---

73 هنتنكتون, صموئيل. صدام الحضارات. إعادة صنع النظام العالمي. ترجمة طلعت الشايب. الكتاب صدر في عام 1996 وترجم في عام 1998 سطور. القاهرة. 1998.

ومن هنا يأتي مستوى الجريمة العالي بين أطفالهم وأطفال أطفالهم"74.

في هذا المقطع القصير يشخص القارئ مجموعة من الأفكار العنصرية المقيتة والمتشابكة التي تربط بين فصيلة الدم والجريمة، واعتبار فصيلة الدم التي يحملها البولونيون، أو "العِرق" الذي ينحدر منه البولونيون، هي التي تدفع بهم إلى ارتكاب الجرائم، وأن الجريمة لا تقتصر على الآباء، بل تشمل الأبناء والأحفاد وأحفاد الأحفاد لأنهم يحملون نفس فصيلة الدم، لأن هؤلاء الناس لم يختلطوا بالألمان، وبالتالي لم يتلقح دمهم بالدم الألماني "الأفضل والأنقى" ولم يتعلموا من الألمان من خلال اندماجهم بالمجتمع الألماني. إنهم بذلك يريدون الإشارة الواضحة إلى أن الجينات التي يحملها البولونيون والمتوارثة أباً عن جد هي المسؤولة عن ذلك وهي التي تنتج الجريمة المتأصلة في نفوس البولونيين والتي يستحيل تغييرها. وهذا يعني من جانب آخر، بأن على الألمان أن يتجنبوا تلويث دمهم بدماء البولونيين التي تحمل جنينياً جرثومة الجريمة من خلال التزاوج. إن مثل هذه الموضوعات ليست مجرد هذيان وإعادة إنتاج بعض الأفكار العتيقة والبالية لجماعة ضالة من السياسيين، بل إنها تعبر عن ذهنية عنصرية مريعة وعدوانية شرسة في آن واحد. والغرابة لا تبرز هنا في وجود "بشر" يفكرون بهذه الطريقة العنصرية الخرافية البالية، سواء كان ذلك في ألمانيا أم في بقية بلدان الاتحاد الأوروبي أو في بقية بقاع العالم، بل الغرابة كل الغرابة تبرز في امتلاك جريدة يومية سياسية عامة ومشهورة في ألمانيا، وهي جريدة سياسية معروفة بوجهتها اليمينية، أن تنشر هذراً وسماً من هذا النوع لا يسئ إلى الشعب البولوني فحسب، بل ويثير الحقد والبغضاء بين الشعوب، ولا تقدم للمحاسبة أو المحاكمة بسبب نشرها مثل هذه الدعاية العنصرية والمحرضة ضد الجاليات والشعوب الأخرى. كما لا يحاسب الكاتب على هذه الصياغات العنصرية التي تستهدف إثارة الألمان ضد وجود بولونيين في ألمانيا، كما إنها إثارة ضد كل الذين تجري في عروقهم دماء من المجموعة B.

ولكن هل يمكن لمثل هذا التحليل أن يصمد أمام الحقائق العلمية الحديثة في تحليل بنية وطبيعة الإنسان عموما، وفي تحليل أسباب العنف وممارسة التعذيب في البلدان المختلفة، ومنها العراق القديم والحديث؟ وهل يحق لنا قبول مثل هذا التبسيط للأمور، والموافقة على اتهام شعب بأكمله بالتطرف وبالاستعداد لممارسة العنف والتعذيب؟ إن ظواهر التطرف والعنف والتعذيب وقسوة

---

74 Natrop, Klaus. Frankfurter Allgemeine Zeitung (FAZ), vom 6.2.1988. Zitiert aus dem Buch "Extremismus und Fremdenfeindlichkeit". Herausgeber: Bundesminister des Innern. Bonn. 1992. Bd. 1. S. 34.

المعاملة التي مارستها الدولة الأموية وكذلك الدولة العباسية، أو حتى في فترة الخلفاء الراشدين في صدر الإسلام، أو قبل ذاك في العراق القديم، لا يمكن فصلها عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية التي سادت في تلك البلدان في مختلف العهود، ولا بد عند دراستها من بذل جهود غير قليلة لاستيعاب وتحليل تلك الأوضاع وفهم علاقتها بالتراكمات الحاصلة في هذا الصدد منذ عشرات القرون في العراق القديم وصولا إلى الأوضاع الراهنة في العراق الحديث. من يتابع أحداث القرون الوسطى في أوروبا مثلا سيدرك حقيقة أن أوروبا عاشت وشهدت أبشع أشكال العنف وأساليب التعذيب الجسدي والنفسي في تاريخ البشرية كلها حينذاك. كما أن من يدرس تاريخ أمريكا الشمالية سيدرك شدة العنف والقسوة الطاغية والقتل الجماعي الواسع التي مارسها الأوروبيون النازحون والمستوطنون في تلك المنطقة للتخلص من سكان أصل البلاد، الهنود الحمر، والحلول مكانهم في القارة، وكثرة من الأفلام السينمائية الأمريكية الجادة تظهر هذه الحقيقة، في حين تحاول بعض الأفلام الأخرى أن تزين القضية للمشاهد وتضع الأمر وكأنه يعبر عن صراع بين الحضارة والتخلف.

وتاريخ أمريكا الشمالية يدلل أيضاً على القسوة الجامحة التي مارسها الأوروبيون النازحون إلى هذه القارة الجديدة في حينها والأساليب التي مارسوها للهيمنة على القارة الجديدة والتخلص من الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين. وكان القتل والتشريد والتهجير القسري جزء من تلك الأساليب الهمجية التي مورست. وكانت الحرب الأهلية التي تفجرت بين الشمال والجنوب واحدة من أبرز قضايا تاريخ الولايات المتحدة حين تعرض الأفارقة السود الذين جلبوا من القارة الأفريقية إلى العبودية والاستغلال البشعين على أيدي العوائل وأصحاب رؤوس الأموال الأوروبيين. وكانت القسوة والعنف هما الطريق لتحقيق الأرباح وتعظيم رؤوس الأموال والسيطرة الكاملة على الحكم والمجتمع. ولم تكن الحرية إلا للأوروبيين الغزاة. وهذه السلوكية لدى الأوروبيين الأمريكان ما تزال هي المحددة للقوى الحاكمة هناك والتي تتجلى في الموقف من الحروب ومن الادعاء بأنهم يحملون لواء الحرية بيد والخير بيد الأخرى لمحاربة لواء العبودية والشر في العالم.

عند دراسة تاريخ النازية في ألمانيا يتعرف الإنسان بشكل دقيق على أسس ممارسة العنف والتعذيب إزاء بنات وأبناء الشعب الألماني ذاته وإزاء الشعوب الأخرى في فترة الحرب العالمية الثانية لأسباب عنصرية وتعصبية وفكرية واستعمارية متنوعة لم يعرف تاريخ البشرية مثيلاً لها من قبل. وفي الوقت الذي تعرض اليهود في ألمانيا الهتلرية إلى صنوف التعذيب والقتل في غرف الغاز وأفران الحرق وسلخ الجلود على امتداد فترة الاعتقال في معسكرات الفاشية في ألمانيا وفي غيرها من الدول الأوروبية المحتلة حينذاك حتى وصل عدد ضحايا اليهود وحدهم إلى ستة ملايين إنسان، بسبب موجات العداء للسامية، أو لليهود الساميين على نحو خاص، فإن حكومات

إسرائيل المتعاقبة تمارس شتى أشكال التعذيب الجسدي والنفسي والقتل المتعمد في السجون وفي الشوارع ضد المواطنين الفلسطينيين العرب من مسلمين ومسيحيين، إضافة إلى العقوبات الجماعية مثل تهديم البيوت على رؤوس ساكنيها ورميها بالصواريخ والقنابل وما إلى ذلك من أسلحة محرمة دولية. ولا شك في أن العمليات الانتحارية التي يقوم بها الشباب الفلسطيني بتنظيم ودفع ودعم من منظمات وأحزاب الإسلام السياسي المتطرفة التي تؤدي إلى قتل وجرح عدد كبير من اليهود، إضافة إلى الشباب المنتحرين. وتؤدي بدورها إلى سلسلة من العمليات الانتقامية على طريقة العين بالعين والسن بالسن.

وقدمت جمهورية جنوب أفريقيا نموذجاً مماثلاً في القسوة والإرهاب والقمع ضد سكان البلاد الأصليين من جانب السكان الأوروبيين البيض النازحين إلى أفريقيا. فكانت أساليب الاعتقال والتعذيب والقتل والقمع الذائب هي الأساليب المميزة لفرض التمييز العنصري في الجمهورية وضمان استمرار الاستغلال وتحقيق أقصى الأرباح.

ويمكن أن نتعرف على ما يماثل ذلك في عدد كبير جدا من بلدان العالم. فالعمليات الإرهابية الأخيرة التي قامت بها مجموعة إرهابية "عربية مسلمة" ضالة ضد بنايات المركز التجاري الدولي في نيويورك وضد البنتاغون في واشنطن يؤكد على أن الحقد والكراهية وما ينجم عنهما غير محصور ببلد وشعب بعينه بل يمكن أن نجده في بلدان وبين أوساط كثيرة.

وإزاء هذا الواقع يدرك الإنسان بشكل منطقي وعلمي بأن العنف وأساليب التعذيب أو القسوة وارتكاب الجريمة وعدوانية التصرف لا ترتبط بجينات الفرد وليست هي وراثية، كما يحاول التحليل المبسط و "العلمي المبتذل"، أن يؤكده لنا، بل هي عادات وسلوكيات مكتسبة في المجتمع ومن المجتمع ذاته وعبر أجيال متتابعة. وليس من شك في أن أمراضاً يمكن أن تصيب الإنسان تقوده إلى ممارسة القسوة، ومنها السادية وجنون العظمة والنرجسية التي أن إجتمعت عند إنسان معين، كما كانت لدى هتلر وموسوليني وستالين وصدام حسين وأسامة بن لادن وغيرهم تحولهم إلى مجرمين من طراز خاص وعتاة لا يمكن للبشرية أن تتحملهم.

قراءة في كتاب

"جدار بين ظلمتين" لبلقيس شرارة ورفعة الجادرجي

"الجلاد والضحية في بلاد الرافدين!"

قراء في كتاب : جدار بين ظلمتين

المؤلفان: بلقيس شرارة ورفعة الجادرجي

دار النشر: دار الساقي، لندن

تاريخ النشر: 2003

عدد الصفحات: 350 صفحة من القطع المتوسط

عند تصفح كتب التاريخ التي تبحث في مسيرة العراق منذ ألاف السنين، وحين يقرأ الإنسان كتاب "موسوعة العذاب" للكاتب عبود الشالجي (1910-1996م)، وكتاب الأستاذ هادي العلوي (1933-1998م) حول

التعذيب في الإسلام، أو عند قراءة كتابي الموسوم الاستبداد والقسوة في العراق،على سبيل المثال لا الحصر، يتيقن القارئ أو القارئة بأن هذا التاريخ كان ولا يزال مليئاً بعلاقة خاصة متميزة ومستمرة غير إنسانية بين الضحية والجلاد، بين الإنسان المفكر وعدو الإنسان والتفكير، بين الخير والشر، سواءً اجتمعا في الواحد أم توزعا على اثنين على وفق ميثولوجيا الشعوب المتنوعة. وحين يقرأ الإنسان الشرائع العراقية منذ القدم، ابتداءً من قانون أوروكاجينا وإصلاحاته الاجتماعية ومروراً بقوانين أورنمو ولبت عشتار وإيشنونة وشريعة حمورابي وقوانين الكلدان والآشوريين من بعده، سيجد أمامه تطورات وتحولات إيجابية في تلك المجتمعات، ولكن برز المزيد من القوانين العقابية القاسية والموجعة للإنسان بالارتباط مع واقع تطور الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وتطور ملموس في تقسيم العمل الاجتماعي ونشوء دولة المدينة ومن ثم الدولة المركزية. ففي الوقت الذي خلت أولى الشرائع العراقية من عقوبات ردعية واعتمدت على فرض الغرامات المادية،فإنها تحولت تدريجياً إلى عقوبات تصيب الجسد والنفس البشرية في آن، ثم اتخذت أبعاداً جديدة في شريعة حمورابي التي تضمنت 52 مادة تعاقب بالموت على الكثير من المخالفات، واقترب عدد قوانين ومراسيم صدام حسين الذي كان يحكم بالموت على الإنسان من عددها في زمن حمورابي رغم التغيرات الكبرى بين الفترة التي وجد فيها حمورابي والفترة التي برز فيها صدام حسين وحكم حزب البعث العربي الاشتراكي الاستبداديين.

لقد تميزت قوانين حمورابي بالقسوة المفرطة، دللت عليها قاعدة العين بالعين والسن بالسن. لقد مارس الحاكم الجلاد التمييز والاستغلال والاضطهاد ضد سكان البلاد بشتى الأساليب والأدوات، واستند في ذلك إلى قوانين وقواعد معينة في الحساب والعقاب منطلقاً من كونه يمثل الإله على الأرض، إضافة إلى الاعتقاد بأن الحاكم (حمورابي مثلاً) نصفه من الآلهة ونصفه الآخر من البشر.

وفي الدول "الإسلامية" تعددت صيغ تعذيب الإنسان واذلاله وسحق كرامته وتنوعت أدوات وأساليب ممارسة التعذيب، وخاصة من قبل الخلفاء الأمويين والعباسيين وسلاطين الدولة العثمانية وولاتهم في مختلف المناطق. وكتاب "موسوعة العذاب"يقدم لنا لوحات مأساوية عن العلاقة الحاكمة بين الجلاد والضحية، حيث يقشعر لها الإنسان وتجسد الانحطاط الأخلاقي والتعسف اللاإنساني الذي تميز به هؤلاء الحكام الأوباش. كما يمكن العودة إلى كتابي الموسوم "الاستبداد والقسوة في العراق" صادر عن مؤسسة حميد، السليمانية 2005.

إن تاريخ العراق السياسي الحديث حافل بالتجاوزات الفظة والكارثية على حياة الإنسان وحقوقه وكرامته، سواء أكان ذلك في فترة الاحتلال البريطاني وسنوات الانتداب حتى العام 1932، أم بعد ذلك وعلى امتداد فترة الحكم الملكي حتى العام 1958. ولم تخل فترة عبد الكريم قاسم من ممارسات قمعية من جانب أجهزة

الأمن، وبشكل خاص ابتداء من العام 1960 حيث تعرض الكثير من المعارضين أو حتى المؤيدين للسجن والتعذيب أيضاً.

وفي الفترة التي أعقبت انقلاب شباط الدموي في العام 1963 واجه الشعب العراقي صنوف التعذيب والعذاب والحرمان والتنكيل والقتل بالجملة. وهذه الفترة القمعية استمرت عملياً حتى سقوط الدكتاتورية في العام 2003 تحت ضربات القوات الأمريكية – البريطانية. ومنذ سقوط الدكتاتورية الغاشمة حتى اليوم يواجه العراق استبداداً شرقياً جديداً مطعماً بالدين وفتاوى شيوخه والأحزاب الدينية الإسلامية السياسية ذات النهج الطائفي المقيت.وهذا النوع من التمييز والاستبداد الفكري والسياسي لا يقل خطورة وبشاعة عن الدكتاتورية الشوفينية والعنصرية لحزب البعث العربي الاشتراكي وقيادته ابتداءً من أحمد حسن البكر ومروراً بالآخرين وانتهاء بصدام حسين الذي فاقهم جميعاً في مستوى استبداده وفظاعة جنون العظمة التي ميزته بساديته وعمق نرجسيته المرضية. وبعد سقوط الدكتاتورية الغاشمة ترعض الإنسان العراقي إلى شتى أشكال التعذيب في سجن "أبو غريب" على أيدي القوات الأمريكية المحتلة والتي أصبحت نموذجاً يضاهي ما مارسه الجزارون في فترة البعث ضد السجناء والمعتقلين، إضافة على ما يمارس اليوم في فترة الحكم الطائفي بالعراق.

على امتداد عقود طويلة كان العراق وما يزال يحكم دون قوانين، رغم وجود دستور مؤقت أو دستور دائم، فالحاكم هو الدستور وهو القانون وهو الذي يمسك بيديه السلطات الثلاث إضافة إلى الإعلام بمختلف وسائله وأدواته باعتباره السلطة الرابعة. فالحاكم بأمره هو الذي يقرر كل شيء وبقراراته تعمل أجهزة الدولة ومؤسساتها. فهو الذي يقرر من يعيش ومن يموت وكيف يموت وبأي واسطة، وهو الذي يحدد من يشبع ومن يجوع، ومن يسجن ومن يمتلك حرية ناقصة دوماً، وهو الذي يقرر من يعمل ومن لا يعمل ويحارب بالرزق اليومي ويركن جانباً ويعيش في عزلة خانقة حتى الموت. إنه المستبد بأمره، إنه القائد الضرورة، إنه الفلتة التاريخية التي أنتجها العرب عبر تاريخهم الطويل على شاكلة الكثير من الحكام ممن سبقوه في حكم العراق، إنه صدام حسين. وما أذكره هنا ليس حديثاً عبثياً عابراً ، بل يجسد حقائق موثقة بآلاف القرارات الصادرة عن مجلس قيادة الثورة أو عنه مباشرة، وكان ما يصدره يعتبر قانوناً واجب التنفيذ، وهو ما عبر عنه بنفسه في واحدة من خطاباته الكثيرة.

الكتاب الذي قرأته في العام 2008 كتبت عنه مقالاً ونشر في نفس العام. ولكني اليوم في نهاية العام 2013 قرأت الكتاب ثانية ووجدت فيه الكثير الذي يستوجب الكتابة عنه. فالكتاب الموسوم "جدار بين ظلمتين" يقدم لنا لوحة استثنائية ووصفاً مميزاً للعلاقة بين الجلاد والضحية بالعراق. ببلاد الرافدين، ويؤكد ما أشرت إليه بأن العراق شهد على امتداد تاريخه الطويل علاقة مريعة بين الإنسان العراقي المفكر والناقد والمتطلع نحو الأفضل، وبين الحاكم الجلاد المستبد بأمره، المنغلق على نفسه، المشدود إلى كرسيه،

المطعون في ضميره والمغتصب لإرادة الإنسان وحقوقه والدائس على كرامة الإنسان. فما هو هذا الكتاب وما هو سر أهميته؟

في العام 2003 صدر عن دار الساقي بلندن كتاب قيّم للأديبة والكاتبة السيدة بلقيس شرارة والمهندس المعماري الكبير والباحث والكاتب الأستاذ رفعة الجادرجي تحت عنوان "جدار بين ظلمتين". ومن المؤسف حقاً أني لم أطلع على هذا الكتاب إلا في الآونة الأخيرة حين تسلمت الكتاب هدية غنية وطيبة من الأستاذ رفعة الجادرجي، ولهذا لم يتسن لي الاستفادة منه حين أنجزت كتابي الموسوم "الاستبداد والقسوة في العراق" والذي صدر عن مؤسسة حمدي في مدينة السليمانية في العام 2005، إذ لو كنت قد اطلعت عليه لخصصت لأحداثه المأساوية موقعاً مناسباً في كتابي.

وكتاب "جدار بين ظلمتين" يكشف ببراعة ودقة وبأسلوب غير معهود عن جوانب جوهرية وحساسة للعلاقة غير المتكافئة والمريرة بين نظام الحكم والمواطن، بين الجلاد والضحية، بين مستبد مُغتصِب للسلطة ومهيمن على أجهزة القمع والسالب لحقوق الإنسان كافة والناهب للأموال من جهة، وبين الإنسان الضحية والأعزل والمُغتصب والمسلوب من حريته وحقوق المواطنة والفاقد لكل ما يمت بصلة لما يسمى بمبادئ لائحة حقوق الإنسان التي ساهم العراق في وضعها ووقع وصادق عليها منذ العام 1948 وما صدر من لوائح أخرى في مجال شرعة حقوق الإنسان عن الأمم المتحدة من جهة أخرى. الكتاب يقدم لوحة إنسانية وواقعية أصيلة تصور الإنسان الأعزل في مقابل سلطة مستبدة، ظالمة ومستهترة بكل القيم الإنسانية وما يطلق عليه بـ"الشرائع السماوية!"، يقدم لنا صوراً مشحونة بالألوان والعواطف والمشاعر الإنسانية الجياشة والمخنوقة في آن. يقدم لنا الكاتبان صورة الحزن والألم الإنسانيين اللذين يسيطران على مشاعر الإنسان في أكثر اللحظات قسوة ومرارة وعذاباً وهو عاجز تماماً عن الدفاع عنه نفسه أو عن ابنه أو ابنته أو زوجته أو زوجه. بينه وبين الموت أو اغتياله خارج القانون وباسم القانون قاب قوسين أو أدنى. من يقرأ هذا الكتاب الفريد في طريقة عرضه للأحداث سيجد أمامه شريطاً سينمائياً فريداً في عرضه للأحداث، متنقلاً بين السجن الصغير والسجن الكبير،متحركاً في فضاء الفكر غير المقيد بالرغم من السجن القامع لكل شيء، إنه پانوراما واقعية لما كان يواجه العراق والشعب في تلك المرحلة من مراحل الإرهاب الحكومي الماحق لكل ما هو إنساني. والكتاب مؤهل جداً وبامتياز لكتابة سيناريو رائعة لفيلمٍ سينمائي يسجل حقائق الوضع في أحلك مرحلة من مراحل عراق القرن العشرين، إنها المرحلة الأكثر سواداً وعبثية وهدراً للإنسان وحياته وكرامته وحقوقه وأمواله وبدء حروبه الخارجية. أتمنى أن يكتشف واحداً من خيرة المخرجين البارعين على الصعد العراقية والعربية والعالمية هذا الكتاب ليبدأ بالبحث عن منتج وكاتب سيناريو ومصور وممثلين مبدعين يمكنهم تحويل هذه الرواية الواقعية إلى حياة مليئة بالحركة والفعل الإنساني على الشاشة البيضاء من أجل المساهمة بإزالة الحجب السميكة التي شكلت جداراً منع عن عيون الكثير من الناس

حينذاك،وخاصة الناس بالدول العربية،وبعضهم ما يزال حتى يومنا هذا يواجه مثل هذا الجدار الإيديولوجي المانع عن إدراك الحقائق في الأوضاع التي سادت بالعراق في فترة حكم البعث وصدام حسين.

يجسد هذا الكتاب تجربة ذاتية غنية جداً لشخصين، وبتعبير أدق، لزوجين حبيبين، لعاشقين بكل ما في هذه الكلمة من معنى عميق، أحدهما يعلن عن ذلك صراحة وبأحلى الكلمات المعبرة وأكثرها رقة وشوقاً وحيوية، وهي المرأة الشجاعة والمفعمة بالأنوثة والحيوية والحب، إنها بلقيس شرارة، والآخر العاشق الذي يتجنب الحديث عن الحب، رغم هيامه بزوجته الجميلة وحبه للإنسان واحترامه له، إنه رفعة الجادرجي، إنه الرجل الذي، وكأي رجل عراقي، يستحي من التعبير عن حبه والإعلان عن عواطفه إزاء حبيبته وزوجته صراحة، رغم تفتحه الفكري والثقافي الكبيرين، فهو ابن هذا المجتمع رغم تمرده المتنوع عليه وعلى تقاليده البالية ورغم غزارة علمه ووعيه الهندسي.

عاشا معاً ما يقرب من ثلاثة عقود قبل أن يواجها ظلم النظام واستبداده واستهتاره بكل القيم الإنسانية المتراكمة عبر الزمن وتاريخ الشعوب حين تم اعتقال الزوج رفعة الجادرجي، عاشا في عالم الثقافة العراقية والإقليمية والدولية، تجولا في بلدان العالم سعياً وراء الفن والموسيقى والثقافة وفن العمارة، عاشا الحياة الثقافية المتنوعة والإبداع الفني معاً وكل في مجال اختصاصه، وبالتالي قدم كل منهما لنا بأسلوبه الجميل المتباين في تجربته واتجاهات تفكيره وأفكاره ومعايشته للآخرين عن ذات الفترة التي عاشاها طيلة عشرين شهراً، وهي الفترة التي قضاها الأستاذ رفعة في معتقلات العراق الجهنمية بعد أن حكم عليه بالحبس المؤبد.

يبدأ المهندس المعماري البارع والدولي الأستاذ رفعة الجادرجي ورئيس المكتب الاستشاري العراقي بوصف مكثف عن حياته اليومية وحياة من عاش معه تلك الأحداث منذ أن اعتقل من قبل جهاز المخابرات العراقية في زمن الدكتاتورية المطلقة والنظام الشمولي الفردي، فترة كانت قبل وأثناء وبعد صعود صدام حسين من موقع الرجل الثاني أو نائب رئيس الجمهورية ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة إلى رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس قيادة الثورة ورئاسة الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة، ووضعه في زنازين المخابرات العراقية واضطهاد الجلادين اليومي له ولغيره من المعتقلين. والثاني هي الأديبة والكاتبة الأستاذة بلقيس شرارة التي عاشت المأساة خارج السجن بحرية مقيدة وقدرة ضعيفة على تقديم العون لمن يقبع وراء الجدار رغم الجهود المبذولة لفك حبسه وإطلاق حريته وكتبت لنا عن معاناتها وقسوة الحياة عليها بعيداً عن حبيبها وعن أسئلة محيرة لا جواب لديها عن المستقبل المجهول لزوجها وعن مستقبل العائلة.

وضع زوجها في زنزانات صغيرة جداً وفي معتقلات وسجون أكبر، بينما كانت بلقيس تعيش في سجن كبير هو العراق كله في فترة حكم صدام حسين، ولكنه يبقى ضيقاً جداً إذ يحرم الإنسان من التنفس بحرية من

الحلم بأمان، يحس دوماً بالاختناق. لقد كان الفاصل بين الزوجين جداراً سميكاً وعالياً، جداراً اسمه الدكتاتورية الغاشمة وسجونها المظلمة، إنه الـ"جدار بين ظلمتين".

الكاتبة بلقيس شرارة خريجة كلية الآداب ومن وسط وعائلة ثقافية وديمقراطية تقدمية وأبوها الأستاذ الكبير والكاتب محمد شرارة وأختها الكاتبة الرائعة حياة شرارة اللذين تسبب النظام بموتهما، أسلوبها شفاف ورقيق ينساب بعفوية كما تنساب المشاعر الإنسانية الحرة، وأدب جميل في الكتابة ينساب بهدوء إلى عقل الإنسان ويدغدغ عواطفه ويحرك مشاعره ويشعره بالمظالم التي يتعرض لها الإنسان في الربع الأخير من القرن العشرين، سواء حين كتبت عن الحزن والألم والمرارة وفقدان الأمل والثقة بالآخر، أم حين كانت تعيش البسمة والسعادة حين يحاورها أبوها ويسعى على تغيير أجواء الحزن المهيمنة عليها، وسواء كتبت عن الغضب أم عن الحب بأجمل معانيه، حب أم رفعة لابنها وحب نصير ويقظان لأخيهما وحب وبكاء الأخت أمينة لأخيها والزوجة لزوجها،أو السائق وهو يبكي ويردد "شلون عمي رفعة ينسجن مؤبد؟ شلون؟ شلون يابا شلون!"إنها التفاتة إنسانية بارعة تشير إلى العلاقة الطيبة والحميمة بين السائق والعائلة والأستاذ رفعة. حين تكتب تغوص في عمق الإنسان وتسعى إلى اكتشاف دواخله والعوامل التي تحركه وتبحث في خلفية ذلك. وكما يقول المثل المصري الإنسان عوالم!

أما الأستاذ رفعة الجادرجي فهو ليس مهندساً كبيراً فحسب، بل هو فنان كبير ومثقف رفيع المستوى وقارئ نهم وكاتب مجيد، وكتاباته تعبر عن ذهن هندسي متقد ومبادر ومبدع وله منهجية صارمة وقدرة عالية على التحليل للنفس البشرية، صريح وجرئ في عرض أفكاره الفلسفية والحياتية والمواقف التي مرّ بها ورأيه في الناس والأحداث التي عاشها.

والكتاب يروي لنا قصة شخصيتين عاشتا عشرين شهراً في موقعين مختلفين أحدهما في السجن والآخر في البيت والمجتمع، ومن هنا اختلف فحوى أحاديثهما وحركتهما وتباينت طبيعة الشخوص اللذين تعايشا وتعاملا معهم وسلوكياتهم ووفائهم للصداقة أو انتهازيتهم أو خشيتهم الشديدة من بطش النظام، ولكنهما التقيا في تشخيص عام سليم حول مسائل مشتركة كان يعيشها الشعب العراقي بغالبته. فماذا ينقل لنا الكاتب رفعة الجادرجي من وراء القضبان وفي وكر الذئاب جلاوزة النظام وسجانيه، وماذا تكتب لنا بلقيس شرارة وهي خارج السجن الصغير وفي سجن أكبر حيث تعلق القلق والخوف من غدٍ مجهول؟

غالباً ما كانت اعتقالات الناس، سواء أكانوا معارضين أو قضايا أخرى غير معروفة للمعتقل، تجري على الطريقة التي طرحها الأستاذ رفعة الجادرجي حين جاء شخصان لاعتقاله:

قال رفعة: ماذا تريدان مني، أخبراني الآن؟

أجابا بصوت خافت وقور: "أستاذ، لن يطول غيابك أكثر من عشرين دقيقة، يريدون الاستفسار، بعض الأسئلة و ترجع إلى بيتك وأهلك." وكانت النتيجة أن قدم إلى محكمة الثورة، وهي محكمة قرقوشية خارج القوانين والدستور، وحكم عليه حكماً مؤبداً، وحكم على آخرين بالموت أو الأحكام المماثلة في ذات الدعوة الملفقة! وهكذا كان حين جاء رجلا أمن إلى بيتي في شهر تموز من العام 1878 لاعتقالي، وكان أحدهما طالباً في الكلية التي كنت أدرس فيها في الجامعة المستنصرية:

سألتهما: أخبراني ما جاء بكما في هذه الظهيرة التموزية الحارة؟

"لا شيء بالمرة، أستاذ كاظم،المدير العام الدكتور فاضل البراك يريد اللقاء بك، قيل لنا إن اللقاء لن يطول أكثر من نصف ساعة." وكان الاعتقال والتعذيب البربري الذي تعرضت له في مديرية الأمن العامة في البتاوين. وهكذا كانت تجري عملية اعتقال مئات ألوف الناس بل ملايين الناس الأبرياء على مدى 35 عاماً، أي خلال فترة حكم حزب البعث العربي الاشتراكي بين عامي 1968–2003. وإذا كان الآلاف منهم قاد عادوا إلى بيوتهم فإن الكثير والكثير جداً منهم قد قتل تحت التعذيب أو سجن لسنوات طويلة أو أرسل إلى جبهات القتال ليموت هناك كما حصل للآلاف من شباب الكرد الفيلية ابتداءً من العام 1980. وكانت هناك أساليب أخرى وحشية في الاعتقال تجري من خلال الهجوم على الدار أو النزول من السطوح ومفاجأة العائلة، أو الاختطاف من الشوارع أو الاعتقال في المدارس والعمل والمعامل ...الخ.

لقد بذل نظام البعث وأجهزته الأمنية والمسؤول الأول عن الجهاز صدام حسين جهوداً استثنائية لبث الرعب في صفوف الشعب وقهر وإسكات القوى المعارضة له وإضعافها ومن ثم السعي لتصفية وجودها. فكان القتل والرمي في الشوارع والاعتقالات العشوائية وأحكام مجلس قيادة الثورة وإعدامات المواطنين اليهود بتهم باطلة وإعدام عراقيين بتهمة التجسس لإسرائيل في الساحات العامة وترك الجثث معلقة وكأن البعث والنظام في كرنفال قد أعاد إلى ذاكرة الشعب أحدث انقلاب 8 شباط/فبراير البعثي الفاشي. فساد الخوف على نطاق واسع حقاً. وحين كان يعتقل كان يصعب على الأهل معرفة مكان الاعتقال أو حتى الاستفسار عنه. وحين أصبح صدام حسين رئيساً للجمهورية نفذ مجزرة دموية بحق رفاقه في الحزب وصعد على أشلائهم ليتربع على كرسي رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس قيادة الثورة ورئاسة حزب البعث والقائد العام للقوات المسلحة ورئيس الوزراء. ومن هنا أصبح صدام حسين المالك بيديه مصير الدولة العراقية والبشر فيها. في لحظة يقرر الموت لهذا الشخص وفي لحظة أخرى يقرر العفو عنه دون أن يستطيع أي شخص حتى من أقرب الناس إليه أن يستفسر عن السبب في اعتقاله أو إعفائه. هكذا حصل أثناء التحقيق مع رفعة الجادرجي حين جرى الحديث التالي مع حاكم التحقيق صادق سالم الذي استدعاه إلى غرفته بعد صدور الحكم المؤبد عليه ومصادرة أمواله:

"أصبحنا أنا وحاكم التحقيق وجهاً لوجه هذه المرة.

فقال "ماذا تقول عن قرار الحكم؟"

فقلت: "حدث"، كنت أقصد أن أقول "صدمة"، ولكن كنت لا أزال في دوامة وأنا أدور في صدمة الحكم المؤبد، وأحداث المحكمة الصورية."

فقال: "الذي أدخلك، سيطلعك. أنت بالنسبة إلينا مهم جداً، ونعتبرك ثروة وطنية، فالذي أدخلك سيطلعك، وإذا وجدت أي صعوبة أو مضايقة في السجن أو مشكلة، فاتصل بي شخصياً." (ص 180)

بدأت بلقيس شرارة حينذاك تتابع أخبار المعتقلين وسلوك صدام حسين في التعامل مع السجناء والتقطت الكثير من الحوادث التي تدلل على الأحكام المزاجية للدكتاتور واحتمال إطلاق سراح من هو محكوم بالإعدام أو المؤبد، ولكن احتمال إعدام من لم يقدم للمحاكمة أصلاً وبأساليب أخرى. وكتب عن قضيتين، على سبيل المثال لا الحصر، تؤكد بأن العراق كان يعيش في بلد الـ "واق واق":

قالت وجدان لبلقيس شرارة ما يلي:

"زارني أمس في مكتبي مهندسان، لهما علاقة بالمشاريع التي ستقام في بغداد بمناسبة مؤتمر عدم الانحياز الذي سيُعقد في بغداد عام 1982، و نقلا إليها حديثاً دار بين أحد المسؤولين المهمين و رئيس الجمهورية صدام حسين، حيث سأل الرئيس عن المعماريين المهمين الذين يمكن إناطة هذه المهمة بهم و إعادة بناء بغداد، فأجاب ذلك المسؤول: سيدي عندنا خيرة المهندسين في الشرق الأوسط، الذين من الممكن إناطة مثل هذه المسؤولية بهم. سأله الرئيس: لماذا لا يمكن إناطة هذه المسؤولية بهم؟ أجابه المسؤول: "سيدي واحد جوة والآخر برّة" يقصد بذلك أن رفعة الجادرجي في السجن والمعماري الآخر الدكتور محمد مكية خارج العراق، فقد ترك العراق منذ بداية السبعينيات.

أجاب الرئيس عندئذ: الجوه نطلعوا، والبرّة نجيبوا". (ص 319/318).

أما الحادث الثاني فهو التالي:

"زار الرئيس إحدى المدارس في حي المنصور، حيث استقبل بالأناشيد والهتافات من قبل طالبات المدرسة. وبعد انتهاء الزيارة، ركب سيارته، فرمت طالبة نفسها على نافذة السيارة، وبيدها باقة زهور، و عيناها مغرورقتان بالدموع. سألها الرئيس عن سبب بكائها؟ أجابته: إن والدي بالسجن. قال لها: "من هو والدك؟"

أجابت عن اسم والدها، قال لها: "هو مو خوش آدمي، وأذى البلد هواي، لكن لخاطرج راح أطلعه." وبعد فترة قصيرة أطلق سراحه". (ص 231)

لم يكن صدام حسين وحده يثير الرعب في نفوس الناس حسب، بل جلاوزة النظام وجلادوه وسجانوه كانوا ينفذون الرعب الفعلي المفرط على السجناء والمعتقلين إلى ابعد الحدود وكانوا يحولون حياة السجناء والمعتقلين إلى جحيم إضافي بسبب التعذيب والتجويع والحرمان من الشمس أو الهواء الطلق أو الذهاب إلى الحمام للتغوط ...الخ.

حين نقرأ الكتاب نكتشف بسهولة ويسر سمات مميزة لطبيعة الفترة التي كانا يعيشان فيها، طبيعة السلطة السلطوية التي حكمت العراق طيلة ثلاثة عقود ونيف. فالنظام تميز بـ:

• غياب كامل للحياة الدستورية والقانون والحرية الفردية وحق الإنسان في الدفاع عن نفسه.
• غياب سلطة القضاء المستقلة القادرة على اتخاذ القرار بمعزل عن إرادة السلطة التنفيذية.
• حق الحاكم المطلق بإصدار الأوامر باعتقال أي شخص مهما كانت منزلته دون الحاجة إلى تبرير ذلك.
• حق أجهزة الأمن والمخابرات ممارسة الاعتقال دون العودة إلى أمر قضائي أو التحقيق أمام حاكم تحقيق أو المحاكمة أمام محكمة شرعية وأسس وقواعد قانونية.

• حق أجهزة الأمن والمخابرات في اعتقال وتعذيب وقتل من تشاء دون خشية من محاسبة وعقاب. وقُتل تحت هذه الحماية الممنوحة للأجهزة القمعية الكثير من الناس الأبرياء تحت التحقيق والتعذيب أو دس السم لهم أو بأي أسلوب آخر.

• الكراهية والحقد يملآن صدر الجلاد إزاء الإنسان والرغبة في إهانته وسحق كرامته. فليس للإنسان في عرف الجلاد قيمة وليست له حقوق.

• لا اعتبار لرهافة إحساس الإنسان وأحلامه وتطلعاته، بل بذل كل الجهد من جانب النظام لتدمير الذات وتحطيم شخصية الإنسان عبر أساليب فاشية وعدوانية جارحة.

• بث الخوف، بل الرعب، الذي تطبعه الدكتاتورية، في نفوس وسلوك الناس، وما ينجم عنه من ازدواج الشخصية والتحولات في تصرفات الإنسان وفي علاقاته العامة.

• التفكير بخلاص الذات والتخلي عن الآخر أو العجز عن التضامن معه، ولكن الدكتاتورية لا تتوقف، فهي تزحف لتسحق الآخر والآخر .. وتحويل الكثير منهم إلى أشباه الناس.

• ولكن أفضل ما صوراه لنا هي تلك اللوحة الخاصة بالمستبد بأمره، ذلك الدكتاتور القادر على أن يقول "كن فيكون"!، وقد كرس ورسخ هذا المعنى في أذهان الناس، كل الناس، عبر أجهزة إعلامه ودعايته وأجهزته القمعية وعبر زياراته والأساليب التربوية الفاشية التي كانت تمارس وعبر سنوات طويلة، إذ أقنعهم عبر مآسيهم ومحنهم اليومية بأنه "القادر على كل شيء قدير"، بأنه وكيل الله على ارضه! فهو الذي يمنح مراحمه متى ولمن شاء، ويمنعها عمن شاء. وهو الذي يقرر مصير الإنسان بين الموت والحياة، وبينهما خيط رفيع ارتبط دوماً بمزاج البطريق لا غير.

ليست القسوة في الاعتقال وحده، بل في عدم معرفة الإنسان ما ينتظره، فهو حين يعتقل لا يعرف التهمة الموجهة له، ولا يعرف أين سيذهبون به، ولا من سيحاكمه، ولا من يمكن أن يدافع عنه إن كانت هناك محاكمة، ولا إلى متى يبقى معتقلاً، وهل سيموت أم سيبقى على قيد الحياة. كما أن أهل الضحية لا يعرفون لِمَ اعتقل أصلاً، وأين سيجدونه، وكيف يفترض أن يتحركوا لإنقاذه. فالضحية والأهل والأصدقاء يعيشون في عالم مضبب تماماً وقلق دائماً والخوف يمارس فعله القاتل من المجهول القادم. إنها المحنة الدائمة التي يعيشها الضحية في قبضة المستبد الجلاد.

قدم لنا الكاتبان نوعين من البشر : فمنهم من نسيَ الصداقة والود السابقين وتحول إلى شخص غريب الأطوار بسبب الخوف الذي كرسه الجلاد في طباع الناس، والخشية من الجلاد المرتقب، أو بسبب صداقة كانت بالأساس مزيفة قبل ذاك أو بسبب الشماتة والرغبة في الحصول على مشاريع بدلاً عن الضحية التي كان يحظى بها بسبب معارفه وقدراته الهندسية. ومنهم من أبدى استعداداً كبيراً ومستمراً وبصور شتى لتقديم المساعدة والتضامن وعدم نسيان الصداقة، أو احتضان الأهل في فترة يكون فيها الضحية أو أهل الضحية في أمس الحاجة لمثل هذا الدعم المعنوي والاحتضان. إن أسلوب التحليل في تصوير تلك الشخصيات سهل ممتنع يعبر عن وعي ثقافي رفيع المستوى بالإنسان ومواطن ضعفه وصلابته.

قدما لنا صورة مباشرة وغير مباشرة عن علل المجتمع العراقي ومشكلاته الأساسية وتخلفه الحقيقي من خلال شخصيات سجينة أو سجانة أو شخصيات من خارج السجن، رغم الحضارة التي كان يمتلكها العراق، وكذلك الخزين الفكري والثقافي اللذين تختزنهما الذاكرة المثقفة والذاكرة الجمعية العراقية.

لقد ذكرني الكتاب وأنا أقرا صفحاته كيف رن جرس الدار عندي في صيف تموز من عام 1978 رجلان من جهاز الأمن العراقي وطلبا مني مرافقتهما، فمدير الأمن العام يريد محادثتي. كانا مؤدبان، ولكنهما منعاني بأدب أن لا أتصل بأحد هاتفياً. كانت زوجتي وطفلي،سامر وياسمين، في ألمانيا في زيارة لعائلتها. كنت حينذاك عضواً متفرغاً في المجلس الزراعي الأعلى وبدرجة خاصة بعد أن تم نقلي من جهاز التدريس في الجامعة المستنصرية. جلست في المقعد الخلفي لسيارة شيفروليت حديثة وجميلة وذات نوافذ زجاجية مانعة للرؤية من الخارج وقادا السيارة على الأمن العامة في البتاويين، حيث وضعت في زنزانة انفرادية لثلاثة أيام دون تحقيق أو استفسار أو معرفة ماذا يريدون، رغم استفساري عن السبب، إذ لا جواب. ثم بدأ التحقيق، كانوا مؤدبين حتى نهاية التحقيق، ثم جاءوا بالورقة والقلم لأجيب وأنا في زنزانتي عن أسئلة وجّهها لي جهاز الأمن ولكنها معطاة من صدام حسين ذاته، كما أخبرت لاحقاً. لم تكن زنزانة الانفرادي تختلف عن تلك التي وصفها الأستاذ رفعة الجادرجي في هذا الكتاب، فهي متشابهة عموماً. كنت وحدي في الزنزانة، وقبالتي كان وكيل وزارة الداخلية من عائلة الآلوسي. وبجواري كان معتقل يضم عدداً كبيراً من الشيوعيين والديمقراطيين الذين حزنوا حين التقت نظارتي بهم ورفعوا أيديهم بالتحية والسلام.

ثم بدأ التعذيب في غرفة واسعة نقلوني إليها ليتسنى لهم التعذيب بعيداً عن المعتقلين. غرفة واسعة وفيها حمام ومرحاض، ولكن الحمام مليء بالغائط والبول، ومنها أصبت بالفطريات. غرفة واسعة بنيت وكان وضع تحتها مرجل شغال، إذ كانت الحرارة تصل إلى أكثر من 70 مئوية. كانت قطرات الماء التي تسقط على أرض الغرفة تجف أو تتبخر مباشرة. بدأ الضرب من شخصين "اعتبرا معتقلين" أثارهما كتابتي ضد النظام في جريدة طريق الشعب في حين أنهما من أجهزة التعذيب و من جلادين حاذقين لمهنتهم القبيحة وعارفين مواطن الخطر في جسم الإنسان وراغبين في أن أصاب بالجنون . كان الضرب مبرحاً وهادفاً إلى إيذاء رقبتي إلى تعطيل أو إلحاق الضرر بالحبل الشوكي. قاطعت الطعام الذي كانوا يقدمونه لي. لم آكل منه سوى الخبز ولم اشرب الشاي، وكنت أشرب الماء من حنفية المرحاض. قدموا لي وجبة طعام شهية بدعوة من ضباط كانوا طلبة عندي. وضعوا أمامي كأس لبن (شنينة) نقلت الكأس من أمامي ووضعته بجهة الضابط المقابل لي وأخذت كاس لبنه. لم يشربه أبداً، ولم اشرب كأسه أيضاً. لم أكل من الرز واللحم الذي أمامي، رغم تحريك صينية الهبيط بحيث ما كان أمامي أصبح أمام الضابط المضيف. ولكن لم أذق منه شيئاً يذكر. استفسرا عن سبب ذلك، قلت له لا ثقة لي بكم. كان التعذيب لمرة واحدة ولكن كان في ساعات الليل. كنت اسمع صراخ المعذبين من السجناء. عجزوا

عن لوي إرادتي وصمودي، ولكنهم أذاقوني مر العذاب. أحلت على التقاعد وأنا في المعتقل وبدون تقاعد مع إنزالي درجتين وظيفيتين، وهي للإهانة فقط. حين أطلق سراحي كنت قد فقدت أكثر من 14 كيلو غراماً من وزني ومصاب بالفطريات. لقد كان اعتقالي بأمر صدام حسين، وكان قد أرسل للأمن ورقة يعطيهم الأوامر بما يفترض أن يمارسوه معي من أساليب التعذيب وأن لا يطلق سراحي إلا بأمر منه.

لا زلت أعاني بهذا القدر أو ذاك من بقايا ذلك التعذيب الشرس والمركز والموجه إلى الرأس والرقبة بشكل خاص. من هنا جاءت رغبتي في أن أبادر للكتابة عن هذا الكتاب القيم الذي قدم لنا وصفاً واقعياً عن فترة الاعتقال بالنسبة للضحية وعن حالة الأهل خارج السجن لفترة الاعتقال الطويلة. رغم المصائب التي صورها لنا الكتاب من زاويتين مختلفين ومن شخصين مستقلين فكرياً، يمنحان القارئة والقارئ ساعات جميلة يتمتع بها في قراءة نص رائع يشد الإنسان إليه شداً ويوصل لهما تجربة إنسانية غاية في الأهمية ويمنحهما فرصة التعرف القريب جداً على نظام شمولي غادر، غادرنا بلا رجعة، ولن يغادرا القارئة والقارئ الكتاب إلا بعد ينتهيا منه. الكتاب الذي يستحق أن يكون فلماً سينمائياً بجدارة.

2008/8/8

قراءة في كتاب

"ميادة ابنة العراق" للكاتبة البريطانية جين ساسون

"الوحشية المرعبة للنظام في زنازين النساء بالعراق"

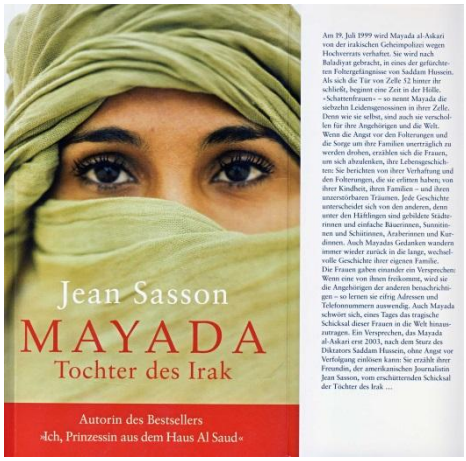

اسم الكتاب: ميادة ابنة العراق

Mayada Tocher des Irak

اسم الكاتب: جين ساسون Jean Sasson

دار النشر: بلانفاليت – ميونخ

سنة الإصدار: 2004

لغة الكتاب: مترجم عن الإنكليزية إلى الألمانية

استهلال: طبيعة النظام البعثي الصدّامي بالعراق

على امتداد 35 عاماً من حكم البعث الصدّامي بالعراق لم يميز النظام وجلاوزته من البعثيين وأعوانهم بين الرجال والنساء في الاعتقال والتحقيق والتعريض للتعذيب والاغتصاب والقتل تحت التعذيب، بل كان يشمل الصبية أيضاً. ولم يكن التعذيب للنساء موجهاً ضد النساء اللاتي يعملن في الحقل السياسي حسب، بل وضد كل النساء اللواتي كان النظام يعتقلهنّ لأي سبب كان من أجل انتزاع الاعترافات بشأن القضايا التي اعتقلن من أجلها، حتى لو كانت التهمة جنحة أو مخالفة مثل تزوير جواز أو شراء جواز سفر. لقد كان تعذيب المعتقلين والمعتقلات سنّة لا بد من ممارسته لدى حزب البعث وأجهزته الأمنية، دع عنك تعذيب الشعب بمصادرة حقوقه المشروعة والحرية الفردية.

أقام صدام حسين في وقت مبكر من وصول البعث للسلطة جمهورية "الرعب الصدامية"، بنيت على أسس معينة لا تختلف كثيراً عن بنية النظم الدكتاتورية في جميع بقاع العالم، وخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ولكنها تميزت عن باقي الدكتاتوريات في عدة مسائل مهمة أشير إليها لأهميتها في مواجهة نظم من هذا الطراز في المستقبل:

***استفاد نظام البعث إلى أقصى الحدود من خبرة وتجارب الدول الأخرى في سبل ممارسة الإرهاب والقمع والقسوة البالغة من أجل حماية النظام الدكتاتوري من الرافضين له والمعارضين لسياساته والمناضلين من أجل تغيير تلك السياسات أو الإطاحة بالنظام.**

***الدمج والتنسيق والتكامل بين الأساليب والأدوات والمعارف التي مارستها النظم الاستبدادية السابقة للبقاء في السلطة واستمرار القهر ضد الشعب، وبشكل خاص:**

1. ممارسة القمع الفعلي ضد المعارضين وإشاعة الإرهاب في المجتمع كالقتل الليلي ورمي الضحية في الشوارع وعلى مقربة من الأنهار أو تسليط عملاء الأمن لقتل السجين وتقطيع أوصاله أو ملاحقة المطلوب منهم إلى خارج العراق وقتله.

2. نشر الإشاعات والحقائق عن أفعال النظام وأجهزته القمعية أو حتى تضخيمها على أوسع نطاق ممكن لإيصالها إلى الناس بهدف نشر الرعب في صفوف المجتمع.

3. استخدام المال والهدايا والمواقع الحكومية لكسر عناد الأفراد والقوى السياسية ومعارضتهم وكسبهم إلى جانب النظام. إنها أسلوب "الجزرة والعصا" لمن عصى.

*** استخدام أكثر التقنيات حداثة في تنظيم دائرة المعارف المخابراتية حول قوى المعارضة والقوى المساندة لها.**

*** إضافة إلى استخدام كل ما استجد من أساليب التعذيب وممارسة القسوة في إسقاط الضحية أو تدمير كرامته وثقته بنفسه وقدرته على الصمود، أي أنه دمج بين أساليب القهر البربرية للاستبداد الشرقي وأساليب القرون الوسطى من جهة والأساليب الحديثة الأكثر تطوراً من الناحية التقنية والمُنتجة في بلدان الشرق والغرب من جهة أخرى.لقد كان البعثيون في احاديثهم اليومية حول المعارضين والسجناء يتحدثون عن رميه في السجن وتخييسه!**

* وقد حظي النظام، ولأكثر من عقدين من السنين، بدعم كامل من دول الشرق والغرب ومساعدة في التسلح وخوض الحروب الداخلية ضد الشعب العراقي والحروب الخارجية وفي مساعدة النظام للإفلات من العقاب بسبب ممارسته سياسات مناهضة لحقوق الإنسان والتعذيب والقتل الجماعي، رغم أن العالم كان يعرف بكل ما كان يجري بالعراق تماماً. ولم يكن غريباً أن تزود الدولة الصناعية المتقدمة والمنتجة لأجهزة التعذيب قوى الأمن الداخلي للنظام بماكنات جبارة لفرم لحوم وعظام الضحايا لتصفية ومحو اسم وجسم الضحايا من الوجود والذاكرة وإرسال مهندسين لتصليح تلك المكائن! (راجع في هذا الصدد:

ARD 3. März 2004،Buchs Krieg gegen den Irak،Duell mit Saddam 23.00، Christoph Maria ،Eine Dokumentation von: Jorg Armbruster.Uhr Ulli Neuhoff،Fröhder.)

* كما أنه حظي بدعم الدول العربية والدول الإقليمية لسنوات طويلة حتى قيامه بغزو الكويت. كما ساهمت الكثير من دول العالم الرأسمالي والاشتراكي بتجهيز النظام بكل ما يحتاج إليه من أجهزة أو تدريب كوادر سادية مرضية للعمل على هذه الأجهزة الحديثة في التنظيم وفي ممارسة التعذيب النفسي والجسدي ضد قوى المعارضة وتصفية الكثير من عناصرها جسدياً.

لقد تسنى لصدام حسين ما لم يتسن لأي حاكم بالعراق أن يبقى في الحكم الفعلي قرابة 35 عاماً باسم البعث، سواء كنائب للرئيس أم باعتباره رئيساً مباشراً للجمهورية العراقية، وباعتباره "منتخباً!" من الشعب مدى العمر، بالرغم من رفض الشعب العراقي له ولنظامه الدموي. ويمكن تلخيص أهم الأسس التي أقيم النظام الصدّامي على أساسها في النقاط المهمة التالية :

1. اعتبار كل الناس في المجتمع، سواء أكانوا من الرجال أم النساء، هم أعداء محتملون للنظام الجديد الذي أقيم بالبلاد عبر انقلاب عسكري، وبالتالي يفترض هذا التفكير تشديد جانب الحذر من أفراد المجتمع والمجتمع عموماً ودون استثناء، رغم ادعاء صدام حسين فيما بعد "العارقيون بعثيون وأن لم ينتموا!!!".

2. من أجل حماية النظام من جميع الأعداء المحتملين لا بد من تكوين آلة عسكرية قادرة على تدمير العدو المحتمل حال بروز شك بسيط به، حتى لو كان أقرب أقرباء رأس النظام، فالولاء بالأساس ليس للنظام بذاته بل لرأس النظام ومن خلاله للنظام الذي يقف هو على رأسه.

3. من أجل حماية النظام يفترض تغييب كل أصحاب الفكر والرأي الآخر والناشطين في الحياة السياسة من غير أتباع النظام أو العاملين تحت رايته، سواء بتصفية تلك التنظيمات بالتي هي أحسن ومن خلال تقديم الجزرة المناسبة أو بالسجن والتعذيب والتدمير الجسدي الكامل لوجود صاحب الفكر والرأي والموقف الآخر. وفي هذا الموقف لا يوجد أي تمييز بين المرأة والرجل فكلاهما سواسية ويتحملون نفس العواقب من جراء حملهم للرأي الآخر. ومن الجدير بالإشارة إلى أن الفكر الصدّامي، الذي عمق الجانب العنصري والاستبدادي الشمولي والقمعي في فكر البعث العفلقي وممارساته، وهو فكر استئصالي للآخر، سواء أكان الآخر فرداً أم جماعة أم حزباً أم جماعة قومية أخرى أم حتى شعباً آخر. وكان يعبر عن ذلك بقوله "جئنا لنبقى!".

4. تعتبر كل مخالفة لقواعد النظام أو القوانين التي أصدرها بمثابة عدوان على النظام وعلى رأس النظام، وبالتالي فالعقوبة تنزل بهم كما تنزل بالسياسيين المعادين للنظام أو المخالفين لرأي رأس النظام.

5. يفترض العمل على كسب الناس إلى حزب النظام ومنظمات النظام، سواء أكانوا مستقلين أساساً أم أعضاء في أحزاب أخرى، كما يفترض ممارسة جميع الأساليب لتحقيق هذا الهدف، ومنها العنف والقسوة للفرد، سواء أكان رجلاً أم امرأة، ولأفراد عائلته. إلا إن عضوية الحزب أو المنظمات المهنية التابعة له لا تعني الثقة بهذا الشخص أو ذاك، بل يفترض اعتماد الرقابة عليه وعلى أفعاله والتيقن المستمر منه. ولهذا صدر قانون يقضي بإعدام أي بعثي يترك حزبه وينتمي إلى حزب آخر.

6. وللوصول إلى مثل هذا الهدف لا يمكن الاعتماد على جهاز واحد، إذ أن الشك بولاء الأجهزة الأمنية ذاتها يفترض أن يبقى قائماً باستمرار لكي لا ينتفي الحذر منها، خاصة وأنها تمتلك وسائل العنف في يديها أيضاً، وبالتالي لا بد من تشكيل أكثر من جهاز أمني متعدد الأغراض كل منها يراقب الآخر وهلمجرا وتبقى خيوط هذه الأجهزة بيد رأس النظام ذاته وأقرب المقربين له ومنه. ومن هنا نعرف لماذا كان في حوزة صدام حسين خمسة أجهزة أمنية يراقب بعضها البعض الآخر وخيوطها كلها بيد صدام حسين مباشرة. وكان أخوه برزان أو بقية أخوته أو ولداه قصي وعدي يمارسون هذه المهمة أيضاً وتحت إشراف "القائد الضرورة!"

7. إن وجود هذا العدد الكبير من الأجهزة الأمنية لم يكن كافياً، كما يبدو لأجهزتها الأمينة، لحماية رأس النظام من معارضي النظام، فلا بد والحالة هذه أن يتحول جزء كبير من بنات وأبناء المجتمع

العراقي إلى مخبرين وعيون للنظام الأمني الذي كونه، سواء أكان من خلال دفع رواتب ومكافئات ومراكز حكومية لهم أم فرض التطوع عليهم لحماية أنفسهم من غضب النظام وأجهزته. على أن يكون عمل هؤلاء يشمل المجالات والمستويات كافة وتنشيط أكبر عدد ممكن منهم لهذا الغرض، إذ بذلك يتم ربط هذه المرأة أو ذاك الرجل بالنظام وحركة عجلته واتجاهات تطوره. ويمكن لهؤلاء أن يرتبطوا بآخرين وبالتالي يمكن تحويل الملايين من البشر ممن لا يثق النظام بهم بأساليب وطرق مختلفة بالنظام وأجهزته الأمنية وغير الأمنية وبمنظماته المهنية. والهدف من وراء ذلك شدَّ المواطنة والمواطن بعدة خيوط لا يمكن الإفلات منها ويبتعد عن كل نشاط يمكن أن يلحق الضرر بالنظام بأي صورة من الصور. لقد حضرت مؤتمراً لاتحاد الاقتصاديين العرب بالقاهرة في منتصف العقد الأخير من القرن العشرين. نظم مسؤول المؤتمر سفرة جميلة في نهر النيل. وحين بدأت الأحاديث بين عدد من الضيوف العراقيين ، ترجى أحد الضيوف، وكان موظفاً كبيراً في البنك المركزي العراقي، أن لا نتحدث بالسياسة لأنه مجبر على كتابة تقرير تفصيلي عن النقاشات وبأسماء الأشخاص. وإن لم أفعل سأعاقب لأن شخصاً آخر أو أكثر من الحاضرين في هذه السفرة ربما سيكتب مثل هذا التقرير, وعند ذاك سأحاسب وستكون العقوبة قاسية جداً. إن هذا يعبر عن انعدام الثقة والشك القاتل إزاء الآخر الذي نما وتفاقم لدى العراقيين حينذاك. وتحدث لي الأخ الفقيد الدكتور عبد المنعم السيد علي، وهو قومي عربي، حين كنت معه في مؤتمر للاقتصاديين العرب ببيروت بأنه لا يستطيع الحديث عن صدام حسين في البيت لأنه يخشى أن ينقل أبناؤه حديثه للمسؤولين، وهكذا كان وضع الدكتور محمد جواد العبوسي، وهو قومي عربي، في سنواته الأخيرة، وكان وزيراً للمالية في فترة حكم عبد السلام عارف. أما ثامر رزوقي، وزير مالية سابق في زمن البعث وعضو جمعية الاقتصاديين العراقيين، فقد قال لي حين زارني في غرفتي بالفندق ما يلي: "لقد أرسلت رجل الأمن المرافق لي ليزور الأسكندرية لكي أتفرغ وأزورك". ثم تحدث لي عن الوضع المزري بالعراق وخشيته من الظهور إلى العلن بعد أن أُبعد عن وزارة المالية لكي لا يراه ويتذكره صدام حسين. وحين غادر العراق للمشاركة بمؤتمر الاقتصاديين العرب بالقاهرة أُجبر على القسم أمام زوجته وبيدها القرآن أن لا يأتي على ذكر "أبو عبدو" فأي من جلساته بالقاهرة. والمقصود هنا صدام حسين. وحين دعانا الدكتور خير الدين حسيب إلى جولة نهرية في قارب عبر نهر النيل، طلب منا أن ننتبه بأن "يد الثورة طويلة". وأثناء الحديث قال أحد كبار موظفي البنك المركزي العراقي بأن عليه أن يكتب تقريراً عن هذا اللقاء إلى مديرية الأمن العامة، وإن لم يكتب وسيكتب غيره

من الحاضرين القادمين من العراق مثلاً، عندها سيحاسب على ذلك حساباً عسيرا. وكان يرجو بذلك وبشكل غير مباشر أن لا نتحدث بالسياسة أو بموضوعات تمس رأس النظام أو النظام عموماً!

8. ولا يكفي ربط الفرد بمثل هذه الخيوط الأمنية لحماية النظام من نشاط المناوئين، بل لا بد له من السيطرة الكاملة على النشاط الاقتصادي بالبلاد لكي يشعر كل إنسان في المجتمع بأنه محتاج للنظام في الحصول على رزقه وعلى حجم الرزق الذي يريد الحصول عليه. وتتم السيطرة بشكل خاص على أجهزة الإعلام كلها لضمان تربية المواطنة والمواطن بالأفكار والسلوكية والمعاملة التي يريدها رأس النظام لأفراد المجتمع، إذ بدونها يمكن نشوء بؤر مضادة له.

9. ومن أكثر الأمور أهمية بالنسبة للنظام كانت امتلاكه "الحرية المطلقة!" في منح الحياة لمن يشاء ويسلبها متى يشاء وممن يشاء في كل الأمور التي تمس المواطن والمواطنة وحقوقهما المشروعة دولياً، ولكن من حيث المبدأ لا توجد حياة حرة ولا ديمقراطية بصورة مطلقة، إذ يفترض على المواطن إبداء آيات الخضوع والطاعة التامتين لرأس النظام وتعليماته في الحياة والعيش والعمل، في أوقات الحرب والسلام. وتعليماته تعتبر قوانين وقواعد عمل ملزمة للناس، سواء أكانوا من الرجال أم من النساء.

10.لا تكفي تقديم فروض الطاعة التامة والخضوع الكامل لرأس النظام وإرادته حسب، بل يفترض العمل المتواصل على تمجيد رأس النظام والتسبيح بحمده. ومن هنا تعززت وأصبحت فعلاً يومياً، وهما العقاب لمن لا يلتزم بذلك والثواب لمن يلتزم بذلك. فتبارت مجموعات من الشعراء وكتاب القصة والرواية وكتاب المقالات الصفراء من وعاظ السلاطين وناشري المطبوعات التي تمجد شخصية الدكتاتور وتبرز جوانب من حياته الشخصية و"أفعاله العظيمة!" التي ارتبطت بتقديم الهدايا والأوسمة من نقود وسيارات ودور سكن وحلى ذهبية ومعالجات طبية باعتبارها عطايا القائد للمخلصين له من أبناء شعبه المداحين! وكان النسيان أو العقاب يشمل الآخرين ممن كان لا يقف مع فرق المداحين. كما التزم بعض الرسامين والنحاتين بمباراة تقديم تماثيل وصور ولوحات زيتية تمثل "القائد الضرورة!". ولكن الغالبية العظمى من مثقفي العراق ومثقفاته رفضت الخضوع لإرادة الدكتاتور ورغباته الحيوانية، وبالتالي أُجبر الكثير منهم على مغادرة العراق بطرق وأساليب مختلفة حفاظاً على حياتهم وشرف الكلمة الحرة. كما إن الكثير ممن بقي في الداخل حافظ على سمعته وشرف الكلمة أيضا ولكن عبر صعوبات مريرة ومخاطر جمة.

11. وخلال فترة غير قصيرة مارس النظام سياسة فرق تسد ونهج التحالف لضرب وتدمير طرف ثالث. وهكذا استطاع النجاح في ضرب العديد من الأطراف عبر ممارسة هذه السياسة. ولكن لم يكن العيب فيه وحده، بل العيب في الأطراف التي قبلت الوقوع في فخ التحالفات المؤقتة للتخلص من الآخرين أو القناعة بأن في مقدورها التأثير على وجهة سير النظام،رغم دروس الماضي التي كانت قد أوضحت بعدم إمكانية الوصول إلى تغيير في طبيعة هذه المجموعة من القوى السياسية ذات الاتجاهات الشوفينية والعنصرية والاستبدادية والتي جربت في أعقاب ثورة تموز 1958 وفي في انقلابها الفاشي الدموي في 8 شباط من العام 1963 والمجازر التي ارتكبتها وقطار الموت الذي نظمته للشوعيين وخاصة ضباط الجيش الشيوعيين والديمقراطيين. ومع أن القوى التي وقعت في حبائل النظام لم تكن كثيرة، إلا أنها كانت كافية لتعزيز مواقع النظام في فترات أحس بها بالضعف والحاجة للآخر وأضعفت مصداقيتها في أعين الكثير من المؤيدين لها قبل ذاك.

12. ومن أجل منح فكره وسياسته قوة دافعة وكاسحة، هيمن النظام على أجهزة الإعلام السمعية والبصرية والمقروءة وعلى النشر والطباعة والمسرح والسينما بهدف التثقيف الكامل بوجهة البعث، وكذلك على مناهج التدريس في مختلف مراحل الدارسة ابتداءً من الروضة وانتهاءً بالدراسات العليا.

13. وعلى وفق سياسات خارجية معينة مارسها النظام تسنى له ولفترة طويلة التحكم بعلاقاته السياسية والاقتصادية والتجارية والثقافية مع أغلب دول العالم في فترة كان العالم ما يزال يعاني من عواقب الحرب الباردة بين الشرق والغرب أولاً، كما كانت سياسة دول العالم، وهي ما زالت حتى الآن، تقوم على المصالح أساسا وليس على المبادئ التي تضمن حقوق الإنسان والشعوب ثانياً، وبالتالي، كان النظام مستعداً لتلبية مصالح تلك الدول من خلال الثروة النفطية الهائلة من جهة، ومن خلال استيراد المزيد من السلع العسكرية والاستهلاكية بسبب امتلاكه لعوائد النفط الخام المصدر من جهة ثانية. وقد حققت الدول الكبرى وغيرها الكثير من الأرباح الممزوجة بدم العراقيات والعراقيين ودموع الثكإلى على حساب مصالح وحياة ومستقبل الشعب العراقي من خلال أسلوب وأهداف تعاملها غير الإنساني الشعب العراقي لصالح النظام السياسي الفاشي.

1. "الوحشية المرعبة للنظام في زنازين النساء بالعراق" في ضوء كتاب جين ساسون

أقام صدام حسين بالعراق نظاماً دكتاتورياً تميز بالقسوة والشراسة والسادية الدموية، نظاماً لا يميز بين الشيخ والصبي، وبين المرأة والرجل، وبين المريض والناصح، في التصدي لمن يشعر بأنه قد يشكل وبهذا القدر أو ذاك خطراً عليه وعلى موقعه ونظامه. وفي المقابل صمت العالم كصمت أبو الهول عن كل ما كان يعرفه عن ممارسات إجرامية لهذا النظام. ولهذا السبب أيضاً تمكن النظام من البقاء فترة طويلة في الحكم. ويمكن أن نشير إلى إن منظمة العفو الدولية قد رفعت راية النضال من أجل الحرية للسجناء السياسيين وضد التعذيب بالعراق عالياً واستحقت تأييد الشعب العراقي.

بقيَ المجتمع العراقي في حينها وإلى حين سقوطه يعاني من قسوة النظام وجلاوزته ومن سياساته وعقوباته ونشاط أجهزته الأمنية العديدة. والنسوة بالعراق عانين من طبيعة هذا النظام ومن سياساته باتجاهات عديدة، فقد فقدن أقرباءهن في الحروب الداخلية والخارجية وفي السجون والمعتقلات، وحرمن من حقوقهن المشروعة وجرى التجاوز حتى على حقوقهن التي ضمنها الدستور المؤقت للنظام. كما واجهن غضب النظام وقمعه الشرس بشكل مباشر عبر الملاحقة والاعتقال والتعذيب والسجن دون محاكمة والاغتصاب الجنسي والقتل تحت التعذيب أو الإعدام بمختلف الأساليب.

لقد فقدت المرأة العراقية حقوقها التي تمتعت بها في ظل العهود والحكومات السابقة، وخاصة تلك الحقوق البسيطة التي منحتها لها ثورة تموز 1958 بفعل نضالها من أجل تلك الحقوق والتي تجسدت في قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959، وأصبحت من جديد تعاني من ويلات اضطهاد الرجل في البيت والذكور في المجتمع عموماً ومن الدولة بقوانينها وعقوباتها وسلبها كامل شخصيتها تقريباً. ومنح صدام حسين الحق للرجل بضرب زوجته لتأديبها، وكان هذا أحد المخازي التي مارسها صدام حسين في إطار حملاته الإيمانية بالبلاد.

ولم تختلف أساليب التعذيب التي كانت تمارس ضد النساء عن تلك التي مورست ضد الرجال، فكن في هذا الأمر سواسية، إلا أن ما كان يصيبهن وهن حاملات أو مرضعات مثلاً يفوق ما كان يصيب الرجل، إذ غالباً ما كن يفقدن حملهن بسبب التعذيب أو يقتلن وفي بطونهن حملهن أو يلدن وهن في السجن ثم تتم مصادرة أطفالهن أو حتى يعذبوا لفرض الاعتراف عليهن أو يقتلون. وفي هذا الصدد يفترض أن نقرأ بعناية الكتاب الذي صدر في لندن في العام 2003.

نشرت الكاتبة البريطانية جين ساسون في العام 2003 كتاباً جديداً باللغة الإنجليزية ثم ترجم مباشرة إلى اللغة الألمانية ونشر في العام 2004 تحت نفس العنوان "ميادة ابنة العراق".يحكي هذا الكتاب قصة حياة سيدة عراقية من عائلة أرستقراطية عراقية معروفة هي ميادة نزار جعفر مصطفى العسكري، إنها حفيدة القائد العسكري العراقي ووزير الدفاع في العهد الملكي جعفر مصطفي العسكري (1886-1936م) من جانب الأب (نزار العسكري) والذي اغتيل في أعقاب انقلاب بكر صدقي في العام 1936، وحفيدة الشخصية القومية العربية المعروفة ساطع الحصري (1879-1988م) من جانب الأم (سلوى الحصري). عملت ميادة في الصحافة والنشر وحصلت على ثلاثة أوسمة لثلاث سنوات متتالية بين 1981 و1983 مخصصة للكتاب سلمت لها من قبل صدام حسين.

في هذا الكتاب سجلت الكاتبة البريطانية نقلاً عن أحاديثها مع ميادة العسكري لوحة مريعة ومحزنة جداً لواقع النظام العراقي في فترة حكم صدام حسين ووضعت القارئة والقارئ في صورة واقعية، ولكنها جزئية مهمة، تتحدث عن معاناة النسوة في بعض معتقلات النظام العراقي وخارجه، وعن جملة من أساليب التعذيب التي مورست ضدهن في معتقلات مديرية الأمن العامة (البلديات في البتاوين) ببغداد على أيدي جلاوزة النظام. كما قدمت لوحة صادقة عن السلوكيات الغريبة والأخلاقيات المنحطة لبعض أبرز مسؤولي النظام وأجهزته الأمنية.

أُعتقلت ميادة العسكري في مكتبها الواقع في شارع المتنبي، المختص بطبع وبيع الكتب، بذريعة أن مكتبها طبع بيانات سرية لقوى المعارضة العراقية موجهة ضد النظام. وهي لا تعرف بذلك ولم تمارسه بأي حال لأنها كانت تدرك عواقب هذا العمل، كما إنها لم تعمل بالسياسة ومن عائلة ذات علاقات واسعة بحكام العهد البعثي. منعت بخشونة من قبل ضابط الأمن الاتصال بابنتها وابنها في البيت لأخبارهم باعتقالها. وقد أصاب الرعب الشباب والشابات الذين كانوا يعملون في المكتب خشية من اعتقالهم وعلى حياتهم في آن. وبعد أن قلبوا المكتب وما فيه وبعثروا أثاثه ومحتوياته أخذوا معهم أجهزة الكومبيوتر وميادة إلى دائرة الأمن العامة بالبتاوين.

اصطحبها رجال الأمن الثلاثة إلى بناية عالية في مديرية الأمن العامة وصدمت برؤية عدد كبير من المعتقلين، وكأنهم خرجوا لتوهم من معركة دامية. بعضهم شُدَّت يداه من الخلف والدماء تسيل من رأسه وبعضهم الآخر الدماء تغطي وجوههم والبعض الآخر يزحف على ركبتيه ليصل إلى جدار الزنزانة الدماء تسيل من قدميه. بدأت بالبكاء للنظر الموحش الذي رأته وخشيتها من أن تعامل بذات الطريقة.

بعد تسجيل اسمها في سجل المعتقلين، نقلت إلى بناية أخرى حيث توجد زنازين منفردة للنساء وأخرى للرجال. وضُعت السيدة ميادة العسكري في الزنزانة رقم "52" الخاصة بالنساء. كان رقم الزنزانة يمثل الشؤم كله بالنسبة لميادة، إذ بقي في ذاكرتها أن جدها الفريق الركن جعفر العسكري اغتيل بعد أن بلغ 52 سنة. وأبوها تمرض وعمره 52 وأدخل المستشفى ووضع في ردهة 52 ومات فيها. وهي الآن حطت في الزنزانة رقم "52". حاولت الامتناع من الدخول حين قرأت الرقم، ولكن جاءتها دفعة قوية من رجال الأمن خلفها جعلها تتعثر في ولوجها الزنزانة لتتلقاها النساء قبل سقوطها على الأرض.

كانت الزنزانة قد صممت لتسع ثمانية أشخاص في الحد الأقصى، ولكن حُشر فيها ثمانية عشر امرأة من مختلف الأعمار وإن كان أغلبهن من الشابات. تفوح في هذه الزنزانة رائحة العفونة والبول والرطوبة وبرودة الأرضية الإسمنتية المسلحة ورائحة الأجسام غير المغسولة لأشهر أو سنوات خلت وهي كلها ممزوجة برائحة الطعام السيئ جداً الذي يطبخ في مطعم خاص للمعتقلين في سجون الأمن العامة والذي يصعب ازدراده وتعفه النفس. وقد همسن في أذن ميادة عليها أن لا تأكل مرقة الباذنجان لأنها مسممة. وفي الزنزانة 52 أُصبن جميعاً بالتسمم ولكن نجين من الموت في حين مات البعض في زنازين أخرى. ثماني عشرة امرأة حشرن في هذا الزنزانة هن: سمارة وعلياء ورشا وورولا وإيمان ود. صباح ومنى وسفانة وسارة وجميلة وحياة وآسيا وأمان ومي وأماني وأنوار ووفاء وميادة. لكل منهن قصة حزينة تذكرنا بدولة كانت لا تحترم نفسها لأنها لا تحترم كرامة مواطنيها ومواطناتها. ليس بينهن سوى ثلاث نساء اتهمن بهذا القدر أو ذاك بالسياسة،إحداهن بعثية وأخرى متهمة بقربها من الشيوعيين وثالثة اعتقلت لأن زوجها وابنها هربا إلى تركيا خشية الاعتقال بسبب اتهامهما بالعمل مع الأحزاب الإسلامية السياسية الشيعية. أما اعتقال ميادة فقد جاء على خلفية احتمال استخدام أحد العاملين لديها جهاز الاستنساخ في مكتبها في استنساخ بعض البيانات لقوى دينية شيعية. أما بقية النساء، فالاتهامات الموجهة لهن أما السفر بجواز سفر مزور أو فقدانهن جواز سفرهن واستخدامه من أخريات للسفر إلى خارج العراق أو حصول سرقة في الدائرة التي كانت تعمل فيه إحداهن بسبب تلاعب مدير حسابات البنك الذي كانت تعمل فيه أو اتهامهن بالتجسس لإسرائيل أو إيران...الخ!!!

الكتاب يروي قصص هؤلاء النسوة أثناء سرده لقصة ميادة العسكري بين اعتقالها وإطلاق سراحها وهروبها إلى الأردن قبل سقوط النظام الدكتاتوري. جميع النسوة المعتقلات في الزنزانة رقم "52" تعرضن للتعذيب الشرس يومياً تقريباً وبالتناوب لانتزاع اعترافات منهن بأنهن مشاركات في التهم

الموجهة إليهن دون أن تكون التهم الموجهة لأغلبهن، إن لم نقل لجميعهن، صحيحة أو مستندة إلى وثائق دامغة، إذ لم يكن هناك تحقيق سليم من الناحية القانونية، كما لم يكن التحقيق سوى عملية تعذيب وإهانة واستباحة مستمرة، وخلال عملية التعذيب كانت الأسئلة تطرح من قبل الجلادين أنفسهم وليس من حكام تحقيق وبصورة قانونية. بعض النسوة قضين ثلاث سنوات مثلاً وانتقلن من معتقل إلى آخر إلى أن حططن الرحال في الزنزانة رقم "52"، وعانين من التعذيب بمختلف صوره وأشكاله في كل تلك المعتقلات ودون أن يقدمن إلى المحاكمة أو تصدر أحكام بحقهن.فهو اعتقال خارج القانون بامتياز. كان أسوأ تلك المعتقلات بعد الأمن العامة معتقل الرمادي حيث تستخدم الأساليب الوحشية واغتصاب النساء والتهديد باغتصاب أطفال النساء المعتقلات.

إلا إن قمة العذاب النفسي والجسدي الذي واجه هؤلاء النسوة كان في معتقل الأمن العامة في البلديات، هذا المعتقل الذي وضعت فيه ميادة العسكري والذي تتحدث عنه السيدة جين ساسون. أغلب النساء المعتقلات كن من أتباع المذهب الشيعي، في حين تتبع ميادة وامرأة عربية أخرى المذهب السني، إضافة إلى معتقلة كردية سنية. هذا على وفق ما ورد في كتاب جين ساسون.

تصف الكاتبة البريطانية وصفاً دقيقاً وحزيناً لحالات التعذيب التي تعرضت لها سارة وسفانة وسمارة ومنى وجميلة وميادة أو إيمان ورولا وبقية المعتقلات في هذه الزنزانة المخصصة للنساء، إضافة إلى وجود زنزانات أخرى للنساء المعتقلات على ذمة التحقيق. كما كانت تنقل الكاتبة عن ميادة العسكري وصفها لحالة المعتقلات والمعتقلين الآخرين من الرجال والنساء في الزنازين المجاورة.

لنستعرض وبسرعة وصف الكاتبة للتعذيب الذي واجهته سمارة. امرأة ريفية جنوبية تميزت بالرشاقة والجمال. حين بلغت سن الزواج تزوجت من شخص تعرفه منذ الطفولة. أنجبت سمارة طفلين جميلين أيضاً. وعاشا حياة طبيعية هادئة حتى أعلنت الحرب العراقية الإيرانية وجند زوجي وشارك في الحرب وكان يأتي بين فترة وأخرى لزيارتنا. بعد فترة جاءت الشرطة وجلبت تابوتاً قيل لنا بأنه زوجي. وحرموا علينا فتح التابوت. ولكن أخ زوجي، وبعد ذهاب الشرطة، أصر على فتح التابوت وإذا بنا نفاجأ بعدم وجود جثة بل مليء بالتراب لا غير. لم نستطع الاستفسار لأن عقوبة فتح التابوت شديدة ونخشى على أنفسنا، فسكتنا. أقامت عائلة زوجي مجلس فاتحة على روحه الطاهرة، رغم إننا لا نعرف هل أُسر من قبل إيران، هل قتل ودفن من قبل الحكومة، هل ما يزال على قيد الحياة؟ كلها أسئلة كانت تدور في بالنا وليس لنا لها جواب. بعد مرور عدة سنوات تزوجت من رجل آخر وقررنا وضع الطفلين لدى

عائلتي والسفر إلى الأردن للتفتيش عن عمل بسبب البطالة الواسعة في فترة الحرب بالعراق. وقبل السفر قرر زوجي تبديل لقبي الذي كان باسم جدي إلى اسم والدي وأصر على ذلك. وافقت وجرت عملية تغيير اللقب في المحكمة بصورة رسمية وسجل في السجلات الرسمية. وغادرنا العراق إلى الأردن. حصلنا على عمل في الأردن حيث كنا نشتري السجائر بسعر مناسب ونبيعها في شارع الهاشمي ونربح بعض المال. بقينا سنتين في عمان، فجمعنا بعض المال وكنا سعداء، وقررنا العودة لزيارة الأهل. حال وصولنا الأرض العراقية وأخذ جوازاتنا للتدقيق والختم، جاءت شرطة الحدود وعزلونا عن الآخرين ثم اعتقلنا وأرسلنا إلى الرمادي بواسطة رجال الأمن. في معتقل الرمادي بدأ تعذيبنا بشراسة مفرطة مستفسرين عن أسباب تبديل لقبي واتهامنا بكوننا جواسيس إما لإسرائيل وإما لإيران. كنت وزوجي في زنزانة واحدة في الرمادي. استدعى زوجي للتحقيق ثم أعادوه إلى الزنزانة وهو محمول من رجال الأمن ورموه على أرض الزنزانة. كان بين الحياة والموت، غائب عن الوعي. أردت أن أعرف هل هو حي أو ميت فبصقت في وجهه بسبب عدم وجود ماء لدينا. تصوري إني بصقت في وجه زوجي الطيب لأعرف هل هو حي أو ميت ولكي أنعشه. بعد يوم واحد وحين صحا زوجي قرروا نقلنا إلى بغداد، إلى معتقل الأمن العامة (البلديات بالبتاوين). وكما حصل في الرمادي لم يكف التعذيب كما لم يكف طرح ذات الأسئلة وأجيب بالإجابة ذاتها. في هذا المعقل فصلت عن زوجي ولا أعرف ما جرى له. لا يريدون تصديقي ولا يمكنني أن أعترف بشيء لم أقدم عليه أو أمارسه. وحين أقول نعم سيكون قرار الموت قد صدر بحقي. استدعيت مرة للتحقيق. كان الضابط لطيفاً معي وسألني ماذا أريد أن يهديني هل أقراط للأذن أو سروال جميل. قلت لا يمكن استخدام السروال في السجن بل أقراط. وتصورت أنهم تيقنوا من براءتنا وقرروا تعويضنا بكلمات رقيقة. فنادى الضابط على الحراس ليجلبوا الأقراط. فضحكوا جميعاً. وإذا بهم يأتون بأجهزة كهربائية مسكوا يدي من الخلف ولصقوا الأسلاك الكهربائية بأذنيّ وبدأ الضابط يضغط على زر كهربائي بين يديه. فبدأت الآلام تسحقني. بذلت كل الجهد لتحمله ولكنه كان فوق طاقة البشر. واستمر الضابط على تشغيل وإطفاء الزر مرات كثيرة حتى شعروا بأني أقرب إلى الغيبوبة فتوقفوا. بعدها نادى الضابط على الحراس وطلب فك وثاقي والأسلاك الكهربائية وجلب السروال. وإذا بهم يجلبون شيئاً أشبه بالسروال فرضوا عليّ ارتداءه. ثم حملوني ووضعوني على منضدة في وسط غرفة التعذيب وشدوا وثاق ساقي وبدأ الضرب الوحشي على باطن قدمي بشكل متواصل. استمر طويلاً حتى شعرت بأن شيئاً يتمزق في باطن قدمي وكنت اصرخ من شدة الألم. بعدها فكوا وثائقي وأنا غائبة عن الوعي وحملوني إلى الزنزانة وكان جلد باطن القدمين قد تمزق

وبدأت الدماء تسيل فاعتنت بي بقية المعتقلات. رفعت قدميها الرقيقتين ورأت ميادة الندب الكبيرة على باطن القدمين والتي ما تزال لم تندمل الجراح تماماً ولكنها قادرة على السير بآلام غير قليلة.

في أحد الأيام نودي على السيدة سماره وأخذت إلى التحقيق. وهي المرأة الأكثر استدعاءً من جانب أجهزة الأمن وكانت كل مرة تعود إلى الزنزانة وهي في حالة إنهاك شديد. بعد عدة ساعات جلبها الحرس ودفع بها بقوة إلى الزنزانة. تأرجحت يمنة ويسرة ثم هوت على الأرض الإسمنتية. تجمع النسوة حولها اعتقدنا بأنها على وشك الموت. اقتربت منها المعتقلة الدكتور صباح وحاولت معرفة ما بها. لم تكن قادرة على الحديث كانت عيناها مغمضتين ولا تبشران بالخير. تسنى للنسوة حملها ووضعها على السرير الحديدي. جلبت لها الدكتورة صباح قطعة قماش بللتها بالمال ووضعتها على رأسها ووجها المليء بالكدمات. فتحت أزرار قميصها فوجدوا آثار استخدام التيار الكهربائي وأعقاب السجائر التي تسبب بندب كبيرة على صدرها وثدييها وكامل جسمها. بعد فترة استطاعت أن تفتح عينيها وأشارت إلى أن رجل الأمن الضخم قد داس بقدميه على بطنها وصدرها وشعرت بشيء تكسر داخلها، إضافة إلى ضربها في كل مكان من جسمها. لقد أحسّت ميادة وكأن شيئاً منها يقتل في هذه الزنزانة وقد نشأت بينها وبين سمارة صداقة إنسانية عميقة. كان التضامن والتعاون والمساعدة أو الاحتضان بين نساء الزنزانة 52 كبيراً جداً مما كان يساعد على تحمل العذابات اليومية التي كن يتعرضن لها وخاصة سمارة. لقد كانت سمارة شابة جميلة وحريصة على مساعدة الجميع وإلى الالتفاف حول المعذبين والقادمين الجدد لتشجعهم على تحمل ما يمكن أن يتعرضوا له من جلادي النظام.

أثناء سرد سمارة قصتها كانت ميادة تسمع صوت رجل يقرأ القرآن بصوت مرتفع من زنزانة للرجال ليست بعيدة عن زنزانتهم. وكان الحرس يطلب منه السكوت، ولكنه كان يواصل تجويد القرآن. ورد في كتاب جين ساسون النص التالي في نهاية الفصل الموسوم "جدو الحصري" إن المعتقل أحمد متهم بالوهابية، وكان يؤذن كل صباح أو يتلو القرآن بصوت مرتفع يصل عبر الجدار العازل بين زنزانته وزنزانة النساء فتذكر ما يلي:

"من خلال الجدار كان بإمكانهم سماع صوت الشاب الوهابي المتدين وهو يدعو إلى الصلاة بصوت مرتفع. وفجأة تحولت صلاته إلى صراخ. بلغت التوتر العصبي لدى ميادة إلى الحد الذي قفزت من مكانها وتشبثت بذراعي سمارة وصرخت مرعوبة: "إنهم يقتلونه! إنهم يقتلونه"!

ردّت عليها سمارة بصوت منخفض قائلة: كلا، ولكن ما يفعلونه به هو أبشع من الموت، وبشكل خاص لرجل مسلم متدين.لم تفهم ميادة ما كانت تعنيه سمارة، إلى أن سمعت، كيف كان الرجال يسحبون أحمد إلى الممر حتى وصولا به بشكل متعمد أمام مدخل زنزانة النساء ورأت بأم عينيها كيف بدأ جلاوزة الأمن باغتصابه واحداً بعد الآخر. كانت ميادة في حالة رعب شديد. الاغتصاب، هذا الفعل الوحشي، استمر قرابة ساعة واحدة، ثم سمعت ميادة، كيف كان أحد الحراس يضحك وهو يقول لأحمد: "ريح نفسك. أنت الآن أصبحت امرأة لثلاثة رجال ويجب أن تكون منذ الآن طوع إرادتنا."! (ص 119).

وفي الفصل الموسوم بـ"التعذيب" تصف الكاتبة نقلاً عن ميادة حالة الزنزانة والنسوة المعتقلات وأساليب التعذيب التي كن يتعرضن لها يومياً، سواء أكان ذلك في الصباح أم في الليل، رغم أن عمليات التعذيب كانت تتم في غرفة التعذيب الخاصة ليلاً. كان رجال الأمن يمارسون أفعالهم القبيحة في الغرفة المهيأة لأغراض التعذيب من قبل جلادين ضخاماً غلاظ النفوس وبليدي الإحساس وفاقدي الكرامة الإنسانية، قساة لا تعرف الرحمة طريقها إلى قلوبهم، يتلذذون ويقهقهون ويتندرون في ما بينهم وهم يمارسون الأساليب التي تؤدي إلى إصابة المرأة المعتقلة بالرعب والخوف والتشنجات العصبية بسبب آلام التعذيب أو خشية الموت تحت التعذيب. كان الضرب المبرح بالسياط على الظهور أو الضرب بالعصي والسياط على باطن الأقدام أو الضرب العشوائي في كل مكان من أنحاء الجسم، وخاصة على العمود الفقري والرقبة، أو التعليق والضرب وتقييد الأيدي أو استخدام التيار الكهربائي على المواقع الحساسة من جسم المرأة وإنزال الصعقات التي تعرض الضحية إلى شتى أشكال العذاب والاقتراب من الغيبوبة أو السقوط بها فعلاً. كان التعذيب عادة يومية لا مناص منها، ولكنها كانت تتباين في من يسحب للتحقيق أو لمجرد التعذيب والتلذذ به.

يجري التعذيب في أحيان غير قليلة والمرأة عارية تماماً بهدف إذلالها أو التمتع الجنسي السادي بعذاباتها وهدر كرامتها، وهي سادية مرضية خطيرة، أو بعض الأحيان اغتصابها من أكثر من رجل أمن دون أن تجرأ المرأة المغتصبة جنسياً على التحدث بذلك أو حتى دون أن تجرأ الأخريات من النسوة الاستفسار عن ذلك. ولكن كل الدلائل كانت تشير إلى احتمال كبير بحصول ذلك. وكان بعضهن يتحدثن إلى من توطدت العلاقة بينهن داخل الزنزانة.

تحت سياط التعذيب الهمجي المتواصل سقطت المعتقلة جميلة جثة هامدة. كانت عملية إطفاء أعقاب السجائر المشتعلة في جسم الضحية، على الثديين، والحلمة، وفي البطن والظهر، وعلى الساقين

والمؤخرة، حالة اعتيادية في عمليات التعذيب! وكان التعذيب يمارس بسبب اعتياد الجلادين على ممارسته دون الرغبة في الحصول على معلومات، إذ كان الجلادون يدركون أن ليست هناك معلومات يمكن الحصول عليها أو يمكنهن الإدلاء بها. ماتت جميلة دون أن يشعر هؤلاء الجلادون الأمنيون بوخز الضمير، حملوها كما يحمل كيس من الرمل لتلقى في مكان ما للتخلص من جثتها أو ربما رميت في ماكنة فرم لحوم وعظام الضحايا التي كان يستخدمها النظام ويرمي بالمثروم من لحوم وعظام البشر إلى نهر فيه اسماك!

ثم روت لنا الكاتبة ما حصل لعلياء ورشا من تعذيب همجي قاد رشا إلى الموت المحقق لولا نقلها إلى المستشفى ومعالجتها بسرعة وعودتها بعد الظهر على الزنزانة. لقد سرق جواز رشا ومن ثم تم بيعه واشتراه أخ عليا واستخدمته للسفر، فاعتقلت علياء ثم اعتقلت رشا بسبب فقدانها لجوازها. بدأ التعذيب ضدهما لمعرفة من الذي اشترى من رشا الجواز وباعه لأخ علياء. وهكذا هم يقضيان الأيام والأسابيع والأشهر المتتالية في المعتقلات وتحت التعذيب اليومي دون أن تعرف رشا إن قد بيع لطرف آخر بعد أن سرق منها، كما لم تعرف رشا إن الجواز مسروق ومزور.

تصف ميادة عبر الكاتبة البريطانية ما حصل لهن جميعاً حين جاء الجلادون يوماً واقتادوهن واحدة تلو الأخرى وبحركة سريعة جنونية صوب غرفة التعذيب. بدأ الصراخ يملأ الممر والقاعة المظلمة التي دفعوا إليها ووضعوا فيها. أدركوا أنهم يساقون لجولة جديدة جماعية من التعذيب من قبل مجموعة كبيرة من رجال الأمن. بدأ الجلاوزة عملهم بإطلاق العيارات النارية فوق رؤوس المعتقلات بما يوحي وكأنهم سيقتلون جميعاً. كانت اللوحة مأساوية. سيطر الرعب على النسوة دون استثناء. كان الصراخ يعبر عن رعب شديد أصبن النسوة به, وامتزج بقهقهات معربدة وزعيق شرس للشرطة السرية المكلفة بحراستهن وتعذيبهن والتحقيق معهن يعلو كل الأصوات ويطلب منهن الصمت. كن قد تدافعن واصطدمت الواحدة بالأخرى في تلك الغرفة المعتمة ولا يعرفن أين وماذا يراد بهن، ثم تم دفعهن إلى مؤخرة القاعة حيث فرض عليهن الوقوف جنباً إلى جنب ووجوههن صوب الجدار. ثم بدأت الشرطة بتهيئة البنادق الرشاشة وكأنهم يريدون رمي النساء. أيقن النسوة بأنهن يعشن آخر لحظات حياتهن، فبدأ بعضهن بالصلاة والدعاء، وبعضهن الأخر، غاص في دواخله يفكر بما ترك خلفه من أطفال وأمهات كبيرات السن .. الخ.

بعد عدة ساعات من هذا النمط من التعذيب النفسي والجسدي الفاشي أُعدن إلى زنزانتهن وهن اقرب إلى الغيبوبة والموت منهن إلى الحياة. هكذا كانت رغبة الجلادين في أن يتمتعوا بتعذيب النسوة على هذه الطريقة، إذ لم يكن لهم ما يقومون به غير ذلك النوع من العمل غير الإنساني والبشع. لم يكن صدام حسين وحده يعاني من النيكروفيليا حسب، بل نقل علته المرضية الجسيمة إلى رجال أمنه وكوادر حزبه.

لم يمارس النظام البعثي التعذيب ضد النسوة تماماً كما كان يمارسه ضد الذكور حسب، بل كان قد بدأ بقطع رؤوسهن بذريعة العهر والرذيلة، في حين كان النظام نفسه يغوص في العهر السياسي والرذيلة الفعلية واغتصاب النساء والرجال على حد سواء. لقد كان النظام البعثي الصدّامي هو الرذيلة بعينها. لقد كان نظاماً عاهرا من قمة رأسه إلى أخمص قديمه!

تحدثت ميادة للسجينات عن حادث حصل لها في أوائل الثمانيات من القرن الماضي. كان يمر عليهم بين فترة وأخرى مدير الأمن العام الدكتور فاضل البراك ليطلب من والدتها بعض الكتب المتوفرة في مكتبة والدها ساطع الحصري. وفي أحد الأيام وحين أعاد الكتب إلى دارهم وغادر الدار جاءت جارتهم السيدة أم سامي فطرقت الباب. خرجت إليها ميادة فرجتها التفضل بالدخول. سألتها أكان الرجل الذي جاءكم الآن هو الدكتور فاضل البراك مدير الأمن العام. أجابت ميادة نعم هو ذاته. فرمت أم سامي نفسها علي عنقها وتوسلت إليها أن تتوسط لديه لمعرفة مصير ولديها التوأمين اللذين اختطفا من الشارع حين ذهاب لشراء كرة قدم ولم يعودا للدار. بذلت المستحيل للعثور عليهما في المستشفيات وفي مراكز الشرطة ولكن لم يدلها أحد على مكانهما. ولكن قيل لها بأن رجال من المخابرات أخذوهما بسبب كونهما كانا ينظران بخزر في وجوه رجال المخابرات. وعدتها ميادة العسكري بأنها ستتصل بمدير الأمن العام صباح اليوم التالي هاتفياً وتسأله عن مكان ولديها. قبلتها وعادت أم سامي بسرعة إلى دارها المجاور.

في اليوم التالي اتصلت ميادة بمدير الأمن العام هاتفياً وأخبرته بمشكلة أم سامي ورجته مساعدتها. عنفها فاضل البراك مشيراً عليها بأن ليس من حقها التدخل في مثل هذه الأمور. ولكنها أصرت عليه أن يساعدها. وافق أخيراً وأخبرها بأن على الأم أن تأتي إلى مديرية الأمن العامة صباح اليوم التالي وتخبرهم بالباب بأنها من طرفه. شكرته وفرحت بهذا الخبر وذهبت مباشرة إلى أم سامي وأخبرتها بأن عليها أن تذهب غداً لمعرف مكان أبنيها التوأمين.

عدة أيام لم تلتق ميادة بجارتها أم سامي ولم تر الصبيين وعمرهما 14 عاماً يلعبان كرة القدم في الشارع كعادتهما. فذهب إلى دار أم سامي تستفسر منها عن ولديها. وجدتها في حالة يرثى لها. شعر مشعث وملابسها غير منتظمة وكأنها نهضت لتوها من النوم، كانت عيناها واهنتين ووجها أصفر. استغربت ميادة من هذه الحالة وأرادت أن تتحدث معها في دارها، لكن المرأة امتنعت عن الحديث وأشارت لها بالصمت وسحبتها إلى أحد أركان حديقة الدار وهي في رعب شديد. همست لها بأنها ذهبت في الموعد ووجدت مئات الناس يقفون بباب المديرية العامة بانتظار السماح لهم بالدخول. عوملوا بلطف، إذ كانت هناك وصية من "السيد العام"، أي من السيد مدير الأمن العام، هكذا كانوا يسمونه، بالسماح لها ولزوجها بالدخول وتسهيل مهمتهما. أدخلا في قاعة كبيرة وأعطيا قائمة بأسماء كثيرة طلبا منهما التفتيش عمن جاءوا لمعرفة مكانهم. لم يكن بين الأسماء اسما ولديهما. أخبرا بأن عليهما أن يذهبا على قاعة أخرى مقابلة. ذهبا إلى القاعة المقصودة وصدما برائحة عفونة الموت الصادرة من القاعة وعدد الجثث المرمية في هذا القاعة. قالت أم سامي: رأيت جثة قد تيبس الدم على الرأس والصدر، وأخرى شق الصدر من الأعلى حتى البطن, وثالثة رأت أثر مكواة كهربائية مطبوعا على صدر الضحية، ورابعة كانت سيقان الضحية محطمة...الخ. ثم لمحت من بعيد جثتي ولديها وهما ممددان جنباً إلى جنب في نهاية القاعة وكأنهما يغطان في نوم عميق. أبلغا بأنه مسموح لهما بأمر المدير العام أخذ الجثتين ودفنهما دون ضجة ودون الحديث بأمرهما وعدم إقامة مجلس الفاتحة على روحيهما. دفنا ولدينا، وها أنا كما ترين لا أختلف عن أي أم مجنونة فقدت عقلها لفقدان ولديها الحبيبين. ارتمت ميادة على أم سامي تعزيها والدموع تنساب من عينيها إذ تذكرت كيف كان الصبيان يلعبان ببراءة أمام ساحة دارها وحين كانت تقود السيارة للخروج من المرآب كانا يتوقفان عن اللعب لحين مغادرتها المكان. بعد فترة قصيرة باعت أم سامي وزوجها دراهما وغادرا المنطقة بأمل مغادرة العراق.

إن هذا الكتاب مليء بالأحداث المحزنة يصعب الكتابة عن كل ما جاء فيه وكم أتمنى أن يترجم إلى اللغة العربية ليكون تحت تصرف القراء والقارئات ليتعرفوا على حقيقة ما كان يعاني منه الشعب العراقي كله وليس القوى السياسية المعارضة وحدها من استبداد النظام وقمعه الوحشي وقتله للناس الأبرياء.

والذي لا بد من ذكره أن المرأة بالعراق تواجه مصاعب جمة لا تختلف كثيراً عما كان يعاني منه الناس في زمن الدكتاتورية الغاشمة. وإذا كان الضيم قد وقع على الكثير من الجماعات الشيعية والكرد في

زمن صدام حسين، فإن الضيم واقع اليوم على الجماعات السنية على نحو خاص، وهي الحالة التي يعبر عنها بروح الانتقام التي يجسدها حكام العراق اليوم من اتباع المذهب الشيعي الذين لا يعبرون من حيث المبدأ عن إرادة الناس المنتمين إلى المذهب الشيعي، بل يعبرون عن مصالح الحكام من أتباع المذهب الشيعي لا غير.

2. واقع المرأة في المجتمع العراقي

لم تكن معاناة المرأة في ظل النظام الاستبدادي القمعي إلا مغالاة وإمعاناً في اغتصاب حقوق المرأة وجعلها جزءاً هامشياً تابعاً وخاضعاً لسيادة الرجل. إذ أن الأصل في كل ذلك هو موقف الرجل عموماً من المرأة في المجتمع العراقي وكأنها شيء محتقر. فالمعايير التي يعتمدها علم الاجتماع في التعرف على الموقع الذي تحتله المرأة في أي من المجتمعات البشرية كثيرة ومتعددة الأوجه، ومن خلالها يمكن التعرف على واقع ومستوى تطور تلك المجتمعات. ويمكن في هذا الصدد إيراد ثلاثة معايير جوهرية تعتبر معايير مركزية لاختبار موقع المرأة ومكانتها في مجتمع ما، وهي:

- **طبيعة علاقات الإنتاج السائدة في هذا البلد أو ذاك ومستوى تطور القوى المنتجة المادية منها والبشرية فيه، بما في ذلك مستوى تطور التعليم والمهارة الفنية وتطور العلوم والحياة الثقافية والمعارف العامة، أو ما يطلق عليه اليوم بالتطور البشري أو الإنساني.**
- **مستوى الحياة الديمقراطية ومدى وجود وسيادة دستور ديمقراطي وتمتع شعوب هذا البلد أو ذاك بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق القوميات والعدالة الاجتماعية.**
- **دور المرأة ومكانتها في المجتمع إلى جانب الرجل ومكانتها في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومدى تمتعها بحريتها وحقوقها كاملة غير منقوصة من جهة، ومدى تمتع الطفل بالرعاية والحماية والتربية العلمية من جهة أخرى، إضافة إلى سبل التعاون والتفاعل بين المرأة والرجل في البيت والمجتمع.**

وإذا حاولنا دراسة واقع المجتمع العراقي من خلال هذه المعايير، أي من خلال الربط العضوي في ما بين البناء التحتي للمجتمع والبناء الفوقي المهيمن عملياً لوجدنا الحقائق التالية:

1.سيادة العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية وتقاليدها وعاداتها، بما في ذلك العلاقات العشائرية التي تعود إلى حد ما إلى العلاقات الأبوية التي تسبق العلاقات الإنتاجية الإقطاعية في الريف، ولكن تعكس تأثيراتها وممارساتها البارزة على المدينة بشكل كبير وبشكل خاص في المجمعات المهمشة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً من قبل الدولة والمجتمع والمنحدرة من أصل ريفي فلاحي ولم تدخل عالم الصناعة والعلاقات الإنتاجية الرأسمالية. وهي علاقات تحترم المرأة نسبياً في داخل العائلة، ولكنها تحتقرها خارج إطار العائلة والمجتمع وتعتبرها ناقصة العقل وعاجزة عن التفكير والتصرف العقلاني وهي دونية ينبغي الحذر منها، إذ حتى عندما يأتي ذكر المرأة في حديث بين الرجال يرفقها الرجل "حاشاك!"، وكأنها شيئاً محتقراً أو غير نظيف. وهو تعبير يحط من قدر الأنثى، وكأن الذكور يتحدثون عن شيء لا قيمة له بل أن ذكره يسيء للإنسان الذكر الذي هو "أعلى خلقاً وأكثر عقلاً وأوفر حصافة وقدراً من الأنثى في المجتمع". والعلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية ترتبط بالإنتاج الزراعي في الريف الذي يعتمد الزراعة اليدوية والأدوات البالية التي تؤثر على ضعف مستوى الإنتاجية والإنتاج ومستوى المعيشة للغالبية العظمى من الفلاحين مما يجعل حياة الفلاحين في فقر مدقع ودين دائم، في حين يهيمن الإقطاعي على القسم الأعظم من الريع المنتج من جهد الفلاحين لصالحه ولصالح أفراد عائلته وسراكيله. ويحرم هذا الواقع الفلاحين بشكل عام من القدرة على التعلم والتمتع بالثقافة وفهم أمور الحياة بشكل أعمق، علماً بأن المرأة في الريف تُستغل بشكل مريع وأكثر من الرجل في أحايين كثيرة، فهي التي تنجب الأطفال وتطبخ وتنظم وتنظف الدار وتربي الأطفال وتعمل في الحقل وهي التي يمكن أن تذهب لتسويق المنتجات الزراعية في السوق المحلية، ورغم كل ذلك فهي غير مستقلة اقتصادياً عن الرجل، بل خاضعة وتابعة لسطوة الرجل وهيمنته الكاملة اجتماعياً واقتصادياً، ولكنهما يخضعان معاً، أي المرأة والرجل، لنفوذ الإقطاعي وسطوته المالية وهيمنته الكاملة واستغلاله البشع. والمجتمع العراقي لم ينفض عن نفسه هذه العلاقات، رغم صدور قانون الإصلاح الزراعي بعد ثورة تموز 1958، فإن المرحلة التي تلت ذلك، وخاصة في فترة الثمانينات وما بعدها عاد المجتمع إلى تلك العلاقات الاستغلالية المتخلفة والمعرقلة للتطور الصناعي لتفرض نفسها في الواقع الحياتي المعاش في الريف والمدينة. وهكذا نجد وضع المرأة العراقية في المدينة لا يختلف كثيراً عن المرأة في الريف إلا من حيث كونها تحصل على بعض الخدمات الإضافية التي تحرم منها المرأة في الريف، وهي حبيسة البيت والمطبخ وتربية الأطفال وسجن العباءة الظالم والحرمان من أغلب الحقوق والواجبات الحقيقية في المجتمع.

وعندما تحرم النسبة العظمى من النساء من العمل والحصول على أجر مناسب، فهن لا يتمتعن بأي استقلال اقتصادي ولا بحريتهن، وبالتالي فهن خاضعات وتابعات للرجل.

2. والحياة السياسية بالعراق على امتداد العقود الثمانية المنصرمة لم تكن في الغالب الأعم سوى حياة خالية من ممارسة النصوص الدستورية، سواء أكانت نصوصاً دستورية دائمة أم مؤقتة، رغم أن تلك الدساتير كانت تتضمن بعض المبادئ الديمقراطية، ولكن الممارسة العملية كانت تشير إلى عكس ذلك وخاصة في العقود الأربعة الأخيرة. فالمجتمع خلال فترة حكم البعث الصدامي لم يعرف الحرية والديمقراطية واغتيلت بالكامل حقوق الإنسان وحريته وكرامته بصيغ وأساليب وأدوات شتى. وكانت حصة المرأة تمثل الجزء الأكبر من الحرمان والظلم والعذاب والتمييز المقيت في كل شيء. فإذا كانت حصة الرجل الزوج في الحروب ليحمل السلاح ويقابل الموت يومياً وسقط منهم مئات الآلاف، فإن المرأة فقدت حتى ذلك الجزء الضئيل من الحرية التي تمتعت بها في العهد الملكي، وخاصة الفئة الأرستقراطية أو الفئة المثقفة، أو في العهد الجمهوري الأول وفق قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959، رغم كل نواقصه الجدية. وتعرضت المرأة إلى الموت تماماً كما تعرض الرجل في إطار الاعتقالات والتعذيب والحملات العسكرية التي نظمها النظام الاستبدادي ضد الشعب الكردي والقوميات الأخرى في كردستان العراق والعراق عموماً، وضد عرب الأهوار والوسط والجنوب، أو ضد الأكراد الفيلية، أو في ولوج السجون والتعذيب والموت تحت التعذيب أو التهجير الإجباري. كما تحملت مع أطفالها الكثير من المعاناة بما في ذلك جرائم الحرب وسقوط القنابل والصواريخ على رؤوس المدنيين في تلك الحروب القذرة وموت الكثير من البشر بسببها. لم تتمتع المرأة بحريتها واستقلالها الاقتصادي ونشاطها الاجتماعي ولم تُظلم من قبل الدولة والحكومة وحدهما فحسب، بل من قبل المجتمع، والذكور منهم بشكل خاص. وهي إشكالية مرتبطة بالعامل الأول. وغياب الدستور المدني الديمقراطي هو الذي يعزز من الحالة الراهنة التي تواجهها المرأة العراقية، وهي اليوم ليست حبيسة الدار والمطبخ والعباءة فحسب، بل حبيسة تخلف الغالبية العظمى من النسوة والجهل الكبير والتفسير الخاطئ والمتحيز والسيئ للدين من قبل الذكور والموجه ضد النسوة وحريتهن. ورغم اعتراف دولة العراق بلائحة حقوق الإنسان منذ إقرارها في العاشر من كانون الأول/ديسمبر 1948، فإنها لم تجد التطبيق الفعلي، بل داس جميع الحكام بالعراق عليها بالأقدام، وعندما حاول عبد الكريم قاسم إجراء تغيير نسبي على وضع المرأة باتجاه التغيير والتحسين النسبي وفق ما جاء في قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959، هبت ضده كل قوى الظلام، وخاصة الرجال منهم، وشنت ضده حملة ظالمة في هذا المجال،

لأنه أراد سحب بعض الامتيازات الممنوحة للرجل ومنح المرأة بعض حقوقها، من بينها الحد من تعدد الزوجات والإرث والطلاق ...الخ. وشاركت هذه القوى الظلامية بدورها في التأليب ضد قاسم من هذا المنطلق وساهمت في إسقاطه، وهي ما تزال تحمل رايات الظلام لتجهز على المرأة قبل أن تطالب بحقوقها، وقبل أن تصل تلك القوى إلى السلطة.

3. لو ألقينا نظرة فاحصة على المجتمع العراقي الراهن لوجدنا ما يلي :

♣تراجع حقيقي للمرأة عن المشاركة في الحياة الوظيفية والخدمة العامة وفي النشاط الاقتصادي، وبالتالي تبعية فعلية للرجل في الحصول على تأمين لقمة العيش والمأوى.

♣ تراجع فعلي في دور المرأة في الحياة الاجتماعية والثقافية وفي التأثير الإيجابي على المجتمع وفي حياة الأندية الفكرية والرياضية والمحافل الثقافية.

♣تراجع شديد في عدد الطالبات في المدارس والمعاهد والجامعات بما يعكس موقف الرجل من المرأة. وكل المعطيات المتوفرة تشير إلى ذلك بصراحة كاملة.

♣ انتشار البطالة بشكل واسع في صفوف الإناث أضعاف حجم البطالة في صفوف الذكور .
♣التأثير الصارخ لرجال الدين الرجعيين، وليس لبعض علماء الدين الذين يقرأون القرآن قراءة سليمة عقلانية واعية لأمور الدين والدنيا والعصر الحديث والتغيرات الطارئة عل هذه الحياة، وكذلك المشعوذين والسحرة واللاعبين بعقول كثرة من الذكور البسطاء والمسيطرين على عقول نسبة كبيرة من النساء وعلى تصرفاتهن وممارساتهن اليومية .

♣ وقوع المرأة حبيسة العباءة المركبة والحجاب الخانق الذي لم يأمر به القرآن ولا السنة المحمدية ولا الخلفاء الراشدون ولا علماء الدين المدركون لأمور الدين والدنيا، بل بعض أولئك الذين قرأوا القرآن بصورة خاطئة وغير عقلانية وظالمة ووفق ما يريدونه مسبقاً للنساء المسلمات. إنها تجسد الرغبة الجامحة لدى الرجال في الهيمنة على المرأة والغيرة غير العقلانية عليها، وهي تنطلق من وعي مسطح ونزعة جنسية ذكورية مستهجنة إزاء المرأة. إن من ينظر إلى المرأة المثقفة والمتعلمة في عراق اليوم، تلك المرأة التي كانت قبل عشرين عاماً قد وضعت العباءة جانبا، يراها قد عادت إلى العشرينات من القرن العشرين، وهي أزمة فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية

يعيشها الشعب العراقي وتعيشها المرأة بالذات، كما يلعب الإرهاب الديني المشوه دوراً كبيراً في كل ذلك، وهو ما يفترض مواجهته والتصدي له بكل حزم .

♣ وإذا كانت المرأة قد وضعت في مجلس الحكم الانتقالي ثم في الحكومة المؤقتة واختيرت أو انتخبت ضمن المئة بخمسة وعشرين عضواً، فذلك جاء بتأثير المدنيين العلمانيين الديمقراطيين في قوى المعارضة العراقية السابقة وربما بتأثير مباشر وإيجابي من قبل بول بريمر، لا بتأثير المجتمع العراقي أو القوى التي لا تريد الخير للمرأة .

♣ ويمكن إيراد العشرات من الظواهر الأخرى التي تؤشر واقع تخلف المرأة بالعراق وحرمانها من الدور والمكانة التي تليق بها باعتبارها النصف الأكثر حيوية في المجتمع والمسؤول الفعلي عن إعادة إنتاج الإنسان مع الرجل. فالمرأة لها كل الحق في أن تكون نداً للرجل ومالكاً لكامل الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الرجل دون استثناء وفي جميع المجالات. فالمرأة ليست للإنجاب فحسب، بل هي للحياة كلها بمختلف جوانبها ومستوياتها، وهي نبع الحياة وعلى النبع أن يمتلك الحياة بكل معانيها مع الرجل سواء بسواء.

رابعاً: نحو تغيير موقف المجتمع من المرأة وموقف المرأة من نفسها بالعراق

إن المجتمعات الغربية، رغم كل النواقص التي ما تزال المرأة تعاني منها، فإنها تمتلك حقوقاً يصعب على غالبية النساء العراقيات أن يحلمن بها بسبب حالة القهر والحرمان والتخلف والظلم الذي يعشن تحت وطأتها. وهذه الحقوق ناجمة عن اختلاف في المعايير التي أوردناها قبل ذاك، إذ تسود في هذه البلدان العلاقات الإنتاجية الرأسمالية، وهي مجتمعات مدنية تسودها دساتير وحياة ديمقراطية تحترم كرامة الإنسان وحقوقه وحرياته، وللمرأة في هذه المجتمعات مكانة ودور كبيرين ينموان باستمرار، رغم تعرض المجتمع كله إلى استغلال العلاقات الإنتاجية الرأسمالية، واستغلال الإناث فيها أكبر من استغلال الذكور حتى الآن وجود بعض جوانب التمييز الصارخة بما في ذلك التمييز في الأجر إزاء نفس العمل وعدد ساعاته. ولكن المرأة تسير على خط نضالي متصاعد لانتزاع كامل حقوقها ومساواتها التامة بالرجل. وأول شيء تحتاجه المرأة هو التعليم بمختلف مراحله لتأمين القدرة على وعي ما يجري حولها والمشاركة في ذلك. فعلى سبيل المثال لا الحصر أشير إلى أن نفوس مدينة برلين، عاصمة جمهورية ألمانيا الاتحادية, بلغ في عام 2003 حوالي

3400000 نسمة. في هذه المدينة ثلاث جامعات والكثير من الكليات والمعاهد المتخصصة، بلغ عدد الدارسين فيها في السنة الدراسية 2004/2003 (140177) طالبة وطالباً. 52،6 % من الإناث في مقابل 47،4 % من الذكور. حتى أن بعض الجامعات نجد أن نسبة الإناث بلغت 3،58 %'، كما هو الحال في جامعة همبولدت. إن المرأة في الغرب تحتل مواقعها في السياسة وفي قيادات الأحزاب وفي الوزارات والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية وكذلك في المجالس النيابية على مختلف المستويات، كما أنها تلعب دوراً متميزاً في الإعلام المرئي والمسموع والمقروء، وفي الحياة الثقافية والتأليف والنشر وفي مجالات العمل الإبداعي بمختلف جوانبه. ومع ذلك هناك الكثير من العوائق والمصاعب التي تواجه المرأة ومنها التمييز في بعض مجالات العمل والتوظيف والأجر والاستغلال والبطالة وانتشار ظاهرة العهر النسوي بسبب الحالة المادية لعدد متزايد من النسوة، وخاصة القادمات من أوروبا الشرقية، وهي جزء من تركة المجتمع الإقطاعي الذكوري والطابع الاستغلالي للمجتمع الرأسمالي الراهن أيضاً .

إن ما ينبغي النضال من أجله بالعراق في المرحلة الراهنة يتلخص في:

• تضمين الدستور مساواة تامة بين المرأة والرجل في كل الميادين والمستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والفنية والعسكرية دون استثناء. إصدار قانون خاص يستند إلى لائحة حقوق المرأة الدولية، وإلغاء جميع القوانين المخالفة للائحة حقوق الإنسان ولائحة حقوق المرأة الدولية وتلك التي تستهين بدور المرأة ومكانتها في المجتمع أو تمارس التمييز ضدها .

• رفض أي شكل من أشكال التمييز إزاء المرأة وإدانته ومكافحته وتقديم من يمارسه إلى القضاء لمقاضاته.

• دعم جهود المرأة في مكافحة أمية كبار السن وخاصة في الريف، وكذلك النهوض بمستواها التعليمي والثقافي وقدرتها على مزاولة مختلف النشاطات الفكرية والثقافية والاجتماعية والفنية وتشكيل منظماتها غير الحكومية.

• دعم جهودها للحصول على فرص عمل وضمان استقلالها الاقتصادي وأجر مساو لأجر الرجل لعمل مماثل.

• حق المرأة في احتلال جميع المناصب في الدولة ابتداء من رئيس الجمهورية وانتهاء بالوزراء ورؤساء المؤسسات وكبار الموظفين والمستخدمين والقضاء العراقي ومجلس النواب والمجالس البلدية ... الخ.

• تأمين فرص مناسبة لضمان مساعدة المرأة في تحمل أعباء تربية الأطفال مع الرجل ومن خلال فتح دور الحضانة ورياض الأطفال ... الخ.

• إصدار قانون يحرم تعريض الأطفال والصبية إلى الضرب في البيت أو المدرسة أو في أي مكان آخر وحمايته ومنع تشغيله وإلزامه بدخول المدرسة حتى نهاية الصف التاسع /نهاية الدراسة المتوسطة، وتامين الظروف المناسبة لنشأته على أسس صحيحة.

• احتلال المرأة موقعها المناسب في مختلف المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتخصيص نسبة مناسبة لها تقترب تدريجاً ومع تطور دورها مع نسبتها في عدد السكان.

• رفض القيود التي يراد فرضها على المرأة من خلال تطبيق الشريعة، التي هي من عمل الذكور بالأساس ومتباينة من مشرع إلى آخر ومن بلد إسلامي إلى آخر، ووضع قانون للأحوال الشخصية يتماشى والعصر الذي نعيشه والحقوق التي حققتها المرأة على الصعيد الدولي.

• رفض مبدأ تعدد الزوجات وحماية المرأة من اضطهاد الرجل وتطبيق لائحة حقوق المرأة الصادرة عن الأمم المتحدة بالكامل.

• رفض إلزام المرأة المسلمة بارتداء الحجاب أو العباءة، وتركها تمارس ما تريده ومساعدتها على الخلاص من أي قيد يحد من حريتها وحركتها وتنقلاتها داخل وخارج الوطن ونشاطها ومشاركتها في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقوات المسلحة وقوات الشرطة وشرطة المرور والأمن الداخلي .

• تحريم التجاوز على المرأة أو ضربها وتحريم ما يطلق عليه القتل "غسلاً للعار" ومعاقبة صارمة لفاعليه ومروجيه والمدافعين عنه،فالمحاكم المدنية هي المسؤولة عن البت في مثل هذه الأمور .

•...الخ.

إن مثل هذه البنود تستوجب إقامة دولة فيدرالية مدنية ديمقراطية حديثة تأخذ بمبدأ الفصل بين السلطات واحترام استقلالية القضاء والفصل بين الدين والدولة مع الاحترام الكامل لكل الأديان والمذاهب والأفكار والاتجاهات السياسية السلمية ورفض العنف في الوصول إلى السلطة أو فرض الرأي.

إذا كان هذا الجانب هو الأساسي في النضال من اجل انتزاع حقوق المرأة وتأكيدها تشريعاً، فإن المجتمع العراقي، وخاصة المرأة، بحاجة إلى نضال خاص مع المرأة ذاتها لإقناعها بأهمية تمتعها بحقوقها المشروعة وعدم الرضوخ لهيمنة الرجل أو القبول بالتبعية له. وهي عملية نضالية ليست اقل أهمية من الشق الأول، إذ أن القرون والعقود المنصرمة جعلت المرأة تعتقد بأن لا حقوق لها وأن الله قد كتب عليها العيش بهذه الصورة لا غيرها، وأن أفضل ما تقوم به هو إرضاء زوجها. إن النضال لتغيير هذه النظرة، لتغيير ما في النفس، أصعب بكثير من القيام بثورة ضد القيم القديمة البالية والراسخة في أذهان الناس. إن مهمة الرجال هو الاقتناع بذلك أولاً ثم البدء بممارسته في البيت والمحيط الذي يعيش ويعمل فيه وفي عموم المجتمع، إنها عملية معقدة ولكن لا مناص منها .

كما أن من واجب المرأة الواعية لحقوقها وواجباتها في البيت والمجتمع والدولة أن تمارس النضال لإقناع النسوة اللواتي يعملن معها والمحيط الذي تعمل وتعيش فيه والمجتمع، إذ بدون ذلك لن نحقق النتائج المرجوة. علينا أن نعمل لإقناع النساء، كل النساء، بحقوقهن المشروعة والعادلة وبواجباتهن .

ويمكن لمنظمات المجتمع المدني النسوية ومنظمات حقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية الأخرى أن تلعب دوراً كبيراً في هذا الصدد. والخطوة الأساسية على هذا الطريق تبدأ بالتخلص من الجهل والأمية التعليمية والسياسية، ومن ثم الثقافية والحضارية. إن المجتمع العراقي الجديد مؤهل لأن يبني حضارة جديدة ويستفيد من حضارة العصر الجديد لتطوير قدراته وكفاءاته وتعزيز دوره للمساهمة في بناء الحضارة البشرية الحديثة، تماماً أو حتى أفضل من الدور الذي قام به المجتمع العراقي القديم في بناء أول حضارة إنسانية في هذه العالم الواسع الأرجاء. إن الشعب العراقي يقبل هذا التحدي الذي يفرضه العصر، والمرأة العراقية، سواء أكانت عربية أم كردية أم تركمانية أم آشورية وكلدانية، وسواء أكانت مسلمة أم مسيحية أم إيزيدية أم صابئية مندائية أم يهودية أم من أي دين أو مذهب آخر تؤمن به

وتتبعه، ستكون في طليعة هذا الركب الإنساني الحديث. إنها ليست أمنيات فحسب، بل هي طاقات وإمكانيات كامنة يفترض تفجيرها بعناية كبيرة ورعاية تامة ووعي بالمسؤولية التاريخية الملقاة على عاتق الجيل الجديد من الشابات والشباب العراقي، ولكنها تبقى مهمة الجميع.

قراءة حزينة في كتاب "شاهد عيان: ذكريات الحياة في عراق صدام حسين"

للدكتورة جمانة كبة

اسم الكاتبة: جُمان كبة

عنوان الكتاب: شاهد عيان (ذكريات الحياة في عراق صدام حسين)

دار النشر: الوراق للنشر – لندن والفرات للتوزيع – بيروت

سنة الإصدار: 2009

اللغة الأصلية للكتاب: الإنجليزية، وصدر في الولايات المتحدة في العام 2003

الترجمة العربية: معينة نايف الغنام

عدد الصفحات: 279 صفحة

تصدر سنوياً الكثير من الكتب السياسية التي تفضح بصورة علمية موثقة طبيعة الدكتاتوريات وممارسات القسوة التي ينتهجها الدكتاتوريون وطغمهم الجائرة والفاسدة في التعامل مع الإنسان الفرد ومجتمعاتهم. كما تُنتج الكثير من الأفلام في هذا الشأن أيضاً. وهي دون أدنى ريب تلعب دوراً مهماً في رفع وعي الإنسان بضرورة مواجهة الاستبداد والقسوة ومحاولة تحصين الإنسان بمبادئ تقيه من الوقع في شباكها.

ورغم صدق تلك الكتب وصواب ما فيها من معلومات قيمة، إلا أنها غالباً ما تخاطب العقل وحده، وهي بذلك تعجز عن الولوج إلى قلب وعاطفة الإنسان لأنها جافة، وهي بخلاف تلك الكتب التي تكتب من شهود عيان

يشكلون جزءاً من تلك العائلات التي عاشت تحت وطأت تلك الأنظمة وعانت مرارتها، إذ أنها تلج العقل والقلب في آن واحد وتحرك جميع مشاعر الإنسان دفعة واحدة وتضعه أمام واقع وحقيقة الدكتاتورية وتعري أساليبها وأدواتها بكل بساطة وبيقين لا يتزعزع وثقة بالنفس.

مثل هذه الكتب تضع القارئات والقراء وجهاً لوجه أمام عمق مأساة الإنسان ومصيره المعلق في الهواء وكذلك تحث القلق والأرق اللذين يفتكان بأعصاب الإنسان وينهشان حالته النفسية. ومثل هذه الكتب لا تقتصر على شرح حالة شخص واحد أو عائلة واحدة حسب، بل هي تقدم نموذجاً حياً لما يجري في المجتمع كله، وتفضح بشكل إنساني معبر عن أوضاع المجتمع الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تعيش تحت وطأتها تلك العائلات أو أولئك الأفراد والعواقب الوخيمة التي تترتب على مصائر هؤلاء الناس.

صدرت الكثير من الكتب وصورت الكثير من الأفلام عن هؤلاء المستبدين القتلة وعن جلاوزتهم ومخابراتهم، وكانت قيمة ومفيدة وساعدت منظمات حقوق الإنسان على ملاحقة هؤلاء الأوباش الذين يولغون بدماء الوطنيين الشرفاء من الناس. ولكن فلماً بسيطاً واحداً سجل حياة دكتاتور كوريا الشمالية السابق "كيم إل صونگ" ووالد الدكتاتور الجديد "كيم إل يونگ وهو يحتضن أطفالاً صغاراً ويقبلهم، استطاع ببساطة كبيرة تجسيد طبيعة هذا الدكتاتور الذي كان يمارس الأبوة والهيمنة الشمولية لا على أطفال كوريا الشمالية، بل على المجتمع الكوري الشمالي كله. وحين نستعيد في الذاكرة تلك الصور التي نشرتها وعرضتها أجهزة الإعلام العالمية عن صدام حسين وهو يحتضن أطفالاً أجانب في إحدى مناطق العراق حين احتجزهم كرهائن ودروع بشرية ضد احتمال ضربات الطيران الأمريكي لبعض المواقع العسكرية في العراق، إذ أنها عجزت عن تقديم صدام حسين كإنسان يحب الأطفال أو يحنو عليهم، بل جسدت فيه روح الكراهية للإنسان والحقد على البشرية ووضعت أمام أنظار العالم بشاعة هذا الرجل وسخريته بالرأي العام العالمي.

في الكتاب الذي قرأته للسيدة جُمان كبة يعتبر من بين تلك الكتب ذات الصدقية العالية والشفافية في عرض الأحداث والأحوال وفيها الكثير من القوة الفاعلة والدافعة نحو القناعة بمضامين الكتاب وفي قدرة كلماته على الولوج السريع إلى قلب الإنسان وإلى عقله، حيث تستقر فيهما، إذ تضع الإنسان أمام حقائق عاشت الكاتبة يومياً وكل ساعة تحت وطأتها وهي ما تزال طفلة، ثم عاشت معاناتها وهي ما تزال صبية ولسنوات طويلة بلغت 35 عاماً.

طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها 8 سنوات ثم صبية لا يتجاوز عمرها 13 أو 14 سنة تعيش مأساة عائلتها وتستقر في الذاكرة لتتفاعل طوال ثلاثة عقود لتصدر بعدها ذلك الخزين المعرفي في كتاب يجسد تلك المرحلة بكل أبعادها ومآسيها وكوارثها. إنها لا تعيش مأساة ومصير عائلة عراقية طيبة من أوساط

المتعلمين والمثقفين فحسب، بل هي بهذا الكتاب تجسد للقارئة والقارئ مأساة شعب بكامله من أقصى كُردستان شمالاً إلى أقصى الجنوب.

عائلة متعلمة ومثقفة تنحدر من فئات اجتماعية متوسطة. الوالد مهندس والوالدة معلمة، وهما لا يتدخلان بالسياسة وغير منتميين إلى حزب سياسي. لهما ثلاث بنات وثلاثة أولاد. العائلة تعيش بهدوء واستقرار وراحة بال. الأب والأم يمارسان عملها الوظيفي بكل إخلاص ومسؤولية. تربيتهما المنزلية،وهما من مدينتين مختلفتين (بغداد والموصل)، جعلتهما يحترمان الإنسان وحقه في العمل والحياة والعيش بكرامة وحب الوطن وخدمة الشعب. والعائلة لا تطمح إلى أكثر من ذلك. هذه العائلة الطيبة لا تختلف عن عشرات بل مئات ألوف العائلات العراقية التي تريد العيش بهدوء واستقرار وسلام مع النفس ومع الآخرين وتمارس عملها لصالح الوطن. وهي لا تهتم في من يكون في السلطة ما دام يمنحها هذه الفرصة، فرصة الحياة الهانئة والكريمة والمستقرة. والسؤال الذي يدور في البال دوماً والذي أجابت عنه هذه الكاتبة المقدامة هو: هل يمكن لمثل هذه العائلة، عائلة المهندس مكي كبة، أن تعيش بهدوء وكرامة في ظل نظام استبدادي يتفاقم استبداده يوماً بعد آخر وسنة بعد أخرى وتشتد قسوته وتتعاظم نزعته العدوانية والعسكرية ويتلذذ بممارسة العنف ضد الإنسان والمجتمع والجيران؟

يتضمن هذا الكتاب القيم إجابة شافية عن هذا السؤال. فالكتاب يحتوي على مقدمة وستة فصول وخاتمة، تستعرض الكاتبة فيها حياة ومسيرة ومصير عائلة عراقية، عائلتها بالذات. فهي تعيش الأحداث يوماً بيوم وما لا تراه تسمعه من أمها وأبيها ومن أخوتها في البيت، ولكنها تعيش الأحداث والعذابات العائلية بكل تفاصيلها. إنها طفلة وصبية جعلتها الأحداث دفعة واحدة امرأة تعيش المآسي العراقية ولا تجد تفسيراً لها، ولكنها تهضمها تدريجاً وتجد لها أسباباً وتحليلاً يكمن في طبيعة ذلك النظام البعثي الدموي الذي سيطر على العراق وفي ذلك الدكتاتور الجلف الذي عرّض الوطن والمجتمع إلى تلك المآسي الإنسانية المتلاحقة التي لا يزال الشعب كله يعاني من عواقبها.

تتحدث جُمان مكية عن عائلتها التي تعيش حياة هادئة وطبيعية ثم تنقلب الحياة دفعة واحدة وبعد مجيء البعث إلى السلطة إلى جحيم لا يطاق، إذ هيمن الأوباش على الحكم وبدأوا بتغيير كل شيء، الهيمنة على الدولة والاقتصاد والمجتمع، الهيمنة على فكر الإنسان وعقله، الهيمنة على كل حركة في البيت والمدرسة والشارع. الهيمنة على الإعلام وإصدار الكتب والمجلات والصحف. أصبح الإنسان في داره يخشى أخاه وأباه وولده وعمه، الجار يخشى الجار، فجواسيس وعملاء ووكلاء النظام وعيونه منتشرون في كل مكان ويتدخلون في كل صغيرة وكبيرة ويكتبون التقارير تلو التقارير التي تتسبب في اعتقال أو سجن أو قتل

الناس.

فرض الحزب الحاكم والحكم عضوية الحزب باستخدام الجزرة، وحين لا تنفع فالعصا حاضرة دوماً. ومن لم ينفعه كل ذلك يكون السجن والتعذيب والقتل على أيدي جلاوزة وبقية أوباش النظام في الحزب وفي مؤسساته الأمنية، ومنها المخابرات العامة وفي منظماته غير الشعبية.

تتحدث الكاتبة عن أحداث "أبو الطبر" وبأسلوب هادئ ومنطقي سليم تتوصل إلى أن والدها، بحكم عمله، قد تعرف على من هم الذين يقفون خلف أبو الطبر، من هم الفاعلون باسم "أبو الطبر" فعلياً، أنهم المخابرات العامة، إنه القصر الجمهوري الذي كان يديره أحمد حسن البكر وصدام حسين حينذاك. ومن هنا، من هذه المعرفة بحقيقة "أبو الطبر" ومن الدفاع عن موظفيه في قسم الهاتف (البدالة) الذين تعرضوا إلى إيذاء قوى القصر الجمهوري، تبدأ مأساة الوالد بعد أن أصبح البيت ملغماً بأجهزة التسجيل عبر المرأة المعينة ياسمين، وهي مصرية، وبدعم من عم العائلة أو زوج أخت الأم. يعتقل الأب بذريعة بائسة مفادها إنه قد ضحك في غرفة نومه مع زوجته على نكتة تدور حول القيادتين القطرية والقومية يتحدث بها الناس وسجلها الإنصات السري في البيت. ويبدأ التعذيب وتبدأ مأساة كل العائلة ويحكم الوالد بالسجن لمدة عام دون أن تكون هناك تهمة فعلية ولا تحسب له مدة التوقيف التي تجاوزت عدة شهور. ثم تتوإلى الأحداث على أفراد العائلة وخاصة على الابن عامر، الذي يعتقل بتهمة زيارة كربلاء والمشاركة في تقاليد عزاءات أيام عاشوراء في كربلاء.

وتتحدث الكاتبة عن الأهوال النفسية التي عانتها الأم بسبب اعتقال الأب ومحاولات زيارته التي تنظم عبر علاقات مع قوى النظام لمرة واحدة لتجد التغيير المرعب الذي طرأ على زوجها، ذلك الرجل المهذب بقامته الطويلة وبنيانه المتين وهدوئه والعافية التي كان يتمتع بها، لتجد أمامها زوجها وقد هزل جسده وتمزقت ثيابه وتوسخت، طالت لحيته ولم يعد ذلك الرجل الذي عرفته، رغم تنامي ما في داخله من حب للزوجة والعائلة وكراهية لمن عذبوه أبشع تعذيب. وكان الأبشع من كل ذلك أن يرى كيف يعذبون الآخرين أمامه ويسمع صراخهم، إنها لمحنة إنسانية مريرة!

الكتاب يجسد عاطفة الإنسان إزاء عائلته وكل فرد فيها. كيف يجبر الناس على الابتعاد عن العائلة التي يلاحقها أزلام النظام، كيف تعيش الوحدة ويصعب عليها الاتصال بالآخرين خشية عليهم أو خشية الآخرين من عواقب زيارة العائلة المنكوبة بحقد النظام وملاحقته. كيف يجبر أحد أفراد العائلة على التجسس على عائلته، كيف يوظف المعينون، ومنهم العرب والأجانب، في بيوت الناس ليتجسسوا على تلك العائلات التي استخدمتهم بهدف الحصول على معلومات عن أحاديث وهواجس وأحلام العائلة لينزلوا جام غضبهم عليها.

تمنح الكاتبة القارئة والقارئ فرصة ثمينة للتعرف على أسلوب عمل دولة بوليسية لحمتها وسداها عدم الثقة بالمواطنات والمواطنين والتجسس اليومي عليهم ومضايقتهم واعتقال الكثير منهم لبث الرعب في نفوس الناس. ولم تكن قصة "أبو الطبر" سوى واحدة من تلك الأفعال القمعية الرذيلة التي اعتمدها النظام لإسكات الناس إذ كانت الخشية يومية والناس شخصت ابتداءً المنظم والمنفذ الفعلي لتلك الجرائم البشعة التي ارتكبها أبو الطبر، إذ كان الناس يؤكدون: لا يمكن أن يكون الفاعل خارج مجموع النظام.

تستعرض السيدة جُمان كبة أوضاع العراق لتخلص من خلالها إلى تشخيص أساليب وأدوات الدكتاتورية وأكاذيبه والعمل على قاعدة غوبلز "اكذبوا ثم اكذبوا ثم اكذبوا لعل بعض افترائكم تعلق بأذهان الناس"، وقسوته في التعامل اليومي وكرهه للإنسان الحر والمستقل في تفكيره وإرادته. دولة عصابات الجريمة الحكومية والحزبية المنظمة التي أحدى صيغها جرائم "أبو الطبر" وأساليب قتله للناس والعلاقة القائمة بين هذا الأسلوب والمخابرات العراقية.

تشير الكاتبة العراقية إلى ظاهرتين متعارضتين برزتا في تلك الفترة في إطار المجتمع العراقي، فرضهما واقع الحال على جميع العائلات العراقية تقريباً، وهما:

**** روح التضامن والتكافل مع من يتعرض لإرهاب السلطة، سواء من بقية أفراد العائلة والعائلات القريبة أم من الأصدقاء. وكان هذا التضامن بارزاً في بداية حكم البعث بشكل خاص.**

**** ولكن، وبعد أن اشتد الإرهاب والخطف والتغييب والسجن والقتل، برزت ظاهرة الخشية والابتعاد عن الزيارة والدعم من قبل العائلات القريبة جداً بسبب الخشية من الاضطهاد والملاحقة.**

لقد تفشت وتفاقمت في المجتمع الكثير من العلل الاجتماعية السلبية ما كان لها أن تظهر وتتفاقم لولا الاستبداد والقسوة والعنف التي مورست ضد الإنسان والمجتمع.

لقد استطاع الأب أن يسفر بناته وأولاده إلى خارج العراق لينقذهم من مصير مجهول، ثم غادر وزوجته في الغربة الأوروبية وفي عمر يصعب معه التكيف مع الحياة الجديدة.

لقد دللت الأم عن حب وشهامة وكرامة لا مثيل لها في موقفها النبيل من العائلة ومن الزوج الذي أصيب بجلطة دماغية أقعدته وشلت حركته وأصبح نزيل المستشفى الدائم، لقد خدمته بحنان ومحبة وماتت وهي تخدمه كأفضل زوجة وأطيب أم. ثم مات الزوج حسرة وغماً على وفاة زوجته بعد فترة وجيزة، وهو التعبير الصادق والأصيل عن الحب الإنساني الذي جمع بين الزوجين.

اعتقد أن إنجاز هذا الكتاب قد حرر الكاتبة ذاتها من ذكريات الماضي الأليمة وأعاد التوازن النفسي إليها، وهي ضرورة ماسة للإنسان الذي عاش في صغره تلك التجارب المريرة والقاسية، ولكن هذا الكتاب مهم

أيضاً للآخرين الذين عاشوا التجربة ذاتها وما يماثلها ولكنهم عاجزون عن الكتابة فيها أو التعبير والحديث عنها، كما أن الكتاب ثمين جداً لمن لم يعش هذه الفترة المليئة بالحروب والكوارث الإنسانية.

إن قراءة هذا الكتاب ضرورة لكل عراقي ولكل قراء العربية لأنه يوضح لماذا فقدت العائلات العراقية ولسنوات طويلة البسمة والفرحة والضحكة والحلم أيضاً، ولِماذا سيطر الهم والغم والحزن والبكاء والعويل على تلك العائلات التي فقدت الكثير من أبنائها وبناتها سواء أتم ذلك عبر الحروب أم عبر الخطف والسجن أم القتل أو الذين طمروا في المقابر الجماعية ومن مختلف قوميات وفئات المجتمع.

وأنا اقرأ الكتاب أحسست بألم في قلبي ودمعة تنساب من عيني دون إرادتي، إنه الكتاب الذي غزا قلبي وعقلي في آن واحد، لأنه صور ليس حياة هذه العائلة العراقية الطيبة فحسب، بل جسد حياة الشعب العراقي بأغلبه حينذاك. لا يمكن لهذه السطور أن تعبر للقارئات والقراءة ما تضمنه هذا الكتاب من حقائق ستبقى صفحة سوداء في جبين حزب البعث العربي الاشتراكي الذي قاد حكم العراق مرتين (1963 و1968) وفي كل مرة كان جزاراً للشعب وقواه الوطنية، وخاصة في مجيئه الثاني للسلطة. ومن مهمة الجميع في العراق والمنطقة والعالم منع هذا الحزب من العودة إلى الحياة السياسية والسلطة للمرة الثالثة.

شكراً وألف شكر للكاتبة الفاضلة وتعازي القلبية بوفاة الوالدين وتهاني بسلامة بقية أفراد العائلة.

2010/4/16

الجزء الثالث: قراءة في كتب عن الإسلام والمسلمين

قراءة في كتاب

نبوة محمد" للكاتب الدكتور محمد محمود

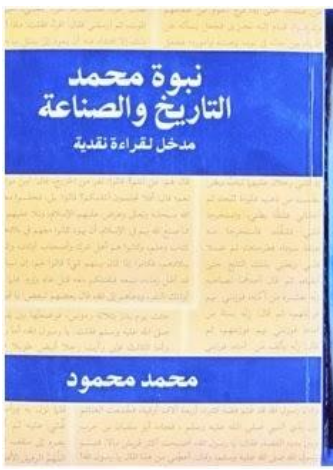

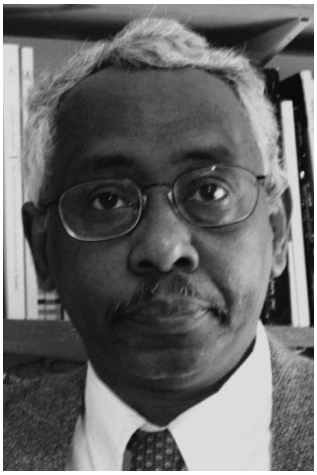

اسم الكتاب: نبوة محمد – التاريخ والصناعة – مدخل لقراءة نقدية

اسم الكاتب: محمد محمود (أكاديمي من السودان)

دار النشر: مركز الدراسات النقدية للأديان

مكان النشر: لندن، بريطانيا

سنة النشر: ط 2 /2013

عدد صفحات الكتاب: 474 صفحة

المدخل:

يتضمن البحث العلمي المميز لذي أنجزه الباحث الأكاديمي والكاتب السوداني الدكتور محمد محمود مقدمة قصيرة ولكنها تكشف عما يمكن أن يواجهه هذا الكتاب من المتشددين والمتطرفين والجهلة من محاولات للتشويه والإقصاء والتشكيك بكل ما هو علمي وخاضع للتحليل المادي التاريخي والمصاعب التي يواجهها البحث العلمي عموماً في هذه المرحلة التي بدت وكأنها صعود للفكر غير التنويري الغائص في الأساطير والخرافات والخزعبلات الفكرية والرافض للفكر النقدي من جهة، ويشعرنا من جهة أخرى بأهمية الخوض في مثل هذه الأبحاث مستنداً إلى الحكمة التي طرحها أبن خلدون في كتابه "المقدمة" إذ كتب ما يلي: "إنه لا

يكفي أن تصف موج البحر، وظهور السفن، حين تريد أن تتكلم عن حياة البحر .. لا بد لك أن تفهم ما في القاع.. قاع البحر المليء بالغرائب والتيارات والوحوش... وقاع السفينة حيث يجلس عبيد وملاحون إلى المجاديف أياماً كاملةً، يدفعون بسواعدهم بضائع تحملها السفن، وثروات وركاباً .. وينزفون عرقاً، وتتمزق أجسامهم تحت السياط.. أجل، ينبغي أن تعطيني صورة كاملة، عندما تريد أن تقنعني بأمر من الأمور". ثم يضيف الدكتور محمد محمود مسألة مهمة جداً تمس استقلالية وجدية البحث العلمي حين يؤكد ضرورة رفع القدسية عن كل شيء حين يراد التعمق حتى القاع في البحث العلمي بهدف الوصول إلى الحقائق الصلدة وليس برؤية مسبقة، ولكن بافتراضات علمية يسعى البحث للتيقن منها أو رفضها، أي البحث بهدف الوصول إلى الاستنتاجات العلمية التي يصعب دحضها من خلال إيراد الأساطير التي تناقلتها المجتمعات البشرية منذ العهود السومرية والأكدية والآشورية والكلدانية وعموماً البابلية أو الفرعونية أو غيرها كالتوراة والإنجيل والتلمود والمدراش ...الخ والمسطرة من جديد وبصيغ وأساليب أخرى في القرآن.

حين كنت أدرس في الجامعة المستنصرية كان الأستاذ الكبير إبراهيم كبة يدرس تاريخ الفكر والمذاهب الاقتصادية. وكنت في حوار معه حول الدين الإسلامي والفكر الديني عموماً فأشار بما معناه: عزيزي أبا سامر، أنا أعالج في محاضراتي نقد الدين والفكر الديني المسيحي بشكل مباشر وواضح، وهذا يتوجه مباشرة إلى الدين والفكر الإسلامي، فهما في الجوهر واحد، ولكن الأوضاع وهيمنة الفكر الديني المتخلف لا تسمح بتوجيه النقد المباشر للإسلام أو الفكر الإسلامي". هكذا كان وهذا هو واقع العراق والدول العربية في الموقف من الدراسات والأبحاث العلمية في الدين والفكر الديني، وهي المشكلة التي عانى منها اليهود والمسيحيون في القرون الوسطى وبعدها بفترة غير قصيرة، ولكن فترة التنوير والتطور الرأسمالي، وخاصة المجتمع البرجوازي الصناعي لعبا دورهما في تغيير اتجاه التفكير والعقل في أوروبا والولايات المتحدة وكند واستراليا على وجه الخصوص، رغم أن المدارس الدينية فيها ما تزال تمارس أسلوبا مقارباً للماضي مع تفتح نسبي أفضل وعجز عن مواجهة الدراسات والبحوث العلمية. في حين أن الإسلام ما يزال يعيش الفترات التي عاشتها منذ قرون الديانة المسيحية وقبل ذاك الديانة اليهودية. (بعد سقوط الدكتاتورية الصدامية بالعراق دعيت لإلقاء محاضرة في نادي اتحاد الأدباء والكتاب في العراق وقد تطرقت إلى أهمية نقد الدين والفكر الديني. وبعد الانتهاء من المحاضرة قدم أحد مسؤولي الاتحاد نقداً لي بشأن نقد الدين وقال يفترض أن نتحدث عن نقد الفكر الديني. أدركت حينها المصاعب التي تواجه الاتحاد من قبل قوى الإسلام السياسي المسيطرة على السلطة السياسية ولم ارغب وأنا الضيف والزائر أن أخلق مصاعب إضافية للاتحاد، فقلت نعم كما تريد نقد الفكر الديني، في حين كنت أقصد بالتحديد نقد الدين والفكر الديني الكثير من المقالات قبل ذاك، كاظم حبيب).

كما يتضمن الكتاب الذي نحن بصدده ثلاثة عشر فصلاً وخاتمة. بحث في الفصل الأول بزوغ النبوة في الإسلام وأساسها الفعلي المنطلق من أرضية الإيمان اليهودي المسيحي بوحدانية الله والمرتبطة أيضاً بالحنيفية التي كانت منتشرة في حينها في مكة والمنطقة بأسرها، والتي كانت بدورها توحيدية الإله ورفضت كثرة الآلهة كما عرفها العرب والتي تجلى وجودها في "بيت ألآلهة أو "الكعبة".

وركز الفصل الثاني على البيئة الاجتماعية والفكرية والسياسية العامة والديانات التي برزت حينذاك والتي أثرت في نبوة محمد. أما الفصل الثالث فيبحث في نبوة محمد ولحظته التأسيسية لدينه الجديد الذي لم يكن مفاجئاً للكثير من العرب حينذاك بسبب معرفتهم لهذه الظاهرة الإنسانية ولهم تجارب مع الديانتين اليهودية والنصرانية وقبل ذاك مع الحنيفية. أما الفصل الرابع فيتطرق بتفصيل وعمق إلى مرحلة النشوء الأولى في مكة والمصاعب الكبيرة التي واجهته من القوى التي انحدر منها وتبنى فكرها وعقيدتها وآمن بآلهتها ولم يثقوا باحتمال أن يكون نبياً أو مرسلاً من إله واحد أحد، في ما عدا قلة من القريبين منه وممن لم تكن فكرة الإله الواحد غريبة عنهم. لقد عانى أتباع محمد الكثير في مكة، وكان المؤمنون بدين محمد مسالمين ولم يكونوا عنيفين في مواجهة مناهضيهم. وخصص الباحث الملتزم بعلمية عالية الفصلين الخامس والسادس للمرحلة الجديدة، لفترة الهروب إلى المدينة وبدء خلق التضامن والتآخى بين المهاجرين والأنصار في يثرب وبناء دولته (دولة المدينة) التي لم يكن غيره فيها نبياً ومشرعاً ومسؤولاً عن الدعوة للحروب والغزوات والاقتصاد وترتيب معيشة قواته المتنامية التي نشطت لديهم الرغبة في التوسع على حساب مناطق أخرى وللحصول على المزيد من الأموال والأسلاب والرقيق والجواري. وهنا نتابع معاركه المستمرة ضد اليهود والمذابح التي نظمت ضدهم وخاصة بني قريظة. لقد كرس محمد سلطته وسيطرته على المدينة وعلى أتباعه وبدأ سعيه الجديد للعودة إلى مكة التي بدأ بها دعوته وفشل في إقناع أهلها واجبر على الهروب منها.

الفصلان السابع والثامن يعالجان المعارضة المستمرة له في مكة حتى بعد عودته إليها ونجاحه في العودة. ويحلل هنا قوى المعارضة في مكة، في حين يخصص الفصل الثامن للمعارضة اليهودية والمسيحية في المدينة. وإذ يبدو إن محمداً في عداء مستحكم ضد اليهود، فإنه كان قليل الشدة في مواجهة أتباع الديانة المسيحية. لقد تحول محمد أثناء وجوده في المدينة بالمقارنة مع فترة وجوده الأولى في مكة إلى ساع للحروب والتوسع والقتل لنشر الدعوة وكسب المؤيدين والحصول على المزيد من الأراضي الخصبة والثمار والأموال والعبيد. لقد تميزت الفترة بالعنف الصاعد الذي اقترن ليس بالحروب فحسب، بل وبالاغتيالات

والتمثيل بالموتى أو حتى أثناء قتلهم، ولكن في مرحلة لاحقة حرُم المُثلة بالميت من بعض المشرعين المسلمين.

وخصص الكاتب الفصل التاسع لمواجهة المنافقين، أي مواجهة الأوس والخزرج وغيرهم ممن لم يؤمنوا بدين محمد إيماناً صحيحاً، وكان عليهم شديداً، أدى إلى قتل الكثير منهم، وفيه التعبير الصارخ عن حالة إقصاء الآخر ليستتب له ولدينه الأمر في المدينة وحواليها.

أما الفصول الأربعة التالية فتبحث في الرسالة المحمدية وما بثه من الشعائر كالصلاة والصوم والآذان، وكذلك في الأخلاق التي تقترب جداً من الوصايا العشر الواردة في الديانتين اليهودية والمسيحية، أو التي لا تختلف عنها إلا بالصياغة والأسلوب ولكنها واحدة في المضامين. وهنا يأتي الموضوع المهم والبارز في الفصلين الثاني عشر (صناعة محمد من البداية إلى الكلمة) والثالث عشر (الفعل والصفات الخصوصية) حيث يبحث الكاتب بعناية كبيرة، كما في الفصول السابقة، صناعة محمد وصناعة الجماعة والمجتمع للنبوة ومن ثم دور السلطة في هذه الصناعة وفي نشر الدين. ويتجه صوب ثلاث مسائل جوهرية هي:

1) خصوبة خيال محمد وتجربته واطلاعه على الديانتين اليهودية والمسيحية وعلى الحنيفية وقدرته على استخدام هذا الخيال في صناعة القصص والأساطير أو إعادة صياغة القديم منها وتقديمه لأتباعه.

2) دور الصناعة الجمعية المجتمعية للنبوة من جانب أتباعه الذين ساهموا في نشر الدعوة والترويج لها وخيالهم في ابتداع معجزات عند محمد لم يحققها ولم يسجلها لنفسه، بل من عنديات أتباعه مقترنة بسياسة التوسع على الأرض وكسب المزيد من الناس للدين الجديد، الإسلام.

3) أما القوة الثالثة التي لعبت دوراً في صناعة النبوة فهي السلطة، تلك السلطة الفعلية التي تمتع بها محمد ومن هم حوله. وكان النبي محمد يمسك بيديه عمليا ما اصطلح عليه حديثاً بالسلطات الثلاث السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، بما فيها المالية، وسلطة القضاء أو إنزال العقاب بمن يخالف ما جاء به ونص عليه. فهو صاحب القرآن حيث التشريع، وهو صاحب القرار في الحروب والسلام وتوزيع الأسلاب والأموال والأسرى أو العبيد وهو القضاء في حسم الخلافات وإنزال العقاب والثواب. لقد أضافت السلطة السياسية عملياً الخيال الثالث لصناعة النبوة ونشرها بقوتين قوة الإقناع وقوة السيف، فمن لم يقتنع بالحجج التي يقدمها المريدون يأتي دور السيف، ولهذا يرفع المسلمون في أعلامهم السيف، كما هو الحال في السعودية، أو كما عبر عنه العرب في تقاليدهم وثقافتهم:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

والسيف، أي القوة والعنف، هو الذي ساهم في التوسع على الأرض في فترة وجود محمد وفي زمن الخلفاء الراشدين ومن ثم في الدول التي تبنت الإسلام للتوسع، سواء أكانت الدولة الأموية أم الدولة العباسية أم الدولة العثمانية أم الدول الأخرى أينما وحيثما نشأت على دين محمد وديدنه في الحكم.

ثم يتضمن الكتاب خاتمة مهمة تلخص النتائج التي توصل إليها الكاتب والتي ستجد الكراهية والحقد والإساءة من المتطرفين والمتشددين وأشباه المثقفين ممن لا يعون أهمية البحث العلمي وضروراته. ويبرز أمامي في هذا الصدد مقال خالد موسى ممثل النظام الإسلامي الاستبدادي السوداني في ألمانيا والمعبر عن هذا الموقف الإقصائي لكل من يفكر بعقلانية وعلمية، فعنده التفكير لا يبتعد عن قاعدة "لا تفكر لها مدبر!" وكفى الله المؤمنين شر القتال. أما الرأي والرأي الآخر فلا مكان لدى هؤلاء الناس الذين تعلموا في الكتاتيب ولم يغادروها فكراً وممارسة.

أين تكمن قوة كتاب نبوة محمد؟

إنها على وفق قناعتي تكمن في النقاط التالية:

1. **في معرفته الممتازة لأصول وأسس وقواعد الأديان التي سبقت التوحيدية ومن ثم التوحيدية قبل الإسلام ومن ثم الدين الإسلامي المستلهم منها بسبب دراساته المقارنة وتدريسه لها، وبالتالي فهو يتحدث عن معرفة معمقة وموسوعية في مجال الديانات عموماً والدين الإسلامي خصوصاً.**
2. **استخدامه للمنهج العلمي النقدي والشفاف في دراسة الأديان الثلاثة التي يطلق عليها بالسماوية، اليهودية والمسيحية والإسلام، والتحري عن أصولها المشتركة وتفرعاتها والتمايز في ما بينها، سواء في مكان ظهورها أو زمن هذا الظهور أو الظروف التي أوجبت بروزها، إضافة إلى فعل وتأثير الديانتين وكتابيهما على القرآن وعلى عملية جمعه فيما بعد.**
3. **استخدامه لأبرز وأكثر المصادر العربية والإسلامية والأجنبية التي بحثت في تاريخ نشوء وتطور الإسلام والتي يشهد لها بأنها الأكثر إلى الصواب في ما نقلته أو تحدثت به، إضافة إلى تحليل أساليب وأدوات نشر الدعوة الإسلامية وصناعة النبوة الجمعية الاجتماعية.**
4. **في جرأته وصراحته في الكشف عن الحقائق الصلدة دون اعتبار لتلك القوى التي ستسعى بعد نشر الكتاب إلى نهشه. فالحقائق رغم نسبيتها صخور صلدة من لا يعترف بها يصطدم رأسه بها ويتحطم، كما يقول المثل الانجليزي. لقد كشف عن طبيعة النبوة وكونها نابعة من خيال خلاق للإنسان وبالتالي فالنبوة صناعة**

إنسانية وليست صناعة إلهية، وبالتالي فأن الله لم يصنع الإنسان كما إنه لم يصنع النبوة والمرسلين أو الأنبياء بل الإنسان والأنبياء هم الذين صنعوا إلههم الواحد الأحد.

5. وكان الكاتب محللا دقيقاً ومدققاً وواضحاً جداً في تشخيص العوامل التي دفعت محمد إلى التحول في حالات ثلاث جوهرية هي:

أ. من دين كان موجهاً لأهل مكة ومن فيها إلى دين موجه للمدينة ومكة ومن ثم للعالم.

ب. من الموقف السلمي في نشر الدعوة، إلى موقف يتميز بالعنف والسادية المرضية في الحروب والقتل والتعذيب والاغتيال والتمثيل ورفض الآخر والدعوة إلى مقاتلته.

ج. من الدعوة لدين جديد هو الإسلام إلى العمل من أجل الحكم والسيطرة والتوسع على حساب الغير. وما يرتبط بهذا التحول من متطلبات اقتصادية، أي من غزو وسلب للأرض والأموال والثمار من أجدل تأمين التوسع في القوات والمزيد من حروب الغزو أو "الفتح" الإسلامي.

6. الأسلوب الذي انتهجه النبي محمد في إقصاء الآخر سواء أكان الدين وثنياً أم يهودياً ومن ثم مسيحياً. فرغم إنه اعترف بها وبوجودها ولكنه أكد أنها بنشوء الإسلام انتهى دور الأديان الأخرى ولا بد أن يكون الجميع في صفوف المسلمين، وأنهى عملياً "لكم دينكم ولي دين". ولم يكن هذا الطرح دفعة واحدة بل تدرج بها ليصل في المحصلة النهائية إلى عدم صلاحيتها، والإسلام هو للجميع. كما بشر بأن دين محمد أو دين الإسلام هو آخر دين ينزله الله لبني البشر وأغلق الباب على كل من يريد أن يدعي النبوة. كما إن روح الإقصاء استمر فعلها لدى شيوخ المسلمين والأحزاب الإسلامية السياسية حتى الآن وبعد مرور أكثر من 14 قرناً على بدء ظهور الإسلام. ويبرز هذا الإقصاء في حينها صارخاً في تهديم الأوثان وفي محاربة اليهود وقتل عدد كبير يصل إلى 600 رجل في بعض الروايات و3000 رجل في روايات أخرى مع سبي النساء والأطفال وتحويلهم إلى عبيد وصوب الإسلام، كما حصل هذا مع بني قريظة المؤمنين بالديانة اليهودية، أو ما حصل مع الأوس والخزرج وغيرهم. (ملاحظة: استوطنت في يثرب قبل ظهور الإسلام بعدة قرون ثلاث قبائل آمنت بالديانة اليهودية وهي بنو قريظة، وبنو قَيْنُقاع وبنو النضير. طرد محمد قبيلة بني قينقاع وبني النضير من يثرب بعد أن تعززت سيطرته حين رفضوا الإسلام ديناً بديلاً عن دينهم وليكون درساً لبني قريظة، التي تعرضت فيما بعد للمذبحة الرهيبة التي ذكرتها في أعلاه رغم حفاظها على العهد ولم تدعم قوى الأحزاب المكية ضد محمد والمسلمين. ك. حبيب).

أورد الكاتب صلاح يوسف في مثال له بعنوان "الأسباب الحقيقية للتكفير... بعض الآيات القرآنية التي تدلل على رفض محمد والإسلام للديانات الأخرى في الفترة الثانية التي تميزت بالتحول صوب العنف وعدم التسامح مع أتباع تلك الأديان: "يقول محمد في القرآن (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)، كما يقول (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) كما يضيف (وإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) كما يقول (كتب عليكم القتال) ويقول أيضاً (اقتلوهم حيث ثقفتموهم) !! القرآن إذن يضج بالأوامر (الإلهية ؟) التي تحرض المؤمنين على قتل الكفار وقطع رؤوسهم كما فعل محمد بقبيلة بني قريظة التي ذبح رجالها وسبى نسائها واسترق أطفالها ونهب أموالها .. لماذا ندفن رؤوسنا بالرمال ولا نجرؤ على البوح بالكلمة الحرة الصادقة ؟؟!" (الحوار المتمدن، صلاح يوسف، الأسباب الحقيقية للتكفير، العدد 4420 بتاريخ 2013/9/19).

7. ويستخلص الكاتب محمد محمود بدقة سليمة إن الانغلاق الفكري على البحث العلمي والتفكير العقلاني قد دفع بالدين الإسلامي والمسلمين إلى الأزمة الحضارية الراهنة، فهم يعيشون في حضارة القرن الحادي والعشرين من حيث استخدام أعلى مستويات منتجات ومنجزات الثورة العلمية والتقنية وثورة الأنفوميديا من جهة، ولكنهم يعيشون في ما يشبه القرون الوسطى من حيث الفكر ومستوى العقلية والحرية والحياة الديمقراطية، بما في ذلك حرية البحث الأكاديمي وحرية المرأة ...الخ من جهة أخرى. إنها المحنة والتناقض الذي يدفع بالمسلمين باتجاهات عدمية ومتطرفة. فهم يعتقدون بالقدرة على العودة إلى الماضي السلفي في الفتح والتوسع وإقامة دولة الله على الأرض بعد مرور 1434 سنة هجرية، ويحق لهم استخدام الحروب والغزوات والعنف كما استخدم في سالف الزمان ليعودوا إلى حكم الخلافة حتى لو مات الملايين من البشر، وهو ما يشاهده ويعيشه الناس في العمليات الإرهابية والقتل الواسع النطاق لتنظيم القاعدة والتنظيمات الإسلامية السياسية المتطرفة والإرهابية، وهي نتاج للتثقيف والتربية الدينية في المملكة السعودية وإيران والسودان والعراق وغيرها، أو في محاولات قوى إسلامية سياسية تسمى معتدلة ولكنها في المحصلة النهائية تصل إلى نفس العواقب السيئة والسلبية كما حصل في مصر على أيدي جماعة الأخوان المسلمين أو ما يجري في العراق والسودان وغيرها.

إن الاستنتاج الأساسي الذي سجله الدكتور محمد محمود والذي أثار ويثير غضب المهووسين بمناهضة البحث العلمي والعلمانية والمتشبثين بقدسية الدين والفكر الديني هو الافتراض الذي طرحه في مقدمة الكتاب وبرهن عليه على امتداد الفصول الـ 13 والقائل: " وننطلق في كتابنا هذا في النظر لنبوة محمد وللنبوة

عامة من افتراض أولي مؤداه أن النبوة ظاهرة إنسانية صرفة، وأن الإله الذي تتحدث عنه النبوة لم يحُدِث النبوة ويصنعها وإنما النبوة هي التي أحْدَثَت إلهها وصنعته." (المقدمة صفحة ح). وبهذا المعنى فالنبوة فعل إنساني خلاق، خيال نشط وإبداعي فردي، ولكنه يخلق معه خيال مجتمعي جمعي يلتزمه ويدعو له ويعزز وجوده، ثم يكرسه خيال سلطوي تسلطي يذود عنه ويشرع له. يومكن أن نتابع ذلك في الدول ذات الأكثرية الإسلامية التي تتحدث عن الدين باعتباره دين الدولة وتكرسه في دساتيرها وتمنع أي بحث في نقد الدين أو الفكر الديني كما في المادة 126 من الدستور السوداني السيئ الصيت أو دساتير أخرى بالدول العربية.

إذن نحن أمام حقيقة علمية مهمة قيلت قبل قرون من الفارابي وبن رشد وغيرهما في أن الإنسان هو الذي خلق إلهه وليس الإله من خلق الإنسان، وليس الإله من خلق النبوة، بل النبوة هي التي خلقت الإله.

لم يكن محمد هو النبي الثالث في التوحيديين، بل كان هناك 25 ألف نبي في هذا العالم الفسيح وجلهم أن لم يكونوا كلهم في هذه المنطقة من المشرقين الأدنى والأوسط. وعلى وفق رأي محمد وما ورد في القرآن فأن هناك 25 نبياً يحتلون الصدارة وقد وضعت في نص على النحو التالي كما كنا نتعلمه في المدرسة أو في البيت والذي حفظناه عن ظهر قلب أو في الصدر:

خمس وعشرون فخذ بياني

هم آدم إدريس نوح هود*يونس إلياس يسع داودُ**

ثم شعيب صالح أيوب*إسحاق ثم يوسف يعقوب**

هارون إبراهيم لوط موسى*ذو الكفل يحيى زكريا عيسى**

ثم سليمان وإسماعيل*خاتمهم محمد الخليلُ**

ولكن الكثير من الأنبياء الذين ظهروا وأعلنوا عن نبوتهم في العالم لم يسعدهم الحظ لبناء دين جديد، والكثير منهم كان كبقية الأنبياء من الذين تبنوا أفكاراً إصلاحية بغض النظر عن النتائج التي وصلت إليها في المحصلة النهائية تلك الأفكار والأديان. برلين في 2013/10/2 كاظم حبيب

رسالة المؤلف الدكتور محمد أحمد محمود

عزيزي حامد

تحية طيبة

لك جزيل الشكر على جذب انتباهي لمقالة الأستاذ كاظم حبيب في الحوار المتمدن، وحسنا فعلت، فإن موقع الحوار المتمدن قد أصبح مدينة ضخمة مزدحمة الطرقات ما كان من الممكن أن أعثر فيها على مقالة الأستاذ كاظم بسهولة.

هذه مقالة قيمة أعتبرها أفضل ما كتب عن الكتاب حتى الآن إذ أنها لا تحوم حول موضوعه وإنما تبسطه بسطا أمام القارئ من غير تهيب أو لجلجة تقية (ولقد أصبح هذا بكل أسف نهج الكثير من التقدميين عندما يخوضون في أمر الدين). ولقد كان من الواضح لي سبب ذلك وهو أن الأستاذ كاظم مشغول بالقضية الأساسية للكتاب وفوق ذلك مشغول بها انشغالا نقديا . وما أعجبني في مقالته أنه التزم فيها بمعايير مراجعة الكتب السليمة فأعطى القارئ المعلومات البيبلوغرافية الأساسية ولمحة عن هيكل الكتاب وفكرة عن الأطروحة الأساسية للكتاب، وكل هذا بمنهج يكشف عن عقل مرتب.

وفي إطار موقف عام لا يتخوف الأستاذ كاظم من التصريح به كمثقف ظل دوما من حملة مشعل الموقف النقدي.

أرجو أن تنقل للأستاذ كاظم خالص شكري على الزمن الذي أعطاه لكتابي والمجهود الذي بذله في التعريف به، وليدم ذخرا لقضية التغيير في مجتمعاتنا المتطلعة لغد أفضل.

مع خالص مودتي

محمد

7/10/2013

في كتاب "أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر"

للكاتب الدكتور الطبيب حامد فضل الله

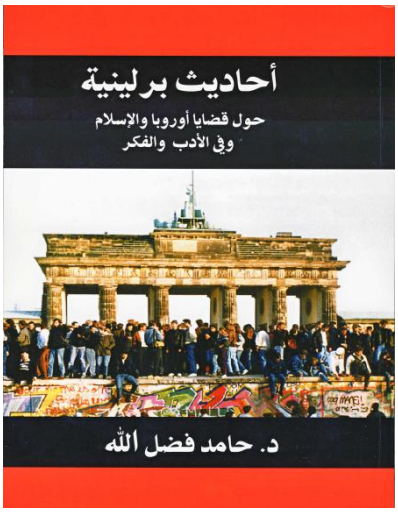

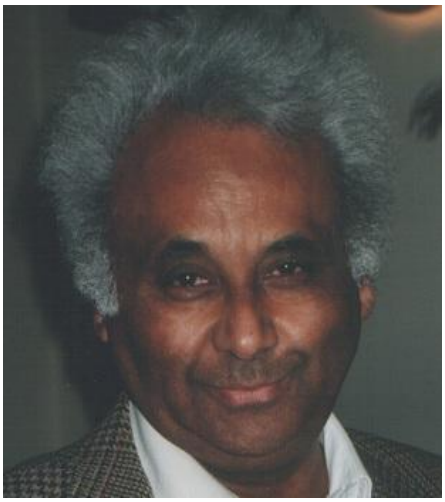

اسم الكتاب: أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر

اسم المؤلف: الدكتور الطبيب حامد فضل الله

الناشر: دار الدليل للطباعة والنشر – برلين ،

سنة النشر: تشرين الثاني/نوفمبر 2013

عدد الصفحات: 458 صفحة

اللغة: العربية والألمانية

بدعوة من الجالية السودانية ببرلين/ براندنبورغ عقدت مساء يوم الجمعة المصادف 2014/1/17 ببرلين ندوة فكرية – أدبية حول كتاب الدكتور حامد فضل الله الموسوم "أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر" حضرها جمع واسع من مواطنات ومواطنين الدول العربية المقيمين ببرلين، كما تضمنت الدعوة تقديمي لكتاب الصديق العزيز حامد فضل الله

محتويات الكتاب

صدر عن دار الدليل للطباعة والنشر ببرلين كتاب جديد للكاتب والقاص والطبيب الدكتور حامد فضل الله من السودان والمقيم ببرلين تحت عنوان "أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر". وقد كرمني الصديق بهدية قيمة هي نسخة من كتابه الجديد فشكراً جزيلاً له.

يتضمن إهداءً ومقدمةً وستة فصول وقسم خاص في نهاية الكتاب باللغة الألمانية مع مجموعة من الصور التذكارية ورسائل من أرشيفه الخاص.

الأديب والدبلوماسي السوداني الأستاذ خالد موسى دفع الله كتب مقدمة الكتاب وجعلها تحت عنوان ناجح ومُعبّر "تأملات في حياة مثقف استثنائي"، وهي قطعة أدبية تبحث وتناقش في وجهات نظر الكاتب وما ورد في الكتاب من أفكار لكتاب آخرين، إضافة إلى جملة من المسائل الفكرية والعملية من وجهة نظر الكاتب وكتاب آخرين حول قضايا الهجرة والغربة والهوية والإسلام وموضوعات حيوية أخرى التي كتب عنها أو ترجمها وناقشها المؤلف د. حامد فضل الله.

وفي الفصل الأول يتذكر المؤلف صباه ودراسته في أمدرمان والخرطوم والقاهرة ولايبزك وعلاقاته الصداقية ونشاطاته السياسية والاجتماعية والثقافية الشبابية وتتبعه للندوات الفكرية ورغبته العارمة في الإطلاع والقراءة وتأثره بالفكر الإسلامي عموماً والإخواني على وجه الخصوص، ثم عودته إلى السودان ومن ثم السفر بزمالة دراسية إلى ألمانيا الديمقراطية وعودته منها بعد التخرج إلى السودان ورجوعه الثاني إلى ألمانيا للعمل والاستقرار فيها.

أما الفصل الثاني فيبحث بحيوية فائقة قضايا الاندماج والانصهار والهوية وتفاعلات العرب والإسلام في أوروبا. وتضمن هذا الفصل العديد من الترجمات التي قام بها المؤلف لكتاب مختصين ألمان بشؤون الإسلام والمسلمين والمغتربين. وهي كتابات غنية وترجمة ممتازة تجسد المعرفة الدقيقة للكاتب باللغتين العربية والألمانية. وتقدم للمكتبة العربية دراسات قيمة وهادفة في هذا الصدد.

أما الفصل الثالث فيبحث في قضايا فكرية تدور حول الاقتصادي المميز الكبير سمير أمين وعن مشكلات التعذيب ومشاركة العرب في الحرب الإسبانية ضد الفاشية الفرانكوية وعن مشكلات الثقافة السودانية في دولة استبدادية، كما يبحث في الأحزاب السياسية وقوى الإسلام السياسي في السودان والطبيعة الانتهازية لبعض هذه القوى.

أما الفصل الرابع فيأتي تحت عنوان الوجه مرئيا، وهو عنوان قصيدة أدونيس التي ترجمها مؤلف الكتاب ونشرها سابقاً. في هذا الفصل نقرأ بعض كتابات المؤلف وكتاب آخرين عن الروائي السوداني الطيب صالح، سواء باستعراضها أم تحليلها ونقدها أم بترجمة نصوص منها.

ويبحث الفصل الخامس عن شخصيات في الخاطر، وهي من نمط الإخوانيات في الشعر العربي يتحدث فيها عن مجموعة من أصدقائه الذين احتفظ لهم في ذاكرته مكاناً طيباً.

أما الفصل السادس فكتب تحت عنوان الأجنبي وقصص أخرى للكاتب. وهي مجموعة فريدة لكاتب القصة القصيرة المبدع حامد فضل الله وقراءات في قصص أخرى. ثم يتضمن الكتاب قسماً خاصاً أسماه من الأرشيف البرليني وكتابات أخرى باللغتين العربية والألمانية وبعض الصور من أرشيف المؤلف.

رؤية في الكتاب

قليلة هي الكتب العربية التي تطبع ببرلين، عاصمة ألمانيا الاتحادية. ونادرة هي الكتب التي تطبع طباعة جيدة وغلاف ناجح. وهذا الكتاب هو الأكثر ناجحاً من حيث الطباعة ومن حيث بنط الحروف (14) بحيث يمكن أن يقرأ من الشباب وكبار السن في آن واحد دون جهد كبير، إضافة إلى جودة تصميم وطباعة الغلاف، مع ثقل غير مستحب في الورق المستخدم في طبع الكتاب.

في هذا الكتاب القيم وجدت نفسي أمام إنسان مثقف كبير واسع الأفق والاطلاع، كثيف القراءة وكثير التنوع في قراءاته ابتداء من الشعر والنثر والقصة والرواية والاقتصاد والتاريخ وعلم النفس والفلسفة والطب، الذي هو اختصاصه المباشر، كما إنه متعدد الكفاءات وعميق في رؤيته وتحليلاته للأحداث والوقائع ، يمتلك أسلوباً رشيقاً في الكتابة وسلسا في التعبير عما يدور في باله. عرفته منذ ما يقرب من ربع قرن في نشاطات الشأن العام والتزام الدفاع عن حقوق الإنسان والمجتمع المدني ببرلين وتوطدت علاقتي به لما تميز به من ود استثنائي حميمي في صداقته وسعيه للمساعدة واستقلالية عالية في التفكير وفي اتخاذ المواقف والقرارات وفي الأدوات التي يستخدمها في معالجة المشكلات التي تحيط به أم بالسودانيين أم بأصدقائه العراقيين والسوريين وبقية العرب، وفي مواقفه الإنسانية إزاء القوميات والشعوب الأخرى. الود حامد يحمل حساً وطنياً وقومياً نظيفاً لا تشوبه الشوفينية وضيق الأفق، فبقدر ما يحترم ويحب وطنه وشعبه يحترم ويقدر القوميات والشعوب الأخرى ويثمن عالياً نضالاتها في سبيل الحرية والديمقراطية والسلام

والعدالة الاجتماعية. واحدة من خصاله الأصيلة رغبته الصادقة وممارسته الفعلية في الفصل بين الصداقة والعلاقات الاجتماعية من جهة، وبين المواقف والعلاقات السياسية من جهة أخرى. فهو بقدر ما يكون سمحاً وودودا وصادقاً في علاقاته مع جميع الناس أيا كانت وجهتهم الفكرية والسياسية، بقدر ما هو صارم وواضح في الموقف السياسي إزاء النظم الدكتاتورية والشوفينية ومنها النظام السوداني، فلا يجامل في ذلك رغم جلوسه مع السفير السوداني أو الملحق الثقافي أو الاقتصادي وحواره الودي معهم وفي الوقت نفسه لا يتراجع عن نقد هذا النظام أمامهم بصراحة ووضوح. والبعض من الأخوة العرب الذي يقيم معهم علاقات واسعة، وأعتقد بأنه العربي الوحيد الذي يقيم أوسع العلاقات مع الجاليات العربية في برلين وعلى مستوى ألمانيا بسبب هذه الروح السمحة التي يحملها قلباً وعقلاً، يشكك في علاقات د. حامد مع السفارة السودانية ويصعب عليهم وعي طبيعة هذه الشخصية ومزاجها والمبادئ التي يعتنقها. وإذا كان في أول شبابه يؤيد الإخوان المسلمين فإنه قد تخلى عن هذا التأييد منذ عقود ولم ينتم إلى أي حزب سياسي سوداني أو عربي أو في أوروبا، ولكنه يقيم علاقاته مع الجميع وله قيمه ومعاييره ومبادئه التي يسير عليها. لقد عرفته عن قرب، لهذا توطدت صداقتي به وحرصت، كما حرص علي ديمومتها وتطورها بين العائلتين.

إن ما تضمنه هذا الكتاب يجسد شخصية الكاتب بتنوعه الثقافي وسلوكه الإنساني وحبه للمعرفة وخبرته الطويلة والتجارب الغزيرة التي مر بها ورغبته الصادقة في عمل الخير وحيويته الفائقة في المتابعة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية على مستوى السودان والعالم العربي وألمانيا وحبه للترجمة لإغناء المكتبة العربية.

يمدنا الكاتب في الفصل الأول بالكثير من المعلومات عن الحياة الثقافية بالقاهرة في الخمسينات من القرن العشرين والصراعات الفكرية بين الأحزاب والمجموعات السياسية وملاحقته للفكر وتتبعه لندوات طه حسين وغيره من الأدباء والكتاب المصريين من رواد القصة المصرية والشعر، إضافة إلى تتبعه للثقافة السودانية والحوارات حول استقلالية هذه الثقافة وتفاعلها وتلاقحها الطبيعي مع الثقافة العربية والثقافة الإسلامية والثقافة الأفريقية، وهي من حيث المبدأ نقاشات حول الهوية الوطنية والثقافية في آن.

ثم يسجل ذكريات انتقاله من أجواء القاهرة والخرطوم وأمدرمان إلى أجواء لايبزك ودراسة اللغة والأخوة السودانيين الذين رافقوه في الدراسة وأجواء الطلبة وصراعاتهم السياسية التي أثقلت عليهم ومنعتهم من وحدة الصف لأسباب ترتبط بالجمود الإيديولوجي للمسؤولين عن الاتجاهات الفكرية والسياسية في هالة/صاله، والتي هي نموذج لحياة الطلاب العرب في ألمانيا وفي كل أوروبا. وغالباً ما يشعر القارئ بحنين

شفيف لفترات الدراسة والصداقات التي نشأت وليالي الشباب والنقاشات الحامية والأصوات المرتفعة التي تعج بها المقاهي التي يؤمها الأجانب، والعرب منهم على وجه الخصوص. يمنحنا الكاتب هنا، وخاصة الشباب منا، فرصة الاطلاع على تلك الفترة وعلى بعض الأحداث ويستخلص منها الدروس دون أن يؤكدها، فهي تصل إلى القارئ سلسة دون أن تحمل معها عصا الواعظين.

يشتمل الفصل الثاني المكون من 100 صفحة على ستة أبحاث مهمة تعالج إشكاليات العرب والمسلمين في ألمانيا. الأول منها للمؤلف ويبحث في موضوع "المسلمون والعرب وإشكالية الاندماج في المجتمع الألماني ودور النخب العربية" في حين تعود بقية الأبحاث لكتاب وأساتذة مختصين ألمان قام المؤلف بترجمتها ونشرها، وأحياناً بالتعاون مع آخرين، لأهميتها لفهم إشكالية الإنسان العربي والمسلم في ألمانيا عن طريقة تفكير الألماني، والأوروبي عموماً، إزاء العرب والمسلمين في مجتمعاتهم.

يشكل بحث الدكتور حامد فضل الله أهمية خاصة لمعالجته الجيدة لموقف العرب والألمان من إشكالية الاندماج في المجتمع الألماني والمصاعب التي تعترض هذا الطريق والخشية المضخمة لدى العرب والمسلمين من فقدانهم للهوية العربية أو للهوية الإسلامية باندماجهم في المجتمع الألماني. ومع واقع وجود تمايز بين مصطلحي الاندماج والانصهار، فأن تلك الخشية غير المبررة تعرقل إلى حدود بعيدة عملية الاندماج الضرورية والملحة لكل الأجانب القادمين والقاطنين في ألمانيا لأن الاندماج هو الطريق الوحيد للعيش والعمل المشترك والتفاهم والتفاعل والتلاقح أو التأثير المتبادل بين الثقافة القادمة وثقافة أهل البلاد الأصليين، دون أن يؤثر ذلك سلباً على الهوية القومية أو الدينية للعرب والمسلمين أو على هوية وثقافة الألمان، إذ بين الألمان من يخشى على هويته الثقافية الألمانية، التي يطلق عليها بعضهم بالثقافة الأصيلة والقائدة، من تأثير ثقافات الأجانب، وخاصة ثقافة ودين المسلمين والعرب. ولكن هذه المجموعة من الألمان صغيرة عموماً وذات تأثير محدود في المجتمع الألماني، وأغلبهم من النازيين الجدد. إن المجتمع الألماني متعدد الثقافات (MultiKulti)، وأجبرت الأحزاب التي كانت تتشبث برفض ذلك على الاعتراف بذلك لأنها بحاجة إلى الأجانب، ومنهم العرب والترك والفرس وغيرهم لعدد كثير من الجوانب الاجتماعية والسكانية وغيرها.

إن البحث المنهجي والموضوعي الهادف الذي أنجزه المؤلف نتيجة خبرته وعمله في مجال حقوق الإنسان ومنظمات كثيرة أخرى وعلاقاته الواسعة بالألمان من خلال عمله كطبيب نسائية ومن خلال علاقاته الاجتماعية ومندمج إيجابياً بالمجتمع البرليني، يشير بوضوح إلى الخسائر الكبيرة التي يتحملها العرب

والمسلمين حين يبتعدون عن الاندماج في مجتمعهم الجديد، سواء في جانب الحصول على فرصة عمل أو بالنسبة للعلاقات العامة أو تشكيل لوبي عربي من العرب الألمان للتأثير إيجابياً لصالح القضايا العربية في السياسة الألمانية، إضافة إلى تأثيره السلبي على لغة الأبناء والبنات من الأجيال اللاحقة.

وينطلق الدكتور حامد فضل الله من نقطة جوهرية في موقف الدولة والمجتمع في ألمانيا من الدين، وأعني بذلك تيقنه من علمانية الدولة والأحزاب والمجتمع في ألمانيا. فالدولة العلمانية والمجتمع الألماني المدني العلماني يحترمان كل الديانات والمذاهب وفي الوقت نفسه يفصلان بوضوح بين الدين والدولة وبين الدين والسياسة، وبالتالي فأن الدين بالنسبة للغالبية العظمى من الألمان لا يعتبر مشكلة بحد ذاتها، ولكنها يصبح مشكلة لهم ولغيرهم من القاطنين في ألمانيا حين يقترن بالعنف والدعوة البائسة والخطرة "للجهاد"، كما فعل بعض شيوخ الدين الترك أو غيرهم، أو ممارسة الدعاية الفجة لكسب الناس للإسلام أو ممارسة أساليب يرفضها المجتمع المدني العلماني الديمقراطي. إن هؤلاء الناس يذكروني بشخصية دون كيشوت التي تعيش أوهاماً وتحارب الطواحين وتعتقد أنه جيوش جرارة لا بد من محاربتها وهي تحارب أتباع دينها الذي انحرفت عنه وغاصت في مستنقع التكفير.

إن معايشتنا للألمان سنوات طويلة تؤكد بما لا يقبل الشك إن الإنسان العربي والمسلم قادران على الاندماج بالمجتمع الألماني دون أن يؤثر ذلك على موقفهما من دينهما أو مذهبهما الديني أو قوميتهما التي ينحدران منها، فالمهم عند الإنسان الألماني وعند كل إنسان احترام أتباع الديانات والمذاهب والقوميات الأخرى تماماً كما يحترم الفرد دينه أو مذهبه أو قوميته أو فكره..

لا يتحمل العربي والعربية أو المسلم والمسلمة وحدهم مسؤولية ضعف الاندماج، وإن كانوا يتحملون المسؤولية الكبرى، إذ إن سياسات الدولة الألمانية في السابق وإلى حد ما الآن تتحمل الجزء الآخر من المسؤولية. فهي لم تبذل الكثير من الجهد في سبل تحقيق الاندماج، كما إن سياسات بعض القوى، كما في الحزب الاجتماعي المسيحي على نحو خاص، وبعض فئات المجتمع المناهضة للأجانب عموماً، والنازيين على وجه الخصوص، وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 ، لعبت وما تزال تلعب دوراً سلبياً في هذا الصدد. إن هذه الفترة خلقت ما يطلق عليه برهاب الإسلام أو الخشية منه (Islamophobia) نتيجة لتصاعد وتيرة العمليات الإرهابية، سواء تلك التي وقعت في أوروبا، ومنها اسبانيا، أو التي وقعت في الدول الأفريقية، نيروبي، أم في الدول العربية والتي تفاقمت خلال السنوات

الأخيرة. وخشيتهم بالتالي ليست دون مبرر من المتطرفين بعد أن تطوعت مجموعة من العرب المسلمين أو من غير العرب من ألمانيا للوحدات الإرهابية لقوى القاعدة وداعش والنصرة في سوريا والعراق.

يقدم الدكتور حامد فضل الله بعض الحلول العملية لهذه المشكلة. ولكن لا يجوز المبالغة في حجم وتأثير هذه المجموعة في موقفها الخاطئ من الأجانب عموماً، ومن العرب والمسلمين خصوصاً، كما لا يجوز أن تكون السبب في عدم اندماج جماعات كثيرة من العرب والمسلمين في المجتمع الألماني.

إن العرب والمسلمين يعيشون في هذا المجتمع ومع سكانه الألمان وتقع على عاتقهم مسؤولية التعاون في إيجاد الصيغة المناسبة والضرورية للاندماج من جهة، والحفاظ على هويتهم القومية والدينية، وبتعبير أدق الثقافية، من جهة أخرى، إذ ليس هناك من يعترض على احتفاظهم بهويتهم الثقافية أو الدينية والقومية، إذ إن المجتمع الألماني يعمل على قاعدة مهمة جداً وصحيحة تماماً تقول بأن "الدين لله والوطن للجميع". وهذا يعني إن المجتمع الألماني علماني ديمقراطي متسامح يتجلى ذلك في ما أشار إليه الدكتور حامد في بحثه بصواب كبير حين كتب ما يلي: "يصل عدد المساجد والمصليات في ألمانيا إلى نحو 2300 مسجد ومصلى- أو 100 مسجد بالتعريف الكامل للمساجد. أول مسجد شيد في ألمانيا بالقرب من برلين وافتتح في 1915/6/13". (ص 91/90) ولم تتعرض هذه المساجد إلى التخريب أو الحرق في ألمانيا، في حين تعرضت مئات المساجد في الدول العربية والدول الأخرى ذات الأكثرية المسلمة إلى التخريب والحرق إضافة إلى حرق وتفجير الكثير من كنائس المسيحيين وقتل الكثير جداً من الناس على أيدي المتطرفين والإرهابيين ممن يدعي الإسلام ويرتدي عباءة المؤمن والمدعي بالتحري عن الثقافة التأصيلية أو السلفية المغرقة بالرجعية، كما جرى ويجري في مصر والعراق وسوريا على سبيل المثال لا الحصر.

ويُذكر الدكتور فضل الله القراء والقارئات بمؤتمرات الحوار السنوية التي بدأت منذ العام 2006 بين الحكومة الألمانية ممثلة وزارة الداخلية ومنظمات إسلامية تمثل نسبة تقل عن 15% من المسلمين المقيمين في ألمانيا من أجل تنشيط الفهم المتبادل والتحريك صوب الاندماج والتعايش السلمي والديمقراطي في المجتمع الألماني. ويقدم الدكتور حامد رؤيته العملية والواقعية لسبل معالجة مشكلة الاندماج وتطور حالة التعايش الإيجابي في المجتمع الألماني، ومنها تعلم اللغة الألمانية واحترام الثقافة الألمانية بما فيها التقاليد والعادات والتراث الألماني وتكوين علاقات صداقة وتنشيط منظمات المجتمع المدني باتجاه الألمان والمجتمع الألماني والعمل في الصحافة والثقافة والأحزاب السياسية الألمانية وتشكيل لوبي عربي فاعل ومؤثر في ألمانيا لصالح القضايا العربية الأساسية والسليمة.

وتضمن هذا الفصل دراسات قيمة ترجمها الدكتور حامد فضل الله والدكتور عصام حداد تصب في معالجة إشكاليات مهمة منها مثلاً رأي البروفيسورة أنجليكا نويفرت التي تبحث في كون القرآن يشكل جزءاً من أوروبا كما هو حال التوراة والإنجيل، وبالتالي فالإسلام هو الآخر يشكل جزءاً من ديانات ألمانيا وأوروبا، وكذا فإن المسلمين والمسلمات يشكلون جزءاً عضوياً من المجتمع الألماني وكذا الأوروبي، فهي مجتمعات متعددة الثقافات. إنها دراسة غنية ومهمة لواحدة من أبرز الباحثات والباحثين في ألمانيا وهي صديقة واعية للعرب والمسلمين.

وينشر المترجم فضل الله والمترجمة فايدة فضة للباحث البروفيسور هاينر بيلفيلد بحث مهم عن صورة الإسلام في ألمانيا وآخر عن "المسلمون في دولة القانون العلمانية". وهما بحثان أصيلان ومهمان لكل قارئ عربي ومسلم لأنه يعالج المشكلات بجدية وموضوعية عالية ومن منطلق الصداقة للعرب والمسلمين. وهكذا هو الموقف من بحث المواطن اللبناني الألماني الدكتور رالف غضبان حول الداعية الإسلامي طارق رمضان. ثم في هذا الفصل بحث للبروفيسور أودو شتاينباخ بعنوان الإسلام والحداثة، وآخر للبروفيسور كريستيان ترول بعنوان "الفكر التقدمي في الإسلام المعاصر" وكلها أبحاث تعالج المشكلات الراهنة التي تواجه العرب والمسلمين في ألمانيا وتستحق القراءة والمناقشة ولم تكن ترجمة هذه الأبحاث عفوية أو عبثية بل جدية لأنها تريد أن يتعرف العرب والمسلمين على كيفية تفكير العلماء الألمان والمجتمع الألماني حول قضايا الاندماج والإسلام والمسلمين. وعلينا أن نشير هنا إلى إن هؤلاء الباحثين هم من أصدقاء العرب والمسلمين ويسعون إلى إيجاد علاقة سليمة بينهم وبين الشعب الألماني الذي ينتمون إليه وإلى فتح الأبواب أمام العرب والمسلمين لمعالجة قضايا القرآن والإسلام وغيرها بروح نقدية واعية وعقلانية، كما تجري الأبحاث في ألمانيا أو في أوروبا دون قيود أو حدود كما هو حال البحث العلمي المتخلف والمقيد باستبداد النظم الحاكمة في الدول العربية أو في الدول ذات الأكثرية الإسلامية، وخاصة الأبحاث في قضايا الإسلام والمسلمين، فهي من المحرمات. ويمكن أن نشير هنا إلى حالة القيود الظالمة التي تفرض على البحث العلمي وعلى دخول الكتب إلى القراء العرب في الدول العربية من خلال الإشارة إلى منع واحدٍ من أبرز الكتب العربية الصادرة في نهاية العام 2013 المتسم بالعلمية والموضوعية والجدلية في البحث العلمي، وأقصد به كتاب العالم السوداني البروفيسور الدكتور محمد أحمد محمود الموسوم "نبوة محمد: التاريخ والصناعة، مدخل لقراءة نقدية"، هذا السفر الجليل الذي يجسد العقلانية والموضوعية في البحث الجدلي العميق والدقيق والمعتمد على مئات المصادر والمراجع المشهود لها بالتوثيق.

أما الفصل الثالث فيشتمل على عدة مقالات احتلت حوالي 80 صفحة من الكتاب. وأول هذه المقالات قراءة للدكتور حامد فضل الله في كتاب محمد محمود شاويش الموسوم "نحو ثقافة تأصيلية". وقد تسنى لي أن أحضر ندوة عرض هذا الكتاب ببرلين ثم قرأت الكتاب ذاته وكتبت عنه دراسة نقدية واسعة منشورة في موقع الحوار المتمدن ومواقع أخرى. وقد اشتركنا في الموقف من مضمون هذا الكتاب بشكل عام. واختلفنا في بعض جوانبه، إذ قيمته بأنه كتاب يجسد الخشية الكبيرة من الحضارة الغربية رغم اعترافه بمنجزاتها، كما إنه كتاب تعميمي يفتقد الكثير من الموضوعية والعلمية، إنه ذو نزعة صارخة ضد الغرب والحضارة الغربية، كما يبدو لي غاص في الفكر السلفي المتخلف جداً والبعيد عن واقع الحياة المعاصرة والتغيرات الحاصلة في المجتمعات البشرية. إنه نص لا يمت إلى الواقع بصلة ولا يبحث عن ثقافة تأصيلية بل ثقافة سلفية صفراء ويؤكد على إن القرن العشرين هو قرن الاستلاب الفكري والثقافي للعرب من طرف الغرب. وهو خطأ فادح يرتكبه السيد شاويش حسب تقديري. يسجل الدكتور حامد فضل الله ملاحظات ذكية على كتاب السيد شاويش ويذكر النص الآتي ضمن مجموعة من الملاحظات النقدية للكتاب التي أؤيدها: "بالرغم من الغيرة القومية والتباهي بالذات في أكثر من موضع في الكتاب والتمسك الذي يكاد يصل إلى حد التعصب للخصوصية والهوية أحياناً. والأحكام المطلقة دون تبصر مسألة بالغة الخطورة...". وهي السمة الأساسية لكتاب السيد شاويش.

ويتضمن هذا الفصل العديد من الدراسات عن سمير أمين، الاقتصادي المصري المتميز بكتاباته وتنظيراته الجريئة عن الرأسمالية واقتصاديات ومجتمعات الدول النامية وقدراته العلمية الفذة. وقد حاز على جائزة أبن رشد للفكر الحر باستحقاق كبير، وهو شخصية عالمية ومعروف في الأوساط الألمانية، وخاصة التقدمية منها وعلى مستوى المختصين. كما نجد دراسات أخرى مهمة منها عن دور العرب في الحرب الأسبانية ضد الفاشية الفرانكوية وعن السودان والجبهة القومية السودانية ومقال عن الجبهة الإسلامية القومية الانتهازية في السودان بقلم المؤلف د. حامد فضل الله.

أما الفصل الرابع فيتضمن دراسات مهمة لكتاب ألمان عن الروائي السوداني الكبير الطيب صالح تستعرض فيها أهمية هذا الكاتب المقيم في بريطانيا والقادم من أفريقيا السوداء والمالك لزمام اللغة العربية والقدرة على تصوير الأشخاص والولوج في دواخلهم والتعبير عن أفكارهم ومشكلاتهم وأفراحهم وأحزانهم وتقاليدهم وتراثهم الشعبي وطموحاتهم بصدق وأمانة وحرص كبير. وتحتل رواياته الثلاث "موسم الهجرة إلى الشمال" و"عرس الزين" و "بندر شاه" مكانة خاصة في رؤية الكتاب الألمان له وما ترجم من رواياته إلى اللغة

الألمانية. إنها جديرة بالقراءة للإطلاع على كيفية تقييم الكتاب الألمان، بمن فيهم البروفيسورة الدكتورة روتراود فيلاند والبروفيسور الدكتور هانز بيتر كونش والدكتور لودفيج أمان وقراءاتهم لهذا الروائي المتواضع والكبير في آن. وعلينا هنا أن نتذكر الدراسات الأدبية النقدية القيمة التي كتبها وحاضر بها عدد كبير من الأدباء والكتاب العرب في يوم الاحتفاء بذكرى واحد من عباقرة الرواية العربية، الذي دخلت رواياته ضمن القائمة الذهبية لأفضل مائة رواية في تاريخ الأدب الروائي العالمي.(خالد موسى دفع الله، مقدمة كتاب الطيب صالح للأستاذ خالد موسى دفع الله. وقائع ندوة أدبية ببرلين وفاء لذكرى عبقري الرواية العربية الطيب صالح. عزاوي ميديابرنت، برلين. إصدارات سفارة السودان. برلين 2012، ص 7). ومن بين تلك الدراسات نشرت دراسة مهمة للشاعر والأكاديمي والكاتب الأستاذ الدكتور حميد الخاقاني بعنوان الطيب صالح ومعضلة الهوية. وهي تتضمن تحليلاً علمياً وأدبياً قيماً دقيقاً للكاتب ولكتاب "موسم الهجرة إلى الشمال". أما الدكتور حامد فقد كانت له كلمة الافتتاح ثم دراسة بعنون الطيب صالح بعيون الألمان. (المصدر السابق، ص 39-54).

وفي هذا الفصل نلتقي بمقالين للمؤلف الدكتور حامد فضل الله أحدهما يبحث في الكاتب الديمقراطي السوداني المعروف الدكتور حيدر علي إبراهيم وكتاباته القيمة في قضاي الإسلام وحقوق الإنسان والمجتمع المدني الديمقراطي، وعن مجلة "كتابات سودانية" التي كان يصدرها، وخاصة أبحاثه القيمة في قضايا الإسلام والعلمانية وموقفه الثابت إلى جانب حرية الفكر والكتابة النقدية في قضايا الديانات دون قيود أو شروط ومواقفه المدنية أو العلمانية. والمقال الثاني يركز فيه المؤلف على أدب الحوار في نقد بعض الكتابات التي هاجمت كتاب الأستاذ الدكتور محمد محمود الصادر بلندن في العام 2013 والموسوم "نبوة محمد التاريخ والصناعة، مدخل لقراءة نقدية" وهاجمت من كتب عن هذا الكتاب ومنهم الأستاذ الدكتور حيدر علي إبراهيم. وكان الدكتور حامد فضل الله على حق كبير في نقده للدكتور محمد وقيع الله بشكل خاص والسيد خالد موسى اللذين اتهما الكاتب والكتاب من يسانده بالإلحاد، في حين أن الكتاب لم يتطرق لموضوع الإلحاد بأي حال بل استعرض الأحداث والوقائع التاريخية من مراجعها ومصادرها الأصلية. وقد تسنى لي أن اقرأ هذا السفر النفيس وأكتب عنه مقالاً نشر في مواقع الحوار المتمدن وصوت العراق والناس ومركز النور وغيرها. وبسبب خروج بعض الكتاب في نقدهم للدكتور محمد محمود وإبراهيم حيدر عن أدب الحوار كتب الدكتور حامد فضل الله مقالاً تحت نفس العنوان جاء فيه ما يلي: " إن عفة اللسان والتربية واحترام شعور القارئ الذي ربما لم يطلع على مقالات د. محمد وقيع الله تمنعني أن أردد له الكلمات الجارحة والمخجلة التي وصف بها الأستاذين الفاضلين محمد وإبراهيم". ثم يواصل فيكتب "إنني لم التق بعالم يثق بنفسه وعلمه إلا

وكان متواضعاً ومحترماً لرأي الآخر". (ص 306). ونحن نردد دوماً إن "من زاد علمه زاد تواضعه، ومن زاد جهله زاد تعاليه". وهناك حكمة مندائية رائعة تقول: "ويل لعالم لا يمنح من علمه وويل لجاهل منغلق على جهله". إن الاتهام بالكفر والإلحاد سمة المتخلفين والعاجزين عن خوض الحوار والنقاش الفكري الموضوعي، سمة الخاسرين.

وأخيرا يستعرض المؤلف في مقال مهم عن محاضرة "ما بين الباريسي والبدوي" للأستاذ الدكتور جلبير أشقر حول كتابه "صدام الهمجيات"، ومحاضرة الأستاذ أصلان عبد الكريم الذي كان مسجوناً لستة عشر عاماً في سجون الدكتاتورية السورية في عهد الدكتاتور حافظ الأسد. وقد تركز النقاش بين المحاضرين حول دور الماركسية والفكر القومي والبرجوازية الصغيرة في الدول العربية. وقد اختلفا في التقييم والتقويم. لقد تركت سنوات السجن الموحش والظلم الجارح آثارها على رؤية الكاتب السوري **وعلى استنتاجاته الفكرية والسياسية.**

ويتضمن هذا الفصل قراءة المؤلف لرواية صدرت في ألمانيا وباللغة الألمانية للكاتبة غونر ياسمين بالشي، وهي من أصل لبناني وتركي مختلط، تدور أحداثها عن صبي تركي متمرد على المجتمع والتقاليد وناقم ويمارس الكثير من الموبقات ابتداءً من السطو والسرقة إلى ممارسة القسوة في التعامل مع التلاميذ والقضايا الأخلاقية، إلى المخدرات ...الخ وكثيراً ما دخل السجن، إنه صبي عربي شقي يعيش ببرلين. إنها رواية واقعية يأخذ الدكتور حامد على الكاتبة أنها قدمت نموذجاً سيئاً لا يمكن تعميمه فهناك نماذج أخرى حسنة لصبيان من الشرق العربي أو من تركيا وغيرها. ولكن السؤال هو: هل قدمت الكاتبة هذا الصبي نموذجا للصبيان العرب أو الترك في ألمانيا؟ لا اعتقد ذلك. ويفترض أن نقول بأن هذا النموذج موجود حقاً في الحياة اليومية وهي تصف مقطعاً مهماً من حياة جمهرة غير قليلة من حياة الصبيان القادمين من الشرق أو المولودين في ألمانيا ولكنهم يعيشون الحياة الشرقية في بيوتهم وفي الأزقة التي يلعبون فيها مع أقرانهم. وهي لم تقدم صورة نمطية مسبقة الصنع عن هذا الصبي وصبيان آخرين، كما إن الكاتبة لم تعمم هذه الصورة وتركت مجالاً لنماذج أخرى صالحة ومجدة، وهي تمثل الأكثرية. إن الكتابة النقدية عن النماذج السيئة والمخلة ضرورية جداً لإبراز الآثار السلبية لهؤلاء على الموقف من العرب والمسلمين بألمانيا وأوروبا وعلى مستقبل هؤلاء الصبية في المجتمع الألماني شريطة أن لا يصار إلى تعميم هذه الحالة، وكأنها النمط الوحيد الموجود. والكاتب بالشي لم تفعل ذلك.

وأخيراً يطرح المؤلف مجموعة قليلة من القصائد التي قام المؤلف بترجمتها لشعرا عرب وألمان ومنها قصيدة أدونيس وبرتولد بريشت، والأخيرة ذات أهمية كبيرة في فهم طبيعة النظم الاستبدادية. وهي قصائد مختارة بعناية لأهميتها للقارئ والقارئة من الدول العربية. وأخيراً نقرأ مقالاً مهماً للمؤلف عن المريد البرليني للطيب صالح (مفتوناً وراوياً وباحثاً) يتحدث فيه عن رسالة دكتوراه قيمة للباحث أمير أحمد علي ناصر عن الطيب صالح وأدبه وأثر البيئة الداخلية على كتاباته.

أما الفصل الخامس فيتضمن مقالات عديدة للمؤلف تدور حول عدد من أصدقائه وهي مماثلة لما يطلق عليه في الشعر العربي بـ "الإخوانيات". وهي عبارة عن انطباعات شخصية عن عدد ممن رافقه في فترات مختلفة في العديد من المناطق ومنها برلين. يجد القارئ فيها كفاءة وقدرة المؤلف على التشخيص وتسجيل الانطباعات الإنسانية عن علاقاته العامة. وتجد هنا روح المحبة والتسامح والتفاعل مع الأصدقاء، وإذ يبتعد عن النواقص يلتصق بالحديث عن حسنات الأصدقاء، وفي هذا يأخذ بقول الشاعر العربي العباسي بشار بن برد:

اذا كنت في كل الأمور معاتباً **** صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه**

أما الفصل السادس والأخير فيتضمن مجموعة من قصصه القصيرة الذكية في التقاطه للأحداث وقدرته على التعبير المكثف عما يسعى إليه، وهي مستلة من حياته كطبيب سوداني في ألمانيا ومن طرائف الحياة اليومية وما واجهه هو كسوداني عربي أفريقي أسمر البشرة أو غيره في المجتمع الألماني. وقد أعجبت كثيرا بهذه القصص وقرأتها بلذة وابتسامة تحوم على شفتي لصدق ما جاء فيها. إنه كاتب قصة قصيرة يمتلك ناصية فن القصة القصيرة وناصية اللغة والقدرة الباهرة على تكثيف الكلمات لمعاني كثيرة.

ثم يتضمن الكتاب بعض القصص التي كتبها باللغة الألمانية وقد حصدت إعجاب زوجتي الألمانية ومن قرأها من الألمان حسب علمي وتتبعي.

لقد قدم المؤلف كتاباً قيماً عن حياة العرب والمسلمين ومشكلاتهم في برلين وفي عموم ألمانيا وعن القضايا التي تشغل بال العرب والمسلمين والألمان في آن واحد وعن مشكلة الاندماج والمخاوف من الإسلام (Islamophobia) والمسلمين الذكور وقدم تحليلات عميقة لهذه القضايا وحلولاً تستوجب المناقشة والأخذ بالكثير منها لصالح العرب والمسلمين في ألمانيا.

تحية لكاتبنا المبدع ونأمل أن نقرأ له المزيد في المستقبل ونأمل أن يجلب انتباه العرب والمسلمين في ألمانيا وغيرها، إذ إن المؤلف شاهد مهم وكيس وعميق في رؤيته لأحداث العصر الذي نعيشه في ألمانيا وبرلين.

كانون الثاني/ يناير 2014

قراءة في مقالة – صورة الإسلام في ألمانيا –

للبروفيسور الدكتور هاينر بيليفيلد

الكراس: صورة الإسلام في ألمانيا – تعامل الرأي العام مع الخوف من الإسلام

الكاتب : الأستاذ الدكتور هاينر بيليفيلد، مدير المعهد الألماني لحقوق الإنسان/ برلين

الترجمة عن الألمانية : السيدة فادية فضة والسيد الدكتور حامد فضل الله

سنة الصدور بالعربية : تموز / يوليو 2008

الإصدار: المعهد الألماني لحقوق الإنسان / برلين – ألمانيا

المدخل:

يتكون البحث من أربعة أجزاء، كما ورد في مقدمة الكراس (المقالة). يبحث الجزء الأول منه في أسباب التشكك بالإسلام والمسلمين في ألمانيا، ثم يبحث الجزء الثاني في المعايير اللازمة لثقافة حوار علني وفق أسس التنوير، ويطرح الجزء الثالث مفهوم رهاب الإسلام (الرهاب مصطلح يمكن أن يجمع بين الخشية المرضية والعداء للأجانب، وهنا المقصود العداء للإسلام، إسلام فوبيا)، أما الجزء الرابع فيقدم لنا الأستاذ الباحث استنتاجات الدراسة التي توصل إليها حول العلاقة بين المسلمين والألمان في ألمانيا. وهو يرى بأنها تعتبر نموذجاً مماثلاً للعلاقة بين المسلمين وبقية الأوروبيين على صعيد دول الاتحاد الأوروبي . ثم يشخص الزميل بيليفيلد الكيفية التي يفترض أن يكون عليها الحوار والعمل المشترك للوصول إلى المبتغى، إلى علاقة أفضل بين المسلمين والألمان.

لا شك في أن الباحث يقدم لنا دراسة ممتعة ومهمة حقاً حول الأجزاء الأربعة التي بحث فيها، ويساهم بذلك في إرساء بعض المؤشرات المهمة حول الإشكاليات التي تعاني منها العلاقة بين المسلمين من مختلف القوميات وبين الألمان في المجتمع الألماني المتعدد الثقافات، رغم محاولات البعض نفي حقيقة أن المجتمع الألماني أصبح منذ سنوات كثيرة متعدد الثقافات.

أولاً : حول الجزء الأول

في هذا الجزء المكثف من البحث يصف لنا الباحث الأسباب التي يعتقد أنها كانت أو لا تزال تقف وراء نشوء الخوف من الإسلام في ألمانيا، وبالتالي من المسلمين، كنموذج لما عليه الحال في كل أوروبا، ويورد استطلاعاً للرأي يؤكد حقيقة وجود ونمو هذه الها إلي عدة أسباب :

• الظواهر السلبية لسلوك المسلمين في ألمانيا والتي يتجلى بعضها في الموقف من المرأة أو القتل لغسل العار (تطهير الشرف)، ثم الخشية التي تبرز لدى الألمان من تلك الظواهر السلبية على التطور الثقافي الذي أنجز خلال الكثير من العقود المنصرمة في ألمانيا والتأثير السلبي المحتمل على الثقافة الألمانية القائدة Leitkultur في ألمانيا. ومن المفيد أن أشير هنا إلى النقاش المديد الذي خاضه السياسيون والمثقفون الألمان على صفحات الجرائد والمجلات والتلفزة حول الدور القيادي والطليعي للثقافة الأولى، الثقافة الألمانية، في ألمانيا. وقد تبلورت وجهة النظر هذه لدى المحافظين في الحزب الديمقراطي المسيحي والحزب الاجتماعي المسيحي (فريدرك ميرتس ورونالد كوخ)، في حين رفض اليساريون والاشتراكيون والخضر مثل هذا الطرح وأكدوا ضرورة عدم الخشية من الثقافات الأخرى على الثقافة الألمانية، بل لا بد من حصول تفاعل وتلاقح بين الثقافات المتعايشة في ألمانيا.

• الأحكام المسبقة التي يحملها الألمان المسيحيون نحو الإسلام كدين ونحو المسلمين لا تزال تميز، من حيث المبدأ، العلاقة الملتبسة بين الغرب والشرق.

ولا بد هنا من الإشارة الواضحة إلى أن الكنيسة المسيحية عموماً لم تعترف حتى الآن بالدين الإسلامي كدين سماوي لاحق للدينين اليهودي والمسيحي، في حين يعترف الإسلام بالدين اليهودي والدين المسيحي باعتبارهما دينين سماويين سبقا الإسلام. ولكن أراد النبي محمد بن عبد الله أن يكون الإسلام آخر دين كما جاء في القران وأن تنتهي به الأديان السماوية، وأن يوقف أي دعوات لاحقة بأديان سماوية أخرى.

• السعي المتواصل إلى إقامة الكثير من الجوامع في المدن الألمانية والتي تثير مخاوف الألمان لا بسبب تدين هؤلاء المسلمين وصلاتهم فيها، بل خشية من أصوات السماعات التي تنصب على مآذن الجوامع، وخشية من أن تتحول إلى مراكز للدعاية السياسية والعنف وجمع التبرعات وكسب الانتحاريين ..الخ وتنظيم عمليات قتل وتدمير من قبل القوى المتطرفة في ألمانيا.

وهي لا شك مشكلة فعلية يعاني منها الإنسان الألماني ولا يجوز تجاوزها أو إنكار وجودها، خاصة وأن المعلومات تشير إلى عودة الكثير من المتدربين في أفغانستان إلى ألمانيا والذين يرتبطون بتنظيم القاعدة الإرهابي لتنظيم عمليات إرهابية في ألمانيا وأوروبا. وقد تم أخيراً اعتقال البعض منهم في مطار فرانكفورت

بألمانيا.

• أحداث 11 سبتمبر 2001 ونشاط قوى الإسلام السياسي المتطرفة وخشية الألمان في أن تمارس تلك الأفعال الإجرامية في ألمانيا أيضاً أو في عموم أوروبا.

مع صواب ما أورده الأستاذ بيليفيلد في هذا الصدد، أجده غير كافٍ لتحديد أسباب نمو الكراهية والعداء للإجانب المسلمين في ألمانيا، إذ أن تشخيصها الدقيق هو الذي يساعد على معالجتها والخلاص منها. أورد هنا بعض الإضافات لاستكمال الصورة، كما أرى، وهي على النحو التالي:

1. لا تزال الكثير من الجهات الألمانية والأوروبية، بل الغربية عموماً، تذّكر شعوبها عن طريق الأفلام وشاشات التلفزة ومحطات الراديو والصحف والكتب بالحروب الصليبية بين المسيحيين والمسلمين حول القدس، والتي يمكن أن يجدها الباحث في كتاب "صراع الحضارات" للباحث الأمريكي الدكتور صموئيل هنتنكتون. وهي تذكَّر باستمرار بالصراع بين الغرب المسيحي والشرق المسلم. ومثل هذه الممارسات، النظرية والعملية، تترك أثرها المباشر وغير المباشر على ذهن وسلوك المواطن الألماني وعلى المسلم في آن واحد. وعلينا أن نتذكر هنا رد الفعل الأولي بعد أحداث 11/سبتمبر 2001 من جانب الرئيس الجديد للولايات المتحدة جورج دبليو بوش حينذاك، حين أشار إلى، وذكَّر، بالحروب الصليبية، رغم اعتذاره عن ذلك فيما بعد!

2. استمرار فعل الأحكام المسبقة والعامة بشأن الإسلام والمسلمين والقادمة من أجيال واجيال سابقة والتي تعتبر ضمن ما يطلق عليه بـ "الستيريوتوب" أو النمطية في التفكير.

3. التصرفات اليومية التي تمارسها غالبية المسلمين والتي تعبر عن مستوى حضاري وثقافي متخلف عموماً، وليس كل المسلمين المقيمين في ألمانيا أو أوروبا بطبيعة الحال، وتلك التي يمارسها الألمان والتي تعبر عن مستوى حضاري وثقافي متقدم لا بد من إبرازه وعدم التقليل من شأنه، إذ أن تلك الظواهر ترتبط بالحياة والاحتكاك اليوميين. ويجد هذا تعبيره في الجوار (السكن) وفي الشارع وفي العمل وفي المدرسة والجامعة ... الخ.

4. الاحكام المسبقة التي يحملها المسلمون إزاء الألمان والتي لا تختلف عن كونها استريوتيوب أيضاً، والتي تتجلى في سرعة اتهام الألمان بالنازية والعنصرية والفاشية لأقل خلاف يحصل بين مسلم وألماني في الشارع أو في العمل أو في الجامعة، وهو ما يغيظ الألمان بحق ويتنافى مع التصرف الديمقراطي العام للغالبية العظمى من الألمان.

5. الحملات الإعلامية التي تسبق الحملات الانتخابية لمجالس وحكومات المحافظات أو على مستوى

الاتحاد والتي غالباً ما تكون موجهة من بعض القوى السياسية، وخاصة الاتحاد الديمقراطي المسيحي والاتحاد الاجتماعي المسيحي، إضافة لما تثيره بعض قوى أقصى اليمين والأكثر محافظة والنازيين، بشأن الآثار السلبية لوجود كثرة من الأجانب في ألمانيا، سواء أكان ذلك بالنسبة إلى فرص العمل أو الدراسة أو رياض الأطفال أو دور السكن أو الخشية على المستوى الدراسي لطلبة الابتدائية بسبب كثرة الأجانب أو الخشية على "تقاوة" الثقافة الألمانية "الأصيلة" من تأثير وتهجين الثقافات الغريبة أو الأخرى. وهنا يتجلى بوضوح "صراع "الأنا" ضد "الآخر" المحملة بالكثير من الأحكام المسبقة وصورة "الأنا" المعاكسة والمناقضة لصورة "الآخر".

وعلينا أن ننتبه هنا إلى حقيقة أخرى هي أن هذه الخشية من المسلمين لم تقلل من الموقف العام في ألمانيا وفي أوروبا إزاء السامية، وبالتالي لم يحل رهاب أو العداء للإسلام محل رهاب أو العداء للسامية بأي حال، فكلاهما موجود وأن اختلفا من حيث النسبة المئوية والآنية أحياناً أو الخشية من التعبير عن العداء للسامية علناً، ولكن كثيراً ما نلاحظ محاولات جادة لمناهضة السامية من قوى نازية وفاشية ويمينية متطرفة بعينها في ألمانيا، أي مناهضة وجود اليهود في ألمانيا، ومنها تدنيس مقابر اليهود أو رسم الصليب المعقوف النازي عليها ..الخ من الأعمال الإجرامية التي تعبر عن الطبيعة الدنسة لهؤلاء الأوباش عبر التحرش بقبور الموتى.

كما أن علينا أن نتذكر باستمرار إلى أن المجتمع الألماني، كأي مجتمع آخر، يعيش صراعاً داخلياً بين مكوناته الألمانية ذاتها حول الكثير من الأمور بما فيها مكانة وثقافة ألمانيا في العالم، وكذلك الموقف من الأجانب عموماً ومن المسلمين بشكل خاص.

وأذ يذكرنا الباحث بأهمية الأخذ بالاعتبار التباين بين المسلمين والمذاهب المتعددة التي يتبعونها، إلا أنه لم يشر إلى أهمية معرفة البنية الاجتماعية (الطبقية) لغالبية المسلمين التي تعيش في ألمانيا. ومن هنا يمكن الإشارة إلى أن التركيبة الاجتماعية للقادمين المسلمين إلى ألمانيا أو إلى أوروبا بشكل عام منذ أن بدأت هجرة العمل في أوائل الستينيات من القرن العشرين تتوزع على النحو التالي:

1. إن المجموعة الكبرى التي قدمت إلى ألمانيا من الدول الإسلامية، وخاصة من تركيا والدول المغاربية، كانت تنحدر من أصول ريفية وفلاحية وبرجوازية صغيرة فقيرة ومعدمة وعاطلة عن العمل وغارقة في الغيبيات وذات مستوى تعليمي واطئ أو حتى أمية القراءة والكتابة أو ثقافة دينية متدنية وغير متنورة، إضافة إلى المستوى الحضاري العام المتدني لتلك البلدان. وكان الهدف من وراء القدوم هو الحصول على فرصة للعمل وجمع المال والعودة لإقامة المشاريع الخاصة بهم في بلدانهم. واعتبر الألمان أن هؤلاء

القادمين للعمل ضيوف مؤقتون لا غير. لم يتعلم هؤلاء اللغة الألمانية فحسب، وخاصة عائلاتهم، ولم يلعبوا دوراً مهماً في اندماجهم في المجتمع وشكلوا جيتوات في مناطق سكناهم، وأن اختلفت مواقع العمل (الترك نموذجاً).

2. نسبة مهمة من المهاجرين كانت من الجماعات السياسية المثقفة التي عانت من الاضطهاد السياسي في بلدانها وجاءت لتتمتع بالحرية، وهي أقل الجماعات التي كانت أو لا تزال تعاني من مشكلات في هذا البلد.

3. الطلبة المسلمون الذين لا يشكلون ثقلاً مهماَ في ألمانيا بسبب قلة الدارسين والمتدربين من الدول الإسلامية في ألمانيا بشكل عام وبسبب سياسة الهجرة الألمانية المتشددة.

وعلينا أن ننتبه إلى أن السياسة الألمانية لم تنجح حتى الآن في تأمين أسس سليمة وعقلانية لإندماج المسلمين في المجتمع الألماني، وهي بحاجة إلى تعديلات كثيرة وصياغة جديدة واستمرارية من جانب، كما أن القادمين إلى ألمانيا يحتاجون إلى استيعاب طبيعة هذا المجتمع وثقافته وحضارته وما يفترض أن ينتبه له القادمون الجدد وكيف يتم التعامل معهم، وأن يكون على استعداد فعلي للاندماج في المجتمع، وهو لا يعني الانصهار . إن كانوا يريدون العيش بسلام ووئام وعمل في ألمانيا.

لا شك بأن الأسئلة التي وضعت لاختبار مدى أهلية الأجانب المسلمين للحصول على الجنسية الألمانية ليست سوى نظرة متعالية عن واقع هؤلاء الناس وإمكانيات الكثير منهم وراغبة في رفضهم ابتداءَ، وضرورة إدخال من يأتي إلى ألمانيا في دورات دراسية لا لتعلم اللغة الألمانية فحسب، بل وللتعرف على التاريخ والحضارة والتقاليد والأعراف والقيم الألمانية أيضاً.

ثانياً : الجزء الثاني

يتطرق الجزء الثاني من هذا البحث إلى أهمية وضرورة تبني وممارسة "ثقافة حوار تنويري بين المسلمين في ألمانيا والألمان. إذ إن أي حوار جاد ومسؤول بين أتباع الديانات والمذاهب المختلفة يتطلب توفير الحد الأدنى من المستلزمات الضرورية لكي ينتهي الحوار إلى نجاح فعلي وليس إلى تكرار دون أن يخرج بنتائج إيجابية، بل في الغالب الأعم يقود إلى مزيد من عدم التفاهم والفرقة والكراهية. ومن بين أهم تلك المستلزمات نشير إلى ما يلي:

1. الاستعداد الذاتي للقبول بثقافة الحوار التنويري الهادئ والهادف بدلاً من ثقافة النزاع والقتال، أي التخلص من الثقافة التي سادت ولا تزال سائدة في العالمين العربي والإسلامي، ثقافة:

2. الاستعداد الذاتي لقبول فكرة ممارسة النقد المتبادل لا باعتباره تجريحاً أو إساءة متبادلة، بل رأياً ومادة للحوار وقاعدة للوصول إلى نتائج واضحة، سواء باتفاق أو باختلاف في وجهات النظر.

3. الاستعداد للمساومة بما ينسجم مع المبادئ والقيم العامة والشاملة، إذ لا ينفع الإصرار على ما يسمى بالثوابت وبالتالي المراوحة في المكان.

4. وعند الاختلاف يفترض أن يبقى شعار الجميع هو "الاعتراف المتبادل والاحترام المتبادل وعدم الإساءة المتبادلة بأي حال".

5. أي اتفاق يفترض لا يعتبر كسباً لأحد وخسارة للثاني، بل هو نجاح للطرفين بهدف المزيد من التفاعل والتلاقح والتفاهم

حين نتفحص الأسباب التي تقود إلى بروز العداء أو رهاب الإسلام والمسلمين أو نمو ظاهرة الخشية والكراهية أو العداء الصريح للأجانب، يفترض أن نتحرى عن المسؤولين عنه لا في طرف واحد، بل في طرفين أو أكثر، أي يفترض أن نرى كيف تتوزع مسئوليتها على الجهات التالية:

** مسؤولية عملية التربية والتثقيف الخاطئين في ألمانيا، إذ نلاحظ في بعض جوانبهما ديناً كنسياً متعصباً والبعض الآخر قومياً شوفينياً متطرفاً، كما يلاحظ ذلك على دور ونشاط أجهزة الإعلام المسيسة والحزبية في هذا الصدد.

** مسؤولية الدول التي يأتي منها المسلمون، حيث تعاني الثقافة ودور التربية من تخلف شديد في مجال الاعتراف بالأديان الأخرى وعدم احترامها وغياب التسامح الديني في ما بين اتباع مختلف الديانات والمذاهب، إذ لا تسود في غالبية تلك الدول ذات الأكثرية المسلمة مبادئ حقوق الإنسان، بل يسودها الاستبداد وغياب الديمقراطية او وجود ديمقراطية شكلية لا تغني ولا تسمن.

** مسؤولية الدين والمؤسسات الدينية ذاتها حيث أن الدين الكثير من القضايا التي تعتبر حمالة أوجه من جهة، وبعض جوانبه لم تعد ملائمة للعصر الراهن من جهة أخرى، والتي يصر الفقهاء أو تلح المؤسسات الدينية على تكريسها رغم فوات أوانها، مثل "شعب الله المختار" لدى اليهود، و "كنتم خير أمة أخرجت للناس" لدى المسلمين، أو الحق في تغيير الدين غير المحرم في القرآن والمحرم من قبل الفقهاء، على سبيل المثال لا الحصر.

** المسؤولية الفعلية التي تتحملها المؤسسات الدينية وغالبية الفقهاء، إذ أنها كرست مع الزمن الكراهية المتبادلة وعدم احترام الأديان والمذاهب الأخرى ومن ثم العداء غير المبرر.

** مسؤولية المجتمعات التي جاء منها المسلم والفرد المسلم ذاته، بسبب التخلف الاقتصادي واللاجتماعي والثقافي وضعف مستوى الوعي الاجتماعي والديني لدى الفرد والمجتمع وعدم بذلهما الجهد الضروري لتنوير المجتمع والفرد في آن، وإبقاء الذهن مشدوداً لاجترار الماضي السلبي والأحكام المسبقة.

كل هذه الجهات يفترض أن تلعب دورها في تغيير هذه الحالة المرفوضة كل وفق مسؤوليته لضمان العيش المشترك والإنساني بين جميع الناس من مختلف الأديان والمذاهب والقوميات. إذ أن هؤلاء الناس ينقلون ما تعلموه في بلدانهم إلى ألمانيا أو الدول الأوروبية ويتعاملون مع الواقع الجديد بنفس الأسس والقيم والتقاليد السابقة. وهي التي تشكل نقاط احتكاك شديدة ومقلقة للعلاقة بين الطرفين.

لا يمكن لأحد أن ينكر مسألة مركزية تلعب دورها في ثقافة الإنسان المسلم التي يسعى البعض إلى تغييبها، وكأنها غير موجودة أو غير ذات أهمية، ثم يحاول عبثاً أن يرمى اليسار بكونه يتقول على الإسلام والمسلمين. وهو خطأ فادح يرتكبه البعض من الكتاب ومنهم الأستاذ بيليفيلد في كراسه الجديد.

فليس اليسار وحده من درس الأديان والمذاهب، ومنها الدين الإسلامي أو درس القرآن واطلع على السنة والفقه الإسلامي المتعدد الأطراف (الفقه السني بأنواعه، والفقه الشيعي بتفرعاته ..الخ) وتعرف على مختلف جوانبه وشخص بعض النقاط المهمة القابلة للنقد، بل هناك الكثيرون ممن عمل ويعمل على إبراز أهمية نقد الدين، وخاصة حركة التنوير منذ بدء بروزها. فليست العقوبات الجسدية، بما في ذلك الرجم بالحجارة أو قطع الرأس بالسيف، أو ممارسة التعذيب، رغم تحريم المُثلة في الإسلام، أو اعتبار المرأة ناقصة العقل أو حق الرجل بضرب المرأة لتأديبها أو الزواج باربع نساء وما ملكت أيمانكم ...، إضافة إلى وجود مسائل سلبية أخرى غير موجودة في القران ولكنها تستوجب النقد بسبب تشريعها من جانب المؤسسات الدينية وشيوخ الدين، وبالتالي فهذه المسائل هي جزء من الإسلام أو من صورته أمام الألمان والعالم. هذا لا يعني أن الأديان الأخرى ليست فيها مثل هذه الأمور السلبية، إلا أن حركة التنوير هي التي أبعدتها أو خففت من تأثيرها في الممارسة الفعلية. وهذا لا يعني أن الأديان كانت في مختلف مراحلها سلبية، بل هي حركات إصلاحية في مراحل ظهورها، وواقع الإنسان والمجتمع هو الذي استوجب ظهور هذه الأديان بغض النظر عن رأي أو رأي الآخرين بها أو بغيرها من الأديان كالمجوسية والبوذية والهندوسية والكونفشيوسية والتاوية وغيرها.

والتنوير، هذه الحركة التي بدأت ثم توقفت إلى حدود بعيدة في العالمين العربي والإسلامي (ليس هناك توقف كامل ولكن التحول التنويري غير محسوس وبطئ جداً)، عملية سيرورة وصيرورة معقدة وطويلة، ولكن لا مناص منها. ويمكن هنا الإشارة إلى أن عملية التنوير الديني والاجتماعي تهدف إلى إزالة الأخطاء

والتشوش والبلبلة الفكرية والدينية والاجتماعية من ذهن الإنسان والمجتمع واتجاهات تفكيره وسلوكه وإعادتهما إلى الرشد. ويمكن بلورة ما يسعى إليه التنوير بالنقاط التالية، سواء بالنسبة للمسلمات والمسلمين في بلدانهم أم في ألمانيا وأوروبا وعموم الخارج:

• نقد الموروث الديني باتجاهين :

أ) تأشير ما فات أوانه وكان مقبولاً حين طرح لأول مرة من جانب الأنبياء والمصلحين لمجتمعاتهم وظروف حياتهم وعلاقاتهم، ولكن لم يعد مناسباً ومنسجماً مع المرحلة الجديدة التي يمر بها المجتمع البشري أو المجتمعات العربية والإسلامية.

ب) تأشير ونقد ما أضافه شيوخ الدين والفقهاء والمؤسسات الدينية إلى الأسس الأولى التي اعتمدها كل دين من الأديان والتي وضعت لأغراض لا تمت بصلة إلى مضمون الأديان ذاتها. وقد جاء في تعريف الفيلسوف "كانت" للتنوير النص التالي : "التنوير هو خروج الإنسان من اللارشد الذي اقترفه بحق نفسه"، ويمكن أن يضاف إلى ذلك "وما اقترفته المؤسسات الدينية وفقهاء الدين من اللارشد بحق الإنسان".

• تخليص المجتمع من الأفكار البالية والمعتقدات غير العلمية والخرافات والغيبيات التي ألحقت وتلحق أفدح الأضرار بالإنسان ووعيه وعلاقته بالآخر ومن الأحكام المسبقة التي يحملها إزاء الآخر.

• توجيه الإنسان نحو الفكر الحر الديمقراطي والعلمي ورفع مستوى وعيه بالواقع الذي يعيش فيه وبحقوقه وواجباته كإنسان وبحقوق الآخرين المتساوية، والفجوة المتسعة بينه وبين الشعوب الأخرى نتيجة سيطرة تلك الأفكار البالية على ذهنه ووعيه ووجهة تفكيره وسلوكه وأحكامه المسبقة بحق الآخر.

• رفض القبول بأفكار التمييز بين البشر على أساس عرقي أو قومي أو ديني أو مذهبي أو التمييز ضد المرأة وعدم مساواتها بالرجل أو رفض منحها كامل حقوقها ...الخ.

والتنوير يفترض ان يؤدي من عدة جهات بالترافق والتتابع والتكامل، ومنها :

1. من جاني الإنسان الفرد ذاته من خلال نضاله من أجل رفع وعيه ومستوى ثقافته ووعيه بمفهوم الحرية باعتباره إدراك الضرورة، ونضاله مع المجتمع لنفس الغرض والخلاص مما علق بذهنه من أوهام وأحكام مسبقة وكليشهات عفا عليها الزمن. إنها عملية معقدة وطويلة ولكنها ضرورية.

2. من جانب تلك الجهات والمؤسسات التي كرست في وعيه التشوه بسبب حشوها بتلك الأفكار المشوهة والعقائد البالية والخرافات والأساطير التي لا تمت إلى الواقع بصلة، ومنها المؤسسات الدينية على نحو خاص. ولقد سمحت بذلك لبروز وتنامي ظاهرة الاغتراب لدى الإنسان من الدين وعن الدين في آن.

3. من جانب الحكومة التي يفترض أن تسن القوانين والنظم التي تساهم في رفض ما هو قديم وبالٍ

والدعوة لما هو حديث وإنساني متفتح، والتي لم تقم بذلك، بل كرست ما هو مناقض للمطلوب.

4. المثقف الديمقراطي الذي يحمل فكراً حراً ومبدعا قادراً في التأثير المباشر على فكر الإنسان بالشعر والقصة والرواية، بالرسم والنحت والكاريكاتير والتصوير الفوتوغرافي والسيراميك (الفنون التشكيلية ..) والخط والموسيقى والمسرح والسينما، بالعلوم الحديثة وما هو جديد يفرض على الإنسان التخلي عن القديم منطقياً وعلمياً.

5. المؤسسات العلمية، المناهج التربوية والتعليمية في مختلف مراحلها، إضافة إلى منظمات المجتمع المدني، ومنها منظمات حقوق الإنسان.

6. أجهزة الإعلام التي يمكنها بوسائلها التقليدية والحديثة إيصال الفكرة السليمة إلى وعي الإنسان بأسلوب سلس وسليم ومتناغم مع العلم والواقع، والتصدي لكل ما هو مناهض للعلم والواقع.

إن أهمية التنوير تبرز في دوره في تحقيق عدة نتائج أساسية لأي تقدم وتطور لدى الإنسان وفي البلاد التي تؤمن أكثريتها بالدين الإسلامي وللمسلمات والمسلمين الذين يعيشون في أوروبا:

1. احترام مفهوم الحرية الفردية والمجتمع المدني والديمقراطية وفصل الدين عن الدولة واعتبار "الدين لله والوطن للجيمع".

2. مغادرة أجواء الغوص في الغيبيات والخرافات والتقاليد والعادات والطقوس التي ترسخت عبر قرون منصرمة في أذهان الناس وتناقلتها دون التمحيص بها والتخلص منها، والتفتح صوب حياة حرة جديدة واقعية ومليئة بالحياة والحركة والفعل الإيجابي لصالح الفرد والمجتمع.

3. احترام حقوق الإنسان وحقوق المواطنة المتساوية واحترام المرأة واستعادتها حقوقها كاملة غير منقوصة ومساواتها بالرجل واحترام حقوق القوميات والأديان والمذاهب والاتجاهات الفكرية والسياسية غير العنصرية والشوفينية ورفض التمييز بين الأديان والمذاهب الدينية أو أي شكل آخر من أشكال ظهوره وممارسته.

4. احترام حق الإنسان باختيار ما يراه مناسباً له من دين أو مذهب أو اتجاه فكري أو حزب سياسي.

5. الالتزام بقيم وأسس جديدة لحياة الفرد والجماعة والعلاقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات في مجتمع ما وفي ما بين المجتمعات التي تقوم على أسس التعاون المتبادل والمنفعة المتبادلة.

6. احترام وممارسة الثقافة الحرة والديمقراطية بمختلف صيغ تجلياتها الفكرية والاجتماعية والفنية والرياضية وأهمية التفاعل والتلاقح الثقافي الإنساني.

7. أحترام التراث الفكري العربي والإسلامي الإيجابي والنزعات المادية والإنسانية فيه والتخلي عن السلبي والعدواني الذي علق به عبر القرون المنصرمة.

8. رفض العدوان وأفكار الجهاد والفتح وما إلى ذلك من مخلفات القرون المنصرمة والكف عن تقسيم العالم إلى "ديار حرب وديار سلام"، وبتعبير أدق "ديار الكفار وديار الإسلام". وهي الموضوعة التي تتشبث بها القوى السلفية المتطرفة وأغلب الجماعات الإسلامية السياسية المتطرفة، ومنها تنظيم القاعدة مثلاً.

9. القبول بالدساتير الأوروبية باعتبارها تكرس الأسس التي تستند إليها حقوق وكرامة الإنسان والمجتمع، وان لا تختلط مع الشرائع الإسلامية العديدة وفق المذاهب الإسلامية المختلفة. وهو الطريق العملي للاندماج بالمجتمع الألماني أو الأوروبي بشكل عام.

إلا أن عملية التنوير لا تتم بشكل عفوي، بل تتطلب عملية تغيير فعلية وجادة للواقع الاقتصادي والاجتماعي للناس وللبلدان التي يعيش فيها المسلمون والمسلمات والتي بدورها تساعد على نشوء قيم ومُثل وتقاليد جديدة ووعي اجتماعي وديني جديدين لا يمتان إلى الماضي بصلة إلا بقدر قناعة الإنسان بعقيدة دينية أو فكرية أو بما هو إيجابي من تاريخ الإنسان ومجتمعه.

علينا أن نتذكر باستمرار بأن تخليص الشعوب من التقاليد والعادات والطقوس البالية، وخاصة ما تكرس عبر الدين والمؤسسات الدينية وعبر الزمن وإجراء تغييرات جدية على ثقافتها وتطوير حضارتها ليس بالعملية السهلة والسريعة، بل هي الأكثر تعقيداً من أي عملية أخرى في المجتمعات المختلفة وتستغرق وقتاً طويلاً.

ثالثا : الجزء الثالث

وفي هذا الجزء من البحث يتطرق الباحث إلى "الحدود الشائكة بين نقد الإسلام والعداء للإسلام". ويصيب الهدف المناسب حين يؤكد دور القوى الإسلامية المحافظة والمتطرفة في تنشيط العداء للإسلام والمسلمين حين لا يميزون بين النقد، الذي يمارسه المجتمع الأوروبي إزاء الأديان والمذاهب، وبين التجريح المتعمد من أجل الإساءة للإسلام وكرامة الإنسان المسلم. فالأول مقبول والثاني مرفوض طبعاً.

يشكل النقد قاعدة أساسية ومنطلقاً للتقدم والتخلص من الجوانب السلبية في مسائل الدين أو العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبدون ذلك يتعذر إحراز التقدم والتحسن والتغيير لدى الفرد والمجتمع أو في ممارساته وطقوسه الدينية. ولكن التربية الاجتماعية والدينية من جانب المؤسسات الدينية وشيوخ الدين تؤكد إن الإسلام، وبالتالي المسلم، يمتلك كل الحقيقة، كانت ولا تزال هذه الخطيئة الكبيرة لا تقود إلى التعالي فحسب، بل وإلى ارتكاب أخطاء فادحة تترتب عليها وعنها عواقب سلبية كثيرة وتؤجج الصراعات والنزاعات. ومن هنا يصعب على الكثير من المسلمين تحمل النقد الموضوعي الذي يوجه للإسلام وتعتبره تجريحاً، وهي

تتعمد توجيه مثل هذه التهم الزائفة بأمل منع تكرار ممارسة النقد أو الاستمرار به، أو أنهم يسعون إلى إثارة الناس البسطاء ضد حرية الرأي والتعبير عنها، وهو ابتزاز لا يجوز القبول به أو الرضوخ له. فالبحث والتدقيق والمراجعة المستمرة بشأن ما يثار حول عدد نساء النبي محمد مثلاً ونقد صور من حياته المنقولة عنه والمنسوبة إليه أمر بالغ الأهمية، إذ لا بد من معرفة العوامل الكامنة وراء مثل هذه الزيجات المتعددة في تلك الفترة وما التفسير الذي يطرحه شيوخ الإسلام، وما هي حقيقة المسألة، لأن في مثل هذه الدراسات محاولة جادة لاستخلاص الدروس وتصحيح السلوك في المرحلة الراهنة من جهة، ومنع وضع محرمات على النقد إزاء هذه الشخصيات الدينية المصلحة والكبيرة من جهة أخرى. الإسلام والمسلمون بحاجة إلى نقد صريح وشفاف وعقلاني، ولا يحتاجون إلى المجاملة والسكوت عن النواقص والأخطاء التي لديهم، كما لا يحتاجون ولا يريدون التجريح او الإساءة لهم.

لا يجوز القبول بهذه الحساسية المغالية لدى المؤسسات الدينية الإسلامية ولدى المسلمين، بل لا بد لهم أن يتعلموا اسس التعامل في ما بين البشر من ديانات ومذاهب مختلفة، وأن يتعلموا سماع النقد والاستفادة منه، حتى لو كان رسوماً كاريكاتيرية، والغضب والكراهية يعنيان العجز عن الحوار والنقد المتبادل والبرهنة على العكس ويقودان إلى الاقتتال.

ليس من السهل وضع حدود فاصلة بين النقد والتجريح في عالم يتمتع بالحرية الفردية والحق في التعبير ونشر الرأي، إذ من حق الآخر أن يمارس النقد والرد ولكن وفق ذات الأسس التي مارسها الأول وليس بحمل السلاح والتظاهر والتخريب وتدمير المؤسسات الثقافية والسفارات والدعوة للمقاطعات أو وضع الحد عليه،اي القتل. كما توجد محاكم مستقلة في مقدورها أن تنظر وتصدر أحكامها إذا ما نشأت خلافات ومشاعر بالتجريح الشخصي بسبب مقال أو صورة كاريكاتيرية أو كتاب ...الخ.

لنورد هنا مثلاً على سوء التعامل مع الفكر والأدب من جانب كثرة من الفقهاء والمسلمين والمؤسسات الدينية. فرغم أن كتاب سلمان رشدي (آيات شيطانية) لا يرقى إلى مستوى الأدب الجيد والرواية الناضجة والمتماسكة، ولكن كان من حقه أن يمارس الكتابة، ولكن ليس من حق أحد أن يحل دمه ويطلب قتله أياً كان ذلك المسلم وأياً كانت منزلته الدينية في العالم. إذ كان في مقدور أي شيخ دين، بمن فيهم الراحل روح الله الخميني، رفع دعوى قضائية ضد سلمان رشدي حول كتابه "آيات شيطانية" بدلاً من تلك الضجة المفتعلة التي أثيرت دون مبرر وأعطت للكتاب قيمة أكبر وطلباً أكبر من قيمته الفعلية وزادت من رغبة الاطلاع عليه (الإنسان حريص على ما منع). على المسلمات والمسلمين أن يتعلموا التعامل مع النقد بروح حضارية جديدة وبعيداً عن الاستفزاز والشعور بالغضب والإساءة والرغبة بالانتقام. النقد هو النور الذي

يهدينا إلى طريق الصواب، وهو طريق التواضع والتعلم!

رابعاً : الجزء الرابع

يتضمن هذا الجزء الأخير بعض الاستنتاجات المهمة التي توصل إليها الباحث الدكتور بيليفيلد من خلال دراسته التي هي تلخيص وتكثيف وبلورة لما سجله في كتبه السابقة في هذا الصدد. ولا شك في أن وجوده على رأس المعهد الألماني لحقوق الإنسان أسهم في بلورة رؤية حقوقية سليمة تستند إلى مبادئ لائحة حقوق الإنسان وحقوق المواطنة في تعامله مع وجود الأجانب في ألمانيا. وهو يوزع المسؤوليات في ما يحصل على جهات كثيرة وبشكل صائب ويطالب الحكومة الألمانية والمعنيين إلى تغيير الكثير مما يمارس اليوم في ألمانيا من أجل إزالة التمييز إزاء الأجانب عموماً، والمسلمين على نحو خاص، لأنهم أكثر عرضة للتمييز من الأجانب القادمين من دول ذات أكثرية مسيحية مثلاً.

حين يطالب الكاتب من الألمان أن يكونوا أكثر حرصاً على التعامل مع المواطن أو المهاجر من قومية ودين آخر، لا بد له أن يطالب المسلمات والمسلمين ومن كل الأجانب أن يتعاملوا مع الواقع والثقافة والحضارة الألمانية بشكل سليم أيضاً، وأن يكونوا أكثر حساسية في التعامل مع العادات والتقاليد والطقوس التي يلتزم بها الألمان أيضاً. ولكن أكثر تلك الأمور إلزاما بالنسبة للمسلمات والمسلمين فهي:

1. تعلم اللغة الألمانية بما يسمح بالتعامل والتفاعل مع الحضارة والثقافة والمجتمع الألماني.

2. التزود بالثقافة الألمانية باعتبارها ثقافة حية ومتقدمة ومتطورة من جهة، والسعي لوعي أهمية التلاقح الثقافي مع الثقافة التي يحملها المواطن أو المهاجر الأجنبي المسلم في ألمانيا من جهة أخرى.

3. إن هذين العاملين يساعدان دون أدنى ريب على ضمان الاتصال المستمر بالألمان وبالتالي يسمح بالاندماج الفعلي في المجتمع الألماني. وهذا لا يعني الانصهار بالمجتمع الألماني، إذ أن الاندماج شيء والانصهار شيء آخر.

4. إن أول مستلزمات المواطنة، بغض النظر عن قومية أو دين أو مذهب أو اتجاه فكري وسياسي، هو الالتزام بالدستور المقرر في البلاد. إن هناك الكثير من الألمان الذين يختلفون مع بعض مواد الدستور، ولكن ليس من حقهم رفضه أو عدم الالتزام به، ولكن من حقهم النضال الديمقراطي المشروع من أجل تغيير تلك المواد التي لا يريدونها أو يريدون صياغتها بصورة أخرى. وهذا الحق مضمون للمواطنات والمواطنين المسلمين أيضاَ، ولكن وفق الشرعية الدستورية واحترام قوانين البلاد.

5. احترام التقاليد والعادات والأعراف الألمانية، وهذا لا يعني الأخذ بها، فهي خاصة بالشعب الألماني ولا

يجوز لأي فرد الإساءة إليها، ولكن من حق كل فرد نقدها بطريقة مناسبة إن وجد أنها متخلفة أو غير مناسبة للعصر الراهن أو لأي سبب آخر. ولكن عليه أن يتحمل النقد الذي يوجه لتقاليده وعاداته وطقوسه ...الخ أيضاً، إذ أن شارع النقد يسير باتجاهين وليس باتجاه واحد.

6. الابتعاد عن اتهام الألمان، مع أول خلاف ينشأ معهم بالفاشية والنازية أو العنصرية. فالمجتمع الألماني الراهن غير مجتمع الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، رغم وجود نازيين جدد وفاشيين ومحافظين يمينيين متطرفين في كرههم للأجانب أياً كان ذلك الأجنبي، ولكنهم لا يشكلون سوى أقلية صغيرة جداً جداً وغير مؤثرة في الحياة العامة للمجتمع الألماني.

7. لا يجوز للمسلمين المبالغة في المطالبة بإقامة جوامع في المدن ألألمانية، كما يفترض الكف عن نصب مكبرات الصوت فوق المآذن أو استخدام الجوامع للعمل السياسي والديني المتطرف، كما حصل في الأعوام السابقة.

8. لا أرى صواب الادعاء بأن الألمان قد تحولوا من العداء للسامية صوب العداء للإسلام. إن العداء للسامية موجود في ألمانيا، كما هو موجود في أوروبا، وفق تقديرات "المركز الأوروبي لرصد التمييز والعداء للأجانب في فيينا"، وأنه كان في السنوات الأخيرة في تزايد نسبي واضح. كما أن العداء للأجانب عموماً وللمسلمين على نحو خاص موجود هو الآخر، وهو آخذ بالتزايد أيضاً، وليس على حساب بعضهما الآخر، كما تدعي بعض المؤسسات الدينية الإسلامية في ألمانيا.

9. لا بد من الاعتراف من جانب الألمان بأن بلادهم الجميلة والمضيافة أصبحت منذ أكثر من عقدين من السنين متعددة الثقافات، وفي هذا إغناء للمجتمع الألماني وللثقافة الألمانية، كما أنها إغناء للثقافات الأخرى القادمة من شعوب أخرى عبر المهاجرين. ويسمح هذا اللقاء الإنساني والثقافي بالتلاقح المغني للجميع وليس في هذا أي خطر على الثقافة الألمانية أو نقاوتها، إذ ليست هناك ثقافة في العالم نقية وخالصة من تأثير الثقافات الأخرى.

10. ولا بد من الإشارة هنا إلى مسألة أساسية غالباً ما تنسى من جانب السياسيين المحافظين واليمينيين الألمان، وهي أن المجتمع والاقتصاد في ألمانيا بحاجة إلى الأجانب، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم لأربعة اسباب جوهرية، وهي :

أ. الاقتصاد الألماني بحاجة إلى أيدي عاملة رخيصة ومستعدة للعمل في كل الفروع الاقتصادية التي لا يرغب الألمان العمل فيها.

ب. وان هذه المجموعة الكبيرة من البشر الأجانب التي يقدر تعدادها بحوالي ثمانية ملايين إنسان من

مجموع 82 مليون مواطنة ومواطن في ألمانيا (عدا من تجنس بالجنسية الألمانية من الأجانب) تساهم في إغناء الناتج المحلي الإجمالي والدخل القومي الألماني وفي تشغيل الكثير من الأيدي العاملة في مشاريع صغيرة ومتوسطة، كما أنها تساهم في استهلاك المنتجات الألمانية.

ت. وأن الهرم السكاني في ألمانيا لا يعكس فتوة، بل أن الهرم لا يسير لصالح نمو إيجابي للمواطنات والمواطنين الألمان، في حين أن الهرم السكاني للأجانب في ألمانيا بتسم بالفتوة، ويساهم في زيادة الولادات والنمو السكاني المطلوب، سواء عبر الزواج المختلط أم في ما بين الأجانب أنفسهم، وفي هذا تحسين مستمر للهرم السكاني الألماني.

ث. وأن هذه الجاليات الأجنبية التي تعيش في ألمانيا تساهم في تطوير وإغناء العلاقات بين ألمانيا وبلدان المنحدر الأصلي ليس من الناحية السياسية حسب، بل ومن الناحية الاقتصادية، بما فيها الجوانب التجارية والمالية والتقنية، والناحية الثقافية على نحو خاص.

وأخيراً لا بد من الإشادة بالترجمة الممتازة والدقيقة لهذا النص الفكري الألماني القيم والمعقد من جانب السيدة الفاضلة الكاتبة فادية فضة والصديق الفاضل والكاتب السيد الدكتور حامد فضل الله.

برلين في 2008/10/11

قراء في كتاب

نحو ثقافة تأصيلية - البيان التأصيلي –

للكاتب محمد محمود شاويش

اسم الكاتب: محمد محمود شاويش

اسم الكتاب: نحو ثقافة تأصيلية (البيان التأصيلي)

دار النشر: الدار العربية للعلوم ناشرون

سنة انشر: 2007

عدد الصفخات: 270 صفحة

الجزء النظري

حضرت ندوة عقدت في برلين قدم فيها الأخ والصديق الدكتور حامد فضل الله قراءة نقدية لكتاب السيد محمد محمود شاويش الموسوم "نحو ثقافة تأصيلية، البيان التأصيلي" الصادر عن دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع في دمشق في العام2007. وقد كانت الدراسة النقدية التي قدمها الدكتور فضل الله قيّمة حقاً في رؤيتها لنقاط الضعف والخلل الجوهرية الواردة في الكتاب، سواء أكان ذلك في ما يمس الجوانب النظرية أم الجوانب التطب يقية من القضايا المطروحة. وقد نشر المقال في موقع الكلمة الإلكتروني. كما قُدمت ملاحظات نقدية جوهرية من جانب الأخ الدكتور نبيل بوشناق، وخاصة في ما يخص قضايا الاستبداد وحقوق الإنسان التي أغفلها الكاتب كلية في كتابه المليء بالحنين للماضي الذي لن يعود، إضافة إلى ملاحظات كثيرة أخرى من بعض الحاضرين الآخرين. وبما أني لم أكن قد قرأت الكتاب، ولم يتسن لي إبداء كل الملاحظات التي تكونت لدي عن مضمون الكتاب أثناء القراءة النقدية له، فقد قررت استعارة الكتاب

والبدء بمطالعته والكتابة عنه بصورة أكثر دقة وتدقيقاً. وقرأته فعلاً بإمعان وتكونت لدي الملاحظات التالية التي يمكن أن تفتح نقاشاً حول أفكار الكاتب ونقاده.

الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات نشرت في فترات متباينة في الصحافة العربية تم جمعها من قبل الكاتب ثم كتب لها مقدمة عامة بما يساعد على منحها خيطاً واحداً يشدها في فكر ديني شديد المحافظة والحنين، حيث يبدو أن الكاتب يعيش الماضي في الحاضر ويسعى إلى استعارة فكر الماضي واستعادة الماضي بحذافيره الذي فات ولن يعود، فهو لا يسبح في كتابه هذا ضد تيار حركة التاريخ، بل ضد الحقائق القائمة على الأرض، وهي صخور صلدة تحطم رأس من يصطدم بها، كما يقول المثل الإنجليزي.

وزع الكاتب السيد محمد محمود شاويش جهده على قسم عام سماه "البيان التأصيلي" والذي يتكون من تسع موضوعات موزعة على سبع صفحات تقريباً، وعلى قسم تطبيقي احتل 97 % من حجم الكتاب عدا المقدمة التي كتبت من أخيه السيد الدكتور حسين شاويش . سأقتصر في مناقشتي لأفكار الكاتب على المقدمة العامة من الكتاب، التي اعتبرها الكاتب القاعدة النظرية لتحليلاته اللاحقة، إذ أن الأخ الدكتور حامد فضل الله منح القسم التطبيقي جل اهتمامه وأوفى، رغم كل الجهد الذي بذله، إذ كان قد ارتدى الزميل قفازاً حريرياً حين سجل ملاحظاته كي لا يثير الكاتب، كما عبر عن ذلك أحد قارئي الكتاب. ورغم جدية النقد بقى الكثير من الأفكار، التي تعود لعصور سالفة، الذي يفترض نقده، إذ أن أفكار هذا الكاتب الفاضل تشكل، كما أرى، خطراً على أذهان الشبيبة وسعيها لبناء حياة جديدة متقدمة وسعيدة. لا شك في أن لكل كاتب الحق والحرية الكاملة في التعبير عن وجهات نظره، ومن حقنا الكامل ممارسة النقد لها. واحترام هذه الحرية المشتركة وهذا الحق المتبادل واجبنا جميعاً، إذ بدون ذلك لا يمكن أن نتقدم خطوة جادة نحو الأمام لصالح الثقافة والتقدم الثقافي والاجتماعي في عالمينا العربي والإسلامي وفي عصر العولمة والثورة المعلوماتية.

الموضوعة الأولى:

طرح السيد شاويش في موضوعته الأولى مجموعة من الأحكام المطلقة التي، وفق رأيه، لا يرقى إليها الشك ولا تقبل النقض، ضمن مجموعة من الأحكام المطلقة الأخرى التي سنتعرض لها تباعاً. فماذا تتضمن هذه الموضوعة؟ إنها تتضمن ما يلي:

1. أن الإسلام هو الخيمة الأخيرة لا للأمة العربية، إذا أرادت أن لا تندثر، بل إنه الخيمة للبشرية كلها.
2. إن البشرية جمعاء تسير بفرعنة لا مثيل لها صوب الهاوية.

3. وأن الإنسان يعبد المادة أو القوة والعمل، في حين أن عليه أن يعبد الله.

وينتهي من هذا الطرح إلى مقولة قديمة جديدة واسطوانة مشخوطة يحملها "الأخوان المسلمون" معهم دوماً ويروجون لها أبداً ومفادها أن "الإسلام هو الحل". ولكنه لا يكتفي بما يقوله الأخوان المسلمون، بل يزيد عليه، بأن هذا الحل ليس للمسلمين فحسب، بل هو للبشرية كلها!

ماذا يعني ذلك؟

1. **إنه يعني دون أدنى ريب رفضاً قاطعاً لكل الأديان الأخرى واستفزازاً مباشراً وإثارة متعمدة لأتباع الديانات الأخرى في العالم، وهو حكم عاجز عن الصمود أمام الواقع القائم. كما أنه مطالبة غير مباشرة إلى اعتبار الأديان الأخرى تساهم في انهيار البشرية وهلاك البشر، وأن أمام البشرية كلها قارب نجاة واحد وحيد هو الإسلام.**

2. **أن البشرية كلها تقف على شفا هاوية وانهيار كامل واندثار أيضاً. ولكن هل هذا التصور حقيقي أم ادعاء باطل؟ فهو لا يبذل الجهود للتدليل على ذلك، فبالنسبة له حكم مطلق لا يقبل النقض.**

3. **ومثل هذا الطرح يذكرنا بمقولة كارل ماركس حيث يستخدم الدين وعبادة الله كأفيون للشعوب، للكادحين، لفقراء البشرية، وليست للأغنياء من الناس، فلهؤلاء الفقراء السعادة في الجنة وللأغنياء السعادة في الحياة الدنيا.**

4. **إن هناك خلطاً فاضحاً بين العلم وامتلاك القوة العلمية وبين عبادة الله. فشعوب الدول الغربية التي استطاعت تطوير العلم والتقنيات الحديثة وتحقيق الثورة المعلوماتية مؤمنة، والبعض منهم مسلم أيضاً،ولكن أغلبهم يدين بدين آخر، كما هو الحال في الدول الأوروبية والولايات المتحدة وكندا واستراليا وغيرها من الدول. وروح هؤلاء الناس غير فاسدة، بل طيبة ونقية، كما هي روح أي إنسان آخر في العالم، بل الروح الفاسدة هي في أولئك الذين يرون أن روح الناس في الغرب فاسدة أو بلا روح. المسيحي والمسلم واليهودي والصابئي المندائي والهندوسي والبوذي والكونفشيوسي والمجوسي كل منهم له دينه الذي يدين به وعلينا احترام كل تلك الأديان وغيرها، وأن لا نتهمهم بأنهم بلا روح ويدفعون البشرية إلى الاندثار لأهم غير مسلمين، بل هم يساهمون أكثر من المسلمين في الوقت الحاضر في تطوير حياة وسعادة الإنسان، رغم ما في هذا العالم أيضاً من جور وظلم وفقدان العدالة الاجتماعية، وأكثر تلك المظالم نعيشها في العالمين العربي والإسلامي. ويكفي أن نلقي نظرة على النظم العربية لنعرف ما يجري فيها!**

ولكن السيد محمد شاويش لا يقدم لنا كيف يمكن أن يكون الإسلام هو الحل لكل مشكلات البشرية وكيف يمكن أن يعالج موضوعات الحاضر والتقدم التقني. كما لم يقدم لنا الأسباب الكامنة وراء احتمال اندثار الحضارة العربية والإسلامية وحضارة الإنسان والإنسان كله. إنه حكم لا يستند إلى قاعدة مادية يمكن أن تقبل، فهو كمن يقول لك هذا حكم الله والله موجود فلا تناقش، النقاش هنا محرم. الإسلام هو الحل،ولكن كيف؟ ولماذا لم يستطع أتباع الإسلام التغلب على الواقع الراهن حتى الآن، وهم يعيشون في عدد كبير من الدول العربية وغير العربية؟ هل يمكن أن نعزو كل ذلك للاستعمار، أم إلى التخلف الفكري والعلمي الذي يعيش فيه المسلمون وبسبب غياب التنوير في المجتمعات الإسلامية؟ ألا نلاحظ أن الفقه الإسلامي قد تخلف حتى عما كان عليه في زمن صاحب الدعوة الإسلامية محمد بن عبد الله؟ إن الإسلام هو الحل ليس سوى انغلاق حقيقي على الفكر والعلم على الصعيد العالمي، وتصدٍ لأي تلاقح فكري وحضاري مع الفكر والحضارة الجارية على الصعيد الدولي، وهي الدعوة التي يروج لها السيد شاويش خشية منه على نقاوة الفكر والثقافة الإسلامية والعربية، وهو أمر سيقود إلى مزيد من التخلف والجمود والتقوقع الثقافي والحضاري، وهو ما ترفضه قوانين التطور الاجتماعي التي يستهين بها وبحركتها وفعلها ونتائجها السيد شاويش.

إن الإسلام دين كبقية الأديان في هذا العالم، ومن حق من يؤمن به أن يدعو له، ولكن لا على أساس فرضه على الشعوب الأخرى وبهذه الطريقة المسيئة إلى بقية الأديان التي يدعو لها السيد شاويش.
الموضوعة الثانية:

في موضوعته الثانية يفترض السيد شاويش "جازماً" بأن البشرية كلها تسير صوب الإسلام، وهو حكم مطلق. لهذا يرى بأن على المسلمين أن يبعدوا حضارتهم وثقافتهم عن التلاقح مع حضارة الغرب باعتبار الحضارة الغربية الإنسانية الحديثة أفعى تريد التهام بقية الحضارات والثقافات وكذا الهويات الثقافية للشعوب الإسلامية، وخاصة العربية. وفي الوقت نفسه يرى أن الحضارة الغربية سائرة إلى الانهيار والزوال، ومع ذلك يخشاها ويخشى تأثيرها كما يخشى الفأر من قط متربص له. ويرى، أن أصحاب الحضارة الغربية هم الذين يقولون ذلك، لأن لا علاج لهذه الحضارة من الانهيار، حتى الماركسية باعتبارها كانت آخر علاج لها لم ينفعها ولم ينقذها من مصيرها، وبالتالي عليها أن تسير صوب الإسلام، وإلا فالموت نصيبها لا محالة. لا بد لي أن أشير هنا إلى الملاحظات التالية:

إن زميلنا الطيب، رغم عيشه الطويل في أوروبا، لم يع حتى الآن مفهوم الحضارة ومكوناتها واتجاهات تطورها، لم يمسك بجوانب قوتها وضعفها والأسباب الكامنة وراء تطورها المتسارع. لقد أخذت هذه الحضارة من الشرق الشيء الكثير، لقد أخذت الديانتين اليهودية والمسيحية، وبعضهم أخذ الإسلام أيضاً، كما استفادت من الديانات الوضعية الأخرى كالهندوسية والبوذية وغيرهما، ولكنها طورت هذه

الديانات عبر عمليات التنوير المعروفة من جهة، كما استفادت من حضارة الشرق الأخرى، ومنها ما وصلها من الدولة الأموية والدولة العباسية على نحو خاص ومن الدولة الفارسية والعثمانية من جهة أخرى، ودفعت بذلك إلى المزيد من التطور والتقدم لحضارتها الغربية. لا شك أن ليس كل شيء في هذه الحضارة طيب، ولكن لا مجال للمقارنة بين استمرار تخلف حضارتنا الراهنة وبين استمرار تقدم حضارة الغرب، التي هي جزء من حضارة المجتمع البشري. لقد خرجت أوروبا من ظلمات القرون الوسطى إلى النور، أما نحن فقد دخلنا منذ القرن الحادي عشر الميلادي، ولكن بشكل خاص منذ سقوط بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي (1258) بيد جيوش هولاكو الغازية حتى الآن، إلى حياة التخلف والتقهقر ولم نتقدم كثيراً، رغم أن الحضارة الغربية قد ساهمت بكسر الكثير من القيود التي كانت تقيد شعوبنا ولكنها ما تزال ضعيفة بالقياس إلى ما ينبغي أن يحصل.

5. **والرجل، كما أرى، عاجز عن إدراك حقيقة أن كل ثقافة في بلد ما لا يمكن أن تكون ثقافة نقية، بل هي متلاقحة مع ثقافات شعوب أخرى، ولكنها تشكل مع بقية الثقافات ثقافة وحضارة البشرية بكل تنوعاتها وتفاعلاتها والتبادل والتلاقح في ما بينها.**

6. **ويرى بأن الماركسية قد سقطت بسقوط الدول الاشتراكية في أوروبا أو في غيرها من الدول، ولا يريد أن يعي بأن الانهيار قد أصاب نظماً وتجارب بعينها، تلك التي تبنت قولاً الماركسية وعجزت عن وعي مضامينها. ولهذا راح يترحم على المادية الجدلية والتاريخية، كما فعل نوربرت بلوم حين ترحم على الماركسية وأراد دفنها. الماركسية، أيها السيد الكريم، نهج فكري مادي ديالكتيكي (جدلي) ومادي تاريخي، وليست نظرية جامدة راكدة متشرنقة. وبالتالي، مع تغير الزمان والمكان تتغير النظرية ذاتها باستخدام المنهج العلمي في التحليل والعمل من أجل التغيير. الدول الغربية بدأت تدرس من جديد كتاب رأس المال لأنه السفر العالمي الذي كشف عن خبايا الرأسمالية، نقاط قوتها ونقاط ضعفها، كما وضع أسس التغيير المستقبلي لها. ويبدو لي أن الكاتب السيد شاويش مغرم بالأحكام المطلقة التي لا يكلف نفسه جهد إثبات ما يطلقه من أحكام، وهو موقف شكلي ميتافيزيقي لا غير، لا يعتمد الرؤية الجدلية للأفكار التي يطلقها.**

الموضوعتان الثالثة والرابعة:

وتحدث هنا الكاتب عن المطلق والنسبي، ولكنه عجز هو نفسه عن ممارسة هذا التمييز في كتابه الموما إليه، فكل أحكامه كانت مطلقة وليس فيها أية رؤية نسبية للأفكار التي طرحها. ثم يتحدث عن التأصيل وتمييزه عن الأصولية الغربية، ولكنه نس بأنه استخدم التأصيل هنا بمعنى السلفية المغرقة بالمحافظة لا غير، رغم الادعاء بأن التأصيل يرتبط بالواقع الجديد ويتأثر به. وهو يتهم الغرب والحضارة الأوروبية بالنزعة المتمركزة على الذات، وهذا الاتهام ليس كله دون أساس لدى جمهرة من الكتاب

الأوروبيين، ولكنه نسى أن الفكر الوارد في الكتاب انبطاح كامل أمام النزعة المتمركز على الذات الإسلامية السلفية وبأعتى صورها وأشكال ظهورها، فماذا يعني "الإسلام هو الحل" غير ذلك، والإسلام هو الخيمة الأخيرة للبشرية كلها ليس سوى رؤية بعين واحدة، حيث كانت العين الأخرى مسدودة تماماً.
الموضوعتان الخامسة والسادسة :

بحث موضوعته الخامسة في الصحوة الإسلامية الكبرى ... السؤال المنطقي الذي يواجه كل ذي إنسان هو : هل نحن أمام صحوة إسلامية حقاً، أم نواجه ردة فكرية وسياسية واجتماعية وحضارية لا مثيل لها في العالم الإسلامي منذ قرون طويلة؟ ألسنا نواجه استخدام أساليب فاشية في فرض رأي جماعات إسلامية متطرفة وهمجية على المجتمع العرب والإسلامي والعالم؟ فهل هذه يا سيدي الكريم صحوة إسلامية أم توحش لا مثيل له؟ لقد عجز النهضويون من العرب والمسلمين عن إخراج المسلمين من الظلمات إلى النور عبر عملية تنوير دينية واجتماعية، وهم الذين يرى فيهم السيد شاويش أنهم قد أساءوا للإسلام لأنهم لم يتنكروا لما تحقق في الغرب من تقدم حضاري، ويدعي أنهم كانوا في انبهار تام من تقدم الحضارة الغربية. ألم يكن هؤلاء النهضويون محقين في المقارنة بين أوضاع بلدانهم وشعوبهم المتخلفة وبين أوضاع بلدان وشعوب الغرب المتقدمة؟ تصوروا إلى أي مستوى وصل فكر الأخ شاويش بحيث يتهم محمد عبده وصحبه بأنهم قد أساءوا للإسلام والأمة الإسلامية! إنها لجرأة مخجلة أن يوجه الرجل مثل هذا النقد لأولئك الأوائل الذين حاولوا دفع العرب والمسلمين إلى مواقع أفضل وأكثر تقدماً، في حين يريد الكاتب دفعهم إلى مواقع أكثر تخلفاً وبؤساً وفاقة فكرية وثقافية وحضارية.
لقد أخذ اليهود والمسيحيون من الحضارة العراقية القديمة ومن الحضارة المصرية القديمة الكثير، وأخذ العرب والمسلمون القدامى من تلك الحضارات ومن اليهود والمسيحيين أيضاً، فما العيب في ذلك من جهة، وما أهمية ذلك للمجتمع العربي والإسلامي من جهة أخرى؟ ألم ينهض العرب بترجمة الكثير من الكتب عن الثقافة والفلسفة اليونانية والإغريقية؟ ألم يساهم هؤلاء بترجمة وتطوير وإغناء الفكر قديماً، كما فعل الكثير من فلاسفة العرب الشجعان ومن المسلمين من غير العرب في عهد المأمون مثلاً، في حين نرى أن الزميل يحاول أن يعيدنا إلى ماض سحيق حيث لا وجود إلا لفسلفة البؤس وبؤس الفلسفة. ويشعر بالقرف من كثرة الترجمات العربية عن اللغات الأخرى، في حين رأى السيد الدكتور فضل الله بحق أن ما ترجم إلى العربية قليل وقليل جداً من تلك الكتب الثقافية الممتازة التي تساهم في إغناء ثقافتنا العربية.

هل ثورة الشعب الإيراني، التي اختطفها الخميني وحولها إلى حركة طائفية مقيتة في إيران وفي حركات إسلامية أخرى، صحوة إسلامية؟ هل نشاط القاعدة وتنظيمها وعدوانيتها وأساليبها الفاشية في العالم كله صحوة إسلامية كبرى؟ هل نشاط حماس وعدوانيتها في غزة وإزاء منظمة التحرير الفلسطينية

صحوة؟ هل تبعية حزب الله لإيران ونشاطه في مصادرة الدولة اللبنانية وتعطيل عملها عبر ميليشياته المسلحة صحوة؟ هل المدارس الدينية الوهابية في السعودية وباكستان وما شاكلها المنتشرة في جميع أنحاء العالم ودروسها المليئة بالفكر التحريضي المعادي للفكر الآخر والدين الآخر والإنسان الآخر صحوة إسلامية كبرى؟ هل اضطهاد شعب دار فور وممارسة التمييز العنصري في السودان صحوة إسلامية كبرى من جانب النخبة الحاكمة؟

إن هذه الحركات والدول أعادت الدول العربية إلى الوراء لعقود كثيرة. نحن في هذا الكتاب أمام طمس الحقائق التاريخية والواقعية، نحن أمام علاقة غير سليمة ومسيئة بين الحكام المسلمين وأتباع الديانات الأخرى في الدول العربية والإسلامية عموماً، أمام تمييز ديني ومذهبي شرس .. وهنا الحديث لا يمس الدول العربية بل الدول الإسلامية كلها. أورد أمثلة كثيرة على ذلك: الموقف من الأقباط بمصر، الموقف من البهائيين بإيران، الموقف من الصابئة المندائية والإيزيدية بالعراق على سبيل المثال لا الحصر. لا يمكن لثقافتنا أن تتطور وتغتني ما لم تحتك وتتفاعل وتتلاقح وتتبادل المعارف والخبر مع الثقافات الأخرى. ومن هنا نشأت الترجمة ونشأ النشر الدولي الذي ساهم في نشر الثقافات المختلفة والمعارف والخبر وأغنى الثقافة والحضارة البشرية. فألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وكتابات ابن سيناء وابن رشد والفارابي وعشرات غيرهم ترجمت إلى الكثير من اللغات الأوروبية، وجرى العكس أيضاً. ومن هنا نشأت أيضاً حركة تبادل الوفود والفرق الثقافية الشعرية والمسرحية والموسيقية – الغنائية والرقص والعلوم لأنها مساهمة فعلية في هذا التعارف والتلاقح المثمر. يسمي السيد شاويش ثقافتنا بالـ "هجينة"،جئني يا سيدي بثقافة "نقية" في هذا العالم الكبير. هل الثقافة الصينية هجينة أم نقية؟ والنبي محمد بن عبد الله قال في حينها "أطلب العلم ولو في الصين"؟ هل الثقافة الأمريكية نقية أم هجينة ؟ وهل الثقافات الأوروبية هجينة أم نقية؟ التمييز لا يتم على أساس النقاوة والهجينية، بل على أساس الإجابة عن الأسئلة التالية: هل التلاقح الثقافي مفيد أم غير مفيد؟ هل هذه المسألة الثقافية المأخوذة من ثقافة أخرى تنفع شعوبنا العربية وتساهم في تطويره أم لا؟ هل نركض وراء القشور ونأخذها أم نأخذ اللب الذي يغني ثقافتنا؟ هنا المسألة وليست في مكان آخر يندفع إليه السيد شاويش بهاجس إسلامي يخشى من جميع الثقافات على الثقافة العربية "النقية جداً! إن ثقافتنا العربية أعطت الكثير للثقافات الأخرى و ومن حقها أن تأخذ منها دون أن تفقد هويتها، فمن يخشى على هويته، لا هوية له أصلاً!

وفي هذا الإطار يكتب عن الهوية الثقافية والخشية عليها ويحاول بحثها فكراً وممارسة في مقال عن الهوية. وفيها يرتكب الأخ الفاضل محمد شاويش أكبر الأخطاء، كما يرتكبها أكثر الكتاب المغالين والمتطرفين من المسلمين ومن القوميين اليمينيين، حين يبحث في نقاوة الهوية الثقافية العربية والإسلامية. فهؤلاء يخشون اضمحلال الهوية الثقافية العربية – الإسلامية. ولكن السؤال هو: هل يمكن أن تضمحل ثقافة وهوية ثقافية قابلة وقادرة على الحياة والتطور وساهمت في إغناء البشرية والثقافة

الإنسانية في الكثير من الأعمال الإبداعية في مختلف مجالات الثقافة المتعددة، ومنها الأدب، شعراً وقصة وحكايات وأساطير، والموسيقى والغناء والرقص، والرسم والمسرح، وكذلك في العلوم والفلسفة والطب والكيمياء والفلك؟ ولكن هل من المعقول أن نقصر الثقافة العربية على الجانب الإسلامي منها؟ إلم تتطور الثقافة العربية عبر الجماعات اليهودية والمسيحية والصابئة المندائية وغيرها من الأديان؟ هل هي هوية ثقافية عربية إسلامية أم هي متنوعة حقاً ومتلاقحة أيضا؟ إن الطريقة التي طرح بها الأخ موضوعته تعبر عن مصادرة وإلغاء لدور المسلمين من غير العرب في الثقافة العربية والهوية العربية الثقافية. هل تشكل المسيحية جزءاً من الهوية الثقافية الإسلامية، أم أنها جزء من الهوية الثقافية العربية وذات مسحة مسيحية أو يهودية أو صابئيةمندائية أو أفريقية غير إسلامية ..الخ. والسيد شاويش يؤكد أن الثقافة الإسلامية هي سنية، في حين كان الأفضل له أن يسميها إسلامية وفيها فقه متعدد التحليل والتفسير والتأويل ومتلاقح أيضاً.

وردت الجملة التالية في كتابه الموسوم "البيان التأصيلي": "نحن في الاتجاه التأصيلي ننطلق إذن من هذه الهوية، نريد لها أن تبقى متميزة ونقف بالمرصاد لمن يريد أن يذوّب هذه الهوية وهذه المهمة نراها تهم الجميع ..." ص 30/29. هذا التهديد طائش لا يخدم أحداً، كما أنه لا ولن يخيف أحداً، إذ ليس هناك من يريد أن يصفي هذه الثقافة وينهي دورها المتميز، ولكن يفترض أن نرفض أيضاً تحنيط ثقافتنا وهويتنا الثقافية وشرنقتها ووضعها في متحف للتاريخ بدلاً من جعلها تتفاعل وتتلاقح مع الهويات الأخرى، تؤثر وتتأثر، وتبقى محتفظة بجوهرها الإنساني التقدمي. هذا الهوس وهذا التهديد هو من طبيعة السلفيين الذين لا يرون في التجديد والتحديث إلا تهديداً للثقافة العربية ولهيتها الإسلامية. ويبدو واضحاً أن كل القوميين اليمينيين والمسلمين المتشددين مصابون بمثل هذا الهوس والهاجس. من المسائل التي تواجهنا في فكر هذا الكتاب أن الكاتب غير قادر على التمييز بين التخلف والتقدم، بين ما تعانية شعوبنا من تخلف وجهل وبؤس وفاقة في العلم والتقنيات والبحث العلمي و وأن علماء العرب والمسلمين يهربون على بلدان أخرى في الغرب، وبين تقدم الغرب في هذا المجال، بين مستويين حضاريين تقوم بينهما فجوة هائلة يصعب تجاوزها لسنوات طويلة قادمة، ومع ذلك فهو يريدنا أن نغوص في الفجوة ونوسعها أكثر فأكثر، فهو مأخوذ بأن "الإسلام هو الحل"، وهذا من حقه، ولكن عليه أن لا يحاول فرضه على الجميع ويهدد الجميع بالويل والثبور في حالة رفض رأيه وفي فهمه للهوية الثقافية وتنوعها. كم كنت أتمنى عليه أن يقرأ كتاب أمين المعلوف الموسوم "الهويات القاتلة" ليدرك في أي موقع يريد الرجل أن يدفعنا إليه والعيش في ظلمات الماضي البعيد.

نسى اكاتب أن في ثقافتنا العربية والإسلامية الكثير مما هو بائس وخائب يفترض رفضه، ومنه الموقف من الاستبداد ومن الحاكم المستبد، والموقف من حقوق الإنسان، وبشكل خاص الموقف من حقوق المرأة، والموقف من أتباع الديانات الأخرى وفرض الذمة عليهم فرضاً وكأنهم من المواطنين من الدرجة

الثانية أو الثالثة. نسيَ الرجل التعذيب والظلم والجور الذي تعرض له الإنسان في الدولة الإسلامية على امتداد تاريخ الدولة الإسلامية. كم أتمنى عليه أن يعود إلى كتاب موسوعة العذاب للسيد عبود الشالجي وهو في سبعة أجزاء ليعرف طبيعة الثقافة العربية في مجال الاستبداد والقسوة والتعذيب (الشالجي، عبود. موسوعة العذاب. الدار العربية للموسوعات. بيروت. بدون تاريخ النشر)، وكتاب الاستبداد والقسوة في العراق (حبيب، كاظم د. الاستبداد والقسوة في العراق. مؤسسة حمدي للطباعة والنشر. السليمانية. ط 1. 2005)، وكتاب "تاريخ العنف الدموي في العراق (ياسين، باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق. دار الكنوز الأدبية. بيروت. ط 1. 1999).

يتحدث الكاتب عن المساواة إزاء أتباع الديانات الأخرى في العالم العربي والإسلامي وينسى سياسة الضم والإلحاق والاحتواء والتمييز. كم كنت أتمنى عليه أن يعود إلى كتاب الدكتور عبد العزيز الدوري حول القرن العاشر الميلادي والرابع الهجري ليرى كيف كان التمييز إزاء اليهود والمسيحيين وغيرهم (الدوري، عبد العزيز د. تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ط3. 1995).

اشعر بالحزن لهذا الرجل إذ أني به وكأنه يستقي أفكاره من فكر القرون الوسطى، كما عبر عن ذلك أحد القراء. في الكتاب الكثير مما يستحق النقد، ولكن أكتفي بهذا القدر.

د. كاظم حبيب 2008/6/32

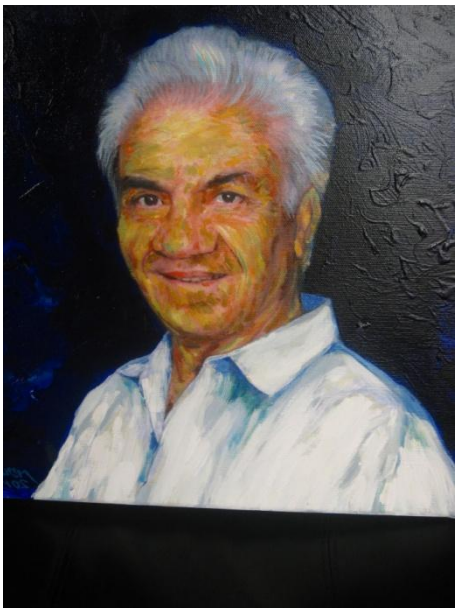

د. كاظم حبيب